

الوديعة والأفاعي

بقلم
إشراق شلبي

الوصل للطباعة والنشر والتوزيع م م

ح

Mob: 00971545481335

دار
الوصل
للطباعة والنشر

داروليد للنشر والتوزيع والبرمجيات

Mob: 0021115555760



عنوان الكتاب : الوديعة والأفاعي

اسم المؤلف : إشراق شلبي

تاريخ الطبعة : 2024

رقم الإيداع 2023/23380

الترقيم الدولي: 978-977-6873-51-3

عدد الصفحات : 348

المقاس : 19.5 × 13.5



- إلى روح أبي رحمه الله، أبي الذى علمنى كيف أفخر به.
 - إلى والدتى عفاف.
 - إلى أختى زهراء وأخى عبد الحميد.
 - إلى زوجى الغالى مصطفى، نعم السند.
 - إلى كل من يقرأ كلماتى، تلقى بشعاع ضوء على دربه.
- أهديكم روايتى.

إشراق شلبي

الليل فى مدينتى يقسو على بعض القلوب يحنو على بعضها.
يرخى سدوله لتستظل بنجومه قلوب مُترعة بالآلامها.
تجنو سحائبه على أرواح غاضبة وتشدو قيثارته على لحن ذكريات
انبعثت من قبو العمر.
الليل فى مدينتى له وجهان.
الليل فى مدينتى ينبض مع نبضات قلبك ولكنه لا يشبه تلك
الليال.

* * *

فى تلك الليلة استيقظت المدينة المكتظة بصنوف البشر، أبت
النوم، سماؤها قد تناثرت بها النجوم تلتف حول قمر يرسل بعضاً من
ضياء على أهلها بالطرقات الصاخبة التي ضجت بهرج الأثرياء وأنين
الجياع.
تتساءل دون قصد أهذا الضوء الوهاج من قمر ونجوم بالسماء أم
أنها أضواء انطلقت من حفل ساهر؟
على ضفة من النيل تصاعد الصخب من قصر قد عرف الناس أن
صاحبه هو أغنى أهل البلاد وأشدهم ثراءً.
يتهادى إلى مسامعك من كل صوب الغناء والضحك والعزف،
تراقصت الأشجار السامقة بحديقة القصر تداعبها النغمات،

السيارات الفارحة تراصت أمامه، أصوات المدعويين للحفل البهيج الذي أقامه فريد علام رجل الأعمال الثرى لأصحابه من أثرياء المجتمع بطبقته المخملية مختلط ضجيجيه فلا تميز الضحكات عن الكلام والترحيب.

حينما مرت عالية في طريقها من أمام القصر تسلفت أنغامه إلى مسامعها، زهرة تفتح بحسنها ستة عشر ربيع ليصب الزهر في عودها قابله، وكأنها قطعة من قمر مزجت بزهر جورى، تسمرت أمام القصر تحمق به، تتفرس جدرانه وأسواره وبناءه، ترنو صوب كل شئ فيه، تبدو كما لو كانت تنتظر أن يخرج إليها أحدهم، أو على موعد مع أحد قاطنيه، تعثرت قدماها فور إرتطامها بصخر صغير، سقطت، جرحت ساقها، يؤلمها الجرح لكن ما يحزنها أكثر أن تضرع ساقها بدماء قطع معه ثوبها، لم يكن ثوبها سليماً فقد كان به رتقان أخفتها بحياكة متقنة، وذلك الحذاء الذي قطع لمرة ليست الأولى فقد نال من الرتق والاصلاح ما نال الثوب من قبل دائماً تصلحه ثم تتعله.

لم تكف عن لوم نفسها ولوم رفيقتها بالطريق فلولا انشغالهما بمتابعة الأضواء الصادرة من القصر وألعابه النارية وأصوات المطربين المشهورين الذين لا يشدون إلا في مثل هذه الحفلات الثرية، لولا ذلك لما التفت عن الطريق وسقطت.

شردت فى ذلك المنام الذى رآته بالليلة الماضية ، لطالما رأت سكان القصر يكتفونها ، وجوههم غريبة ، لا تعلم هل جاءوا يرحبون بها أم أنهم يرغبون فى إلحاق أذى بها ؟ لاتفهم هل تلك المشاعر التى بدت عليهم تشى بأنهم يحبونها أم يبغضونها ؟ ثم تعود لتتذكر أنه مجرد منام ، لايلزم أن يكون واضح الملامح.

لم تكن المرة الأولى التى رأت بها ذلك المنام فقد تكرر لمرات لم تحسب عدتها.

شردت قليلاً في ذلك الطريق الذي عليها أن تمر به لتستقل حافلة تصل بها للجانب الآخر من المدينة.

جانب آخر.

عالم آخر ، حياة أخرى ، بشر مختلفون ، البيوت متراسة بعشوائية ، أغلبها قديمة بعضها متصدع الجدران ، ازدحم البشر يلهثون خلف سيارة أجرة يتنافسون ليحظوا باللاحاق بمكان فيها واقفين أو متشبثين بباب الحافلة ، لا يهم إن كان نصف جسدهم للخارج أو أكثر من النصف ، المهم أن يكون له قدم داخلها.

باعة الخضروات والفاكهة تعالت أصواتهم ، أطفال يلعبون يتخاطفون كرتهم ، في ذلك العالم الذي يفصله جغرافياً مجرد كوبرى وطريق ، أما بالحياة فالفاصل كبير.

شبت عالية على الطوق لتجد جمالها حديث الناس، خصلاتها
السوداء اللامعة منذ كانت تتعثر خطواتها كانت أطول من جسمها.
ملاحظتها وخفة ظلها، جريها في الطريق نحو أبيها وهى تلعب مع
صويحاتها كجري مهر أفلت من لجامه، يعانقها ويداعبها أب حنون.
يذكرها اقبال الليل كيف كانت ترنو إلى الشمس حين تستتر
بالأفق وهى منتظرة أن يمد الليل غلائله لتعود لبيتها.

ترتمى بواحة الأب الذي عاد منهكاً من دوامة العمل.
اللقيمات يتقاسماها فتحين من سالم التفاتة لابنته التي تضررت
جوعاً وهى تقضم كسرة الخبز فيؤثرها على نفسه، يترك الطعام
متظاهراً بالشبع، تتزاحم زخات المطر على زجاج البيت فتتحرك الريح
نوافذه المتهالكة.

ينهض الأب ليتخذ قطعة من خشب وثياب قديمة يحاول بها إحكام
إغلاق النافذة وسد فتحة الصقيع لعل أسنان ابنته عالية تتوقف عن
اصطكاكها أو يهدأ جسدها الذي يرتجف من البرد ينخر عظامها.
عاش سالم يرعى ابنته وترعاه فلم يكن له سواها، منذ توفيت
زوجته مريضة منذ سنوات لم يتزوج وقد تركت سالم وعالية وحيدين.
لطالما تذكرها سالم وهو يرنو إلى ابنته التي تشبهها في جمالها
وروحها، لا يتمنى أبداً لعالية أن تحظى بقدر أو مصير يشبه حال
والديها، يتجرع مرارات فقد وعوز وفقر والغصة في حلقه تزداد.

في كل يوم تعود من المدرسة يُذكرها سالم أنها لا تملك رفاهية
الرسوب فهو بالكاد ينفق على تعليمها ، يتمنى أن تكون شيئاً عظيماً.
لم تكن عالية بحاجة أبداً لمن يذكرها بمهمتها في الحياة فعليها
أن تتعلم وتكبر لتساعد أباهما ولتسعد قلبه.

الجميع يلحظ انكبابها على دروسها تثابر على الاستذكار.
ليس لها من الرفيقات الكثير فالكثيرات كن يجدن فيها
المنافسة الشرسة التي تستقطب أنظار الجميع وتحظى بكل اعجابهم ،
فلطالما تسمع منهن كلمات مثل ألا يوجد بالحي كله مثل عالية ؟ أم
أن الله لم يخلق مثلاً ؟

كلما درجت في الصبا تدرج معها حقد لداتها من الفتيات ، تشتعل
نيران تعصف بقلب من تراها ملكة الحسن والبهاء وأخرى ترى أعين
معلميها لا تتفك تتبعها في إستحسان لذكائها وتفوقها.

لطالما سمعت منهن معايير بفقرها ورقة حالها يسخرن من ملابسها
وطعامها ، فقد اعتادت أن تخطط الحذاء بعد أن تهتك أكثر من مرة
ولم تجد غضاضة في أن ترتق ملابسها لمرات عديدة في محاولة مواءمة
الظروف لم يكن يفت في عزمها أبداً ولم تفلح محاولات أترابها في أن
تنزع ثقته في نفسها ، أو أن تجعلها يوماً تنقم على واقعها الأليم.

كان الشيء الذي يستطيع أن ينزع بهجتها بالحياة هو الحال الذي
يبدو عليه أبوها في الآونة الآخرة فالرجل قد اعتلت صحته ووهنت.

كان عمله ليل نهار في مصنع فريد لتوفير لقمة العيش قد أصبح أكثر من احتماله، غير أنه لا يملك بدا منه.

درجت عالية تتهل من حب أبيها ورعايته، فحنان ذلك الأب ليس مرتبطا بما يملكه من مال ولا جاه ولا يمكن للثروة أن توفره ولا تعوضه.

كلما تقدم لخطبتها أحد كان يرد بالرفض حتى على أولئك الذين حاولوا اغراء سالم بأنهم سيوفرون لابنته الحياة الرغدة والعيشة الهائلة فيعوضون الفتاة عن تلك الحياة الصعبة التي تعيشها. لم تفلح محاولتهم في أن تغري سالم فهو يعرف أن ابنته تتمنى أن تكمل دراستها ثم أنها متفوقة.

اعتاد سالم أن ينهض إلى عمله مبكرا فيتناول إفطاره البسيط مع عالية التي تستمتع بالجلوس لأبيها قبل ذهابها لمدرستها. قطعة الجبن لم تكن تجتمع يوما مع طبق الفول إذ كيف للجنهات القليلة التي يتحصل عليها سالم أن تفي بكل الإحتياجات، خاصة وأن صحته المعتلة لا تسمح له بعمل أكثر في ساعاته مما هو عليه.

طريقها اليومي من بيتها إلى المدرسة ليس قصيرا ولكن لا مفر من الترحل للبيت والمدرسة، مما يستدعى خروجها من البيت باكرا فهي لاتملك ترف ركوب سيارة نقل أجرة أو حافلة جماعية.

كان ذلك كله من شأنه أن يتسبب في تلف نعل حذاءها لكن لا بأس مادام هناك من يصلحون الأحذية.

على الرغم من ملابسها القديمة إلا أن ثمة شيء ما يجعلها تبدو لكل من يراها كأميرة ترفل في أجمل حلى تنافس بجمالها وعذوبتها كل أولئك اللاتي يتكلفن مشقة الزينة وتكلفة شراء أفخم الحلي والملابس. في ذلك الطريق الذي شهد مسيرتها لا تتفك العيون تلاحقها.

تباينت بين عيون المعجبين وعيون الحاقدين وبعضهم يشفق عليها إلا أن أحدا لا يعرقلها عن الوصول للمدرسة فتستأنف رحلتها في إبهار من حولها فلا يلبث الإعجاب أن يطال مدرسيها لحسن أخلاقها وشدة اجتهادها ومثابرتها.

كم مرت عليها من أيام ثقيلة في صيف يلفح لهيبه وجهها فيسقط جمره على بشرتها الرقيقة.

وكم مرت أيام أخرى يجمد أطرافها أزيز البرد القارس وأمطاره التي تفلح في التسلل إلى فتحات حذاءها الذي قد خدعتها محاولات رتقه إلا أن تلك الرتوق قد استسلمت لتسلل الماء إلى قدميها.

كانت تنظر إلى أبيها وقلبها مشفق عليه فهي تدرك أنه لم يتوان في سعيه لأجلها فهو قد بذل أقصى جهده لكي يسعد ابنته لكن هذا هو كل ما استطاع فعله، فلسان حاله يخبر بأن العين بصيرة ولكن اليد قصيرة.

عندما يعود لبيته بساعة متأخرة من الليل تارة يجد الابنة وقد أعدت له العشاء وتارة يجدها بحجرتها منكبة على دراستها لتستذكر وتارة يجدها وقد غلبها النوم فلا يلبث أن ترنو عيناه إلى وجهها وعينيها المغمضتين مشفقاً عليها من عيشته الفقيرة. يهرع نحوها في حنو الأب على وحيدته يمد الغطاء ليشمل كل أطرافها ليدفئها فتستيقظ لتسأله

أتيت يا أبى ؟ سأقوم لأجهز عشاءك.

فلا يلبث أن يجيبها في عطف: لا فأنا أحتاج إلى النوم أكثر من أي شيء.

تصبحين على خير.

تصبح على خير يا أبى تحدثه وعيناها مغمضتان وهى في حالة بين النوم واليقظة وقد بلغ منها التعب مبلغه.

على هذا النحو كانت وتيرة الحياة قد مضت غير أنها قد ألفت ذلك التعب وألفه أيضا سالم فلا سبيل إليهما لتغييره.

في كل يوم يزيد شعور سالم بالتعب الذي بدى على وجهه وملاحظه غير أنه لا يجب أن يبدي تعبهُ فهو عامل بمصنع ولا يجب أن يعلم أحد بمرضه وألا سيبادرون بالاستغناء عنه.

كل ذلك جعل سالم يتظاهر بأنه في صحته فلا يظهر أنه مريض حتى أنه قد أفلح في خداع عالية وابهامها بأنه على ما يرام.

بيت فريد

.....

كان كل شيء قد بدى صاحبا فأصوات الضحكات والصياح في ذلك الحفل تسمع من على مسافات كبيرة وأضواء المنزل الأنيق تملأ سماء المدينة ، أصوات الضجيج والموسيقى كان قادرا على إيقاظ كل أهل المدينة ، لا سيما أن فريد قد اعتاد الإنفاق ببذخ شديد على مثل تلك الإحتفالات.

المدعوون كثيرون وكلهم من أصحاب الطبقة المخملية من رجال الأعمال وأصحاب السلطة والنفوذ ، دعاهم فلم يملك أحدهم إلا أن يستجيب فالحفل مقام لعرس ابنته الجميلة نور وثمة علاقات كثيرة وقوية تربط بين أهل العريس وعائلة فريد من ناحية وكذلك بصفوة وكبار عائلات المجتمع.

كان طارق عريسا مختلفا فعائلته وثراؤه يجعلانه محل إجلال وتقدير عائلة فريد.

حفل كهذا لم يخل أبدا من الصحافة يتنافسون في أخذ الصور ونقل الأخبار

كما لم يخل أيضا من جميلات الطبقة الثرية.

كانت عينا ضياء تدور في المكان تلاحق الجميلات فيتحدث إلى كل واحدة منهن يعرف واحدة ويقدم نفسه للأخرى ، كانت زوجته

ترمقه في كل لحظة تراقب نظراته التي لم تلبث أن لاحظت كل جميلات الحفل.

كل ذلك يستثير غضبها ويشعل غيرتها، لم تكن هند ذات جمال خلاب ولم تمتلك قلب زوجها ضياء فمنذ تزوجته منذ أربعة أعوام وهى تعرف أنها لم تمتلك قلبه، تعرف جيدا أن سبب تلك الزيجة هو العلاقات الاجتماعية والثراء والمصالح المشتركة فهي ابنة أهم المستثمرين ورجال الأعمال الذين تجمعهم بفريد مصالح قوية.

كان ذلك بالنسبة لعائلة فريد كافيا لاتمام الزيجة دون نظر لأي مشاعر قد تربط ضياء بهند.

لطالما تمنّت أن تتجّب طفلا ليربطها بزوجها أو يوطد أو اصر تلك العلاقة، أو حتى لتشعر أن لها أهمية في قلب زوجها. لطالما سمعته يتحدث إلى أصدقائه يخبرهم أنه غير سعيد وأنه لا يحب هند، أما أهله فكانت تستشعر في عيونهم جميعا أنهم يتمنون أن يكون لابنهم طفل.

لم تترك طبيبا حتى زارته. ولكن قدر الله لا يعاند وليس بالمال يمكنها أن تتال كل شيء.

شردت هند لتعود بذاكرتها إلى ذلك اليوم الذي تعارفت فيه على ضياء وقد كان حلما لكل الفتيات فهو الشاب المترف الأنيق، كانت

هي واحدة من المرشحات للزواج منه إلا أن الشيء الوحيد الذي زاد في ثقل كفتها كان قوة المصالح لم يكن حبه لها ولا إعجابه بها.

تذكرت كل المرات التي كانت تجتمع فيها بكل اللقاءات الإجتماعية والحفلات فكانت تشعر أنها أقل من الجميع، أفقدتها معاملته لها كل ثقتها بنفسها.

لم تفلح ثروة أهلها ونفوذهم في جعله يحبها بصدق، تذكرت كم مرة استجدت منه حبا أو كلمة إطراء كان يقدم تلك الكلمات بلسانه وقلبه يخبر بعكس كل ذلك

كم مرة رأت في عينيه حب أخريات.

تلك الآلام اعتصرت قلبها فكل هذا الثراء والترف وكل تلك الثروة وكل نفوذ الأهل قد وقفوا عاجزين عن جعلها تشعر بسعادة، لقد رنّت بعينيها إلى نور عروس البيت الجميلة وزينتها وقد زاده العرس حسنا فهي الجميلة المحبوبة، راحت هند تحمق بعينيها تديرها ذات اليمين وذات الشمال تتبع نظراتها هند وعريسها فتلمح حبه لها وحرصه عليها تمنى أن يحبها ضياء بهذه الصورة

استسلمت هند لذكريات التي أبت النسيان تذكرت تعلقه يوما بإحدى الخادמות اللاتي أتين للبيت والتي ما إن أدركت هند تلك العلاقة حتى طردت الخادمة وأهلها من المدينة كلها بل إنها قد توعدت بالفتاة إذا ظهرت في حياتهم مرة أخرى.

لم يقطع شرود هند إلا أصوات الأهل ينادونها لدعوتها لمأدبة الطعام ولإلتقاط الصور.

كانت أصوات ضحكاتهم كالنار في أذنيها كالرعد يزعجها ،
اعتادت تُصنّع الابتسامة والتظاهر بالبهجة وابداء مالاتجده من
مشاعر، ذلك النفاق الاجتماعي الذي صارت مجبرة على القيام به بل
وإجاداته.

تقدمت هند جموع المهنيين وضحكاتهما المتصنعة قد ارتسمت على
شفثيها طلبت من الخادومات مساعدتها في تقديم الطعام لصفوة
المجتمع، تناولت صحنها وهى ترقب الجميع بنظراتها لاتدرى مايخبئ
لها هذا البيت.

تبدو للجميع كسيدة مترفة ثرية يكتنفها النعيم وتعمها السعادة
في تلك الجنة العظيمة بينما تشعر هي أنها تحيى بالجحيم فقلباها
المترع بالهموم لايمكن لأحد أن يتصور حجم ما تعانيه.
تزدرد العصيردون أن تستشعر لذة أي طعام فكأنها ترتشف
جرعات من العلقم.

عندما انتهى العرس وانصرف المهنتون والمدعوون وغادرت العروس
إلى بيتها الذي لم يكن بعيدا عن بيت أبيها ، دلفت هند إلى حجرتها
وهى تمسح بظهر يديها عبراتها التي تسالت منسكبة على وجنتيها
تحرق قلبها تتظاهر بالإبتسامة ،

نظرت خلفها وهى تصعد درجات السلم تنتظر أن يصعد ضياء خلفها إلا أنه لم يبد أي اهتمام لتواجدها أو انصرافها فعاد ليستأنف حديثه وضحكه ومزاحه مع من تبقى من الحفل.

لم يأبه بدموعها ولا حتى بالهم الذي بدى عليها ، انطلق لحجرة المكتب يستأنف بعض مهامه خاصة وأن والده طلب منه مراجعة بعض الملفات والعقود حيث أنهم بانتظار شحنة هائلة تصل إلى مصانعهم بالصباح الباكر.

كان ضياء في الآونة الأخيرة يطيل المكوث في المصنع فقد أصبح رجوعه إلى البيت قليل.

ما إن أتم مهمته وأوراقه حتى دلف إلى حجرتة ، ظن أن هند قد نامت إلا أنها كانت تنتظره تريد التحدث إليه.

– ضياء أنا منتظرة منذ ساعات أود أن أتحدث إليك فمئذ زمن طويل لم نتحدث ،

كان صوتها يمزج ذلك الهدوء مع محاولة استدرار المودة منه.

– عفوا يا هند فليست لي أي طاقة للحديث الليلة مع أي أحد.

يُحدثها وقد أدار لها ظهره يجر عليه غطاء السرير ثم ما لبث أن دخل في سباته العميق تاركاً إياها تشتعل بغيظها مستشيفة إزاء تجاهله لها.

مرت الليلة الحزينة كغيرها من الليالى التي سبقتها لدى هند ،
أما ضياء فقد استيقظ في صباحه لا يفعل أي جديد غير أن جرعة
التجاهل أكثر ولا شيء آخر.

* * *

في ذلك اليوم سطعت شمس لتملاً سماء الكون بخيوطها الذهبية
الدافئة تبعث لتتسلل عبر كل مكان لا تفرق بين غنى وفقير تسلك إلى
بيت سالم تداعب عينيه عبر زجاج النافذة ليستفيق وينهض إلى عمله.
عندما قام من فراشه وجد عالية قد سبقتها فقد أيقظتها نسمات
الصباح الباكر وداعبت عينيها خيوط الشمس لتتنفض من نومها
فتلحق بأول ساعات النهار وقد أعدت لأبيها طعامه.
كان سالم يحاول إخفاء ألما حل به وأراد أن لا يظهر لابنته مرضه ،
إلا أن عالية قد لاحظت لتوها تغير وجه أبيها فقد امتقع وجهه ، لقد
رنت إليه فوجدته بحالة تتم عن مرضه ، كانت على يقين بأن ثمة تعب
يعانيه الأب.

– أبى مابك ؟ لا تقل أنك بخير فلن أصدقك هذه المرة كان
صوتها مترعاً بالهلع على أبيها ،
– أنا بخير يا ابنتي اطمئنى ، لم يملك سالم أن يتظاهر بالصحة
والعافية كما اعتاد أن يفعل فقد فضحته عيناه ولون وجهه وصوته ،

اندفعت عالية نحوه تسأله أبى إلا تسمع كلامي ؟ علينا أن نذهب للطبيب لفحصك.

ابتسم سالم في سخرية. طبيب ؟ وهل نملك ثمن كشف الطبيب والعلاج ؟

أشاحت بوجهها عنه لتخفى دموعها التي انهمرت على وجنتيها أبى يجب أن نذهب إلى أي وحدة صحية ليراك طبيب.

اقتربت منه تأخذ بيديه المرتجفتين تسنده لتخرج إلى عيادة شعبية مجانية.

عندما أجلسته على واحد من مقاعد أمام حجرة الطبيب في المستشفى المجاني وقفت إلى جواره فلا مكان لتجلس به ، تحلق في وجوه المرضى فهم كثيرون والزحام شديد ، انتظرت أن يقل العدد حتى يحل دور أبيها في الفحص ، عندما فازت بدورها في الدخول وأجلسه الطبيب يفحصه أخبرها الطبيب أن أباهما حالته سيئه لا يجب أن يبذل مجهود كما أنه يحتاج لفسيال كلوى ولا طاقة له بالعمل.

كان سالم يستمع لكلام الطبيب يود أن يضع يديه على فم الطبيب يقول له أرجوك اصمت لاتخبرها بحالى ، أنا بخير يابنتى لاتصدقى ، أنا سوف أظل أعمل وأرعاك.

كانت تكتم دموعها وهى تسأل الطبيب ألا يوجد علاج ؟ هل سيتحسن ؟

عندما انصرف وبرفتتها أبوها يتوكأ عليها رافقته إلى فراشه
أعدت له طعامه أخبرته أنه سيكون بخير.

أبى لتعلم أنك منذ تلك اللحظة لن تذهب للعمل وسوف أذهب أنا
اليوم سأعمل بالمصنع بدلا منك وسوف تتناول علاجك، ستتحسن،
كانت تحدثه وهى تخفى وجهها كي لا يرى وجعها.
استسلم سالم للنوم بعدما ناولته الدواء الذي اشترته بكل
ماتواجد بالبيت من مال.

شدت عليه الغطاء لينعم بالنوم الهادئ ثم اتخذت سبيلها إلى
المصنع.

طلبت أن تقابل أحد من أولئك الذين يشرفون على العمل.
انتظرت ساعة أمام مكتب فريد.

ما إن فرغ وسمح مساعدته بأن تدخل إليه حتى أردفت مسرعة خلف
مساعدته ثم ما لبث أن سألها فريد وهو ممسك بأوراقه لاييدى
اهتماما بعالية.

خيرا ماذا تريدين ؟

تمتتم في صوت هادئ ويدها ترتجفان وقدماهما يرهقهما طول
المسير وهى ترد فريد بك أنا عالية ابنة سالم العامل لديكم بالمصنع.
- خيرا عالية هل تريدين شيء ؟ قالها و عيناه خلف زجاج نظارته
يحملق بأوراق تكومت على مكتبه لا ييدى إهتماما بها.

– نعم فأبى مريض وملازم الفراش وقد منع من العمل وأنا
أود أنا أعمل بدلا منه. استطردت وهى تلاحق الكلمات المندفعة
وأنا يا سيدي سأفعل مثل ما كان يفعل لن تشعر أن العمل نقص
شيء.

لم يكن فريد مهتماً بكلامها بقدر اهتمامها بأن يسمع فتتهد
قليلا ثم صمت هنيهة وهو يتفرسها ثم فكر قليلا وعاد يربت بقلمه
على المكتب ليرد عليها.

– حسنا يا ...

قلت ما اسمك ؟

– أسمى عالية

ضحك قائلاً: آخر حرف من اسمك ألف أم تاء مربوطة ؟
فى هدوء أجابته البعض يكتبه بالألف والبعض بالتاء المربوطة ،
لا بأس بأيهما.

– حسنا يا عالية يمكنك العمل من اليوم سأطلب الموظف
المختص ليرافقك إلى مكان العمل.

تنفست عالية الصعداء ووضعت يدها على قلبها لتبث روحها بعضا
من الطمأنينة وهى تردد فيما بينها وبين نفسها الحمد لله أن ساعدنى
ووفقتى للعمل وإيجاد مصاريف علاج والدي.

كان الموظف يسير وهى تردف خلفه مسرعة نحو عنبر ضخمة ممتلئ بالماكينات والآلات، كان صوت الآلات ومنظر التروس وسرعة دورانها كافياً لأن تصاب بدوار فهي لم تألف هذا العمل بعد.

الجميع ينظر إليها في دهشة بعضهم يتساءل كيف لتلك الفتاة أن تتحمل مشقة العمل الذي يصعب على الرجال.

بعضهم لم يتمكن من كتمان فضوله وبدى متسائلاً.

يا بنيتى هل مثلك سيستطيع أن يتحمل مثل هذه المشقة ؟ أخذت تجيب كل واحد منهم بإجابة نمطية واحدة :لا أملك سوى ذلك يا عمى.

البعض لم يتمكن من إخفاء نظرات الشفقة نحوها.

أسرعت لتقف إلى جوار الماكينة التي أخبرها كبيرهم أنها الماكينة التي ستقف عليها عوضاً عن أبيها.

لم تضع وقتاً بل أسرعت في طلب أن يعلموها عملها المنوط إليها. لم يكن الوقت طويلاً الذي احتاجته عالية في تعلم حرفتها بل أبدت براعة وسرعة وجلداً، وما هي إلا أيام حتى أصبحت تعمل وقتاً إضافياً للحصول على المبالغ التي تحتاجها في علاج والدها.

في كل يوم تستيقظ مسرعة تناول أباه الدواء والطعام الذي أعدته لتتطلق مسرعة إلى عملها لتعود بالليل.

في بعض الأحيان كانت تحصل على ساعة من الراحة في منتصف اليوم تهرع فيها للبيت للاطمئنان على أبيها ثم لا تلبث أن تعود مسرعة للمصنع.

مرت شهور على هذا الأمر وهى على نفس المنوال.

كانت الجارات يشفقن عليها وهن يرينها وعلامات الإرهاق بادية عليها تروح وتأتى على عجلة من أمرها.

ملابسها المرتقة وحذاؤها القديم البالى وغطاء رأسها الذي حاكته من بقايا قماش، . ماتراها إلا وهى تتنهد لتلحق بأنفاسها وقد بدت مرهقة، لم يكن حالها يخفى على أحد.

أما أبوها الملقى على فراشه متوسداً مسنداً قديماً فلم يكن يهدأ خوفه ولا قلقه عليها نظرات الشفقة والعجز تملأ عينيه كلما حلت عالية أو ذهبت.

لطالما أخبرها أنه يعز عليه شقاؤها وتعبها، فترد عليه : والله يا أبى لو فعلت أضعاف ذلك ما كان يوفيك حقك أبدا فلطالما عانيت أنت وتعبت كثيرا ولم تشتك ولقد آن أوان أن ترتاح أنت، واطمئن على ابنتك يا أبت فقد اعتدت الجلد والصبر.

مضت أيام وعالية تعتاد حياتها الجديدة وتألف مشقتها دون أن يقلل التعب ابتسامة الرضا التي تعلو شففتها ولا تمحو ذلك الجمال الآخذ الذي يكسو وجهها بل أنها تزدد حسنا عجيبا.

في ذلك اليوم أسرعت عالية الخطى نحو المصنع لتسير في طريقها الذي اعتادته غير أن هذه المرة قد لحق بها اثنان من شباب بدى عليهما الانحراف وسوء الخلق فقد لحقاها يقطعان عليها الطريق ويضايقاها حتى هم أحدهم أن يمسك ذراعها ليجذبها معترضا طريقها.

أسرعت مبتعدة عنهما إلا أنهما لحقا بها مرة ثانية فمנعاها من المسير حاولت صدهما وضربت أحدهما بحقيبتها فأسرع الآخر يجتذبها فصرخت.

في تلك اللحظة كان ضياء يسير بسيارته فدخل من ذلك الشارع مصادفة فلمح ما يحدث فأمر سائقه أن يتوقف.

ما إن توقفت عجالات السيارة حتى نزل ضياء وأمسك بأحد الشابين ففر الآخر هاربا واستجداه الأول ليتركه ولن يكرر فعلته، فما أن تركه ضياء حتى فر لاحقا بصاحبه.

أما عالية فقد وقفت تزفر أنفاسها تحاول ضبط توازنها فقد أربكها كل ما حدث تسمع صوت ضربات قلبها من على بعد وتلمح نظرة الخوف والرعب بعينيها أدرك ضياء أن الفتاة مضطربة.

تسمر قليلا في مكانه قبل أن ينطق بكلمة لتهديتها فقد لمح خلف تلك الملابس البالية حسنا لم يرى مثله من قبل.

يمم بناظريه صوب حذائها البالى والرتق في ثيابها فارتسمت
الدهشة على وجهه.

بادرها بقوله : حسنا لاتقلقى لن يعترضوا طريقك مرة أخرى لكن
إلى أين أنت ذاهبة ؟

ردت وصوتها المضطرب وكلماتها المرتجفة ، ذاهبة إلى عملي
بمصنع فريد بك

تلقي ضياء الكلمات مبتسما يشعر أن الحظ حليفه : حسنا حسنا
إذن لتركبى معنا هيا هيا فطريقنا واحد.

أسرع بفتح باب السيارة لها وأشار بيده لتركب ، فما كان من
عالية إلا أن رفضت وشكرته. ومضت مسرعة الخطى.

ألح عليها بالركوب إلا أن إلحاحه لم يفلح في إقناعها.

أسرعت خطواتها أكثر ، تترجل نحو المصنع لتلحق بعملها.

منذ ذلك اليوم وضياء لا يغيب عن المصنع أبدا يتحين الفرص
ليذهب إلى عنابر العمال ، خاصة ذلك العنبر الذي تعمل به عالية.

لم يتمكن من كتمان إعجابه بها ، استسلم لذلك الشعور الذي
تسلل إلى قلبه.

كان ضياء على استعداد ليفعل أي شيء ليحظى بعالية.

سأل عنها وجمع كل المعلومات.

لم تفلح محاولاته في جذب انتباهها إليه بل إنها تعاملت معه كما اعتادت التعامل مع أي شخص بتحفظ شديد.

تمكث طوال يومها منكبة على الماكينة دون تقصير أو تواني، لا تلقى بالاً بمحاولات ضياء في لفت انتباهها أو مكوثه الملحوظ لساعات بالعنبر على غير المعتاد ولا كلماته الدالة على الإطراء والإعجاب.

لم يزد تجاهلها ضياء إلا إصرارا ورغبة في نيل ودها، وهاهو تضطرم النيران في صدره لشدة تجاهلها له، صار لا يعرف ليله مذاق النوم ولا هدأة الكرى، لا يعرف أي مشاعر تلك التي ضاق بها صدره وخالجت أنفاسه واعتصرته، يدرك أن ثمة شيء قد لحق بفؤاده صار يهرع من بيته مندفعاً نحو المصنع قبل كل العاملين الذين تحت يديه يظل منتظرا وعيناه قد تسمرت نحو زجاج النافذة بمكتبته تدقق في كل من يدخل من البوابة لا يهدأ حتى تطل هي، غير أن قلبه لا يسكن فأنفاسه المتلاحقة وخلجات قلبه وتلك النار التي تضطرم بين أضلعه كل أولئك يدفعونه دون تفكير منه ليدلف هرعا من مكتبته ليتوجه إلى العنبر مختلقا حججا وأعدارا ليراهها.

يدعى رغبته في متابعة العمل ومتابعة جودة الانتاج؛ يتفرسها بعينيهِ يحرق فيها ينسى الكون حوله ولا يأبه بمن يراه على تلك الحالة، يستجدي الكلام معها غير أنها لا توليه من الإهتمام ما يريد فتد على

سؤاله بالكلمات المقتضبة وعيناها لا ترفعها عن الأرض، تزمّل نفسها
بالواسع من الثياب وغطاء رأسها يحكم إخفاء كل شعرها وزينتها
غير أن محاولتها في إخفاء كل معالم جمالها بوشاح على رأسها
وملابس ساترة لم تفلح في إخفاء ذلك الحسن الصارخ الذي ينطق دون
إرادة منها.

كلما دعاها ليسألها عن شيء يدعى متابعة عملها تجيب سؤاله
وتسرع عائدة إلى الماكينة التي تعمل عليها، لا ترى أمامها إلا النسيج
الذي يخرج من الماكينة ولا تسمع إلا صوت تروسها.

كلما خلى ضياء إلى نفسه شرد في ذلك العشق الذي يملأ قلبه ولا
يدرك له حلا فكيف له أن يتزوج تلك العاملة الفقيرة وكيف يدخلها
بيته وهو من هو ؟ ثم كيف له أن يخبر أهله بمكنونات نفسه
وما يجيش به صدره ؟ أنى لهم أن يدركوا حبه الذي سيطر على لبه
وتملك روحه كلما حاول نسيانها فيجد ما يزكى ذلك العشق بفؤاده.
كيف له أن تتلف حياته مع هند التي لو علمت ما يعزم عليه ضياء
لقتلته وقطعته إربا ولأحرقت كل مدنه ولهدمت قلاعه.

ما إن يشرد في أمره ويفكر حتى ينتزع الفكرة من رأسه ثانية إذ
ربما كان حبه لها مجرد نزوة من تلك النزوات التي يعيشها ويألفها،
ربما كان تعلقه بها كغيرها من النساء اللاتي اعتاد أن يملهن سريعا
ثم ما يلبث أن يعود لحاله، فكم من المرات التي تعلق قلبه بفاتنة من

الحسنات فهن حوله كثيرات غير أن هذه المرة الأمر غريب فالفتاة ليست من طينته ولا من طبقة فلا بد أن يقلع عن التفكير بها ولا بد له أن ينساها.

كلما عزم على النسيان عانده قلبه وازداد تعلقاً بها ، لطالما شرد يفكر في حسننها الذي لم يره وبراءتها التي لم يعرف لها سابقة حتى تلك الملابس البالية التي رتقتها مرارا وتكرارا لا يرى فيها إلا جمالا من نوع غريب لم يألفه حتى خجلها الذي يرافقها يكسو وجنتيها في حمرة كورد جورى يغطى كل ماحوله.

كلما مضت الليالي عليه يزداد بعدا عن هند ، صار وجودها في حياته روتيناً مملاً صار وجهها الذي يغض طرفه عنه مثيرا لضيقه وضجره وكأنما يتجرع مرا لا يستسيغه ، كلما سنحت الفرصة لها لتختلى بزوجها أو تكون إلى جواره برفقته وقد تزينت في أبهى صورها كان يصدها ويفلق أمامها كل الأبواب فكل حيلها تفشل وكل دفاعاتها تتدحر ، في كل لحظة تنصهر شموع الأمل في قلبها دون جدوى فتركه مظلما غير أنها تحترق بها ، تبني قلاعاً فيأتى هو فيهدمها فتراها محطمة فتدرك أن ما بنته لم يكن إلا رمالا أو بيتا من قش عصفت به الريح فذرت.

لطالما استجذبت منه أن يعاملها برفق أو يعيرها مثقال ذرة من إهتمام،

تدرك أن وجودها لديه أمر على غير هواه وأنه لولا المصالح والصفات لكانت مطلقة منذ زمن بعيد.

مضت الأيام وعالية لا تغير من مقدار رعايتها لأبيها فتهرع لمنزلها بعد مشقة اليوم الثقيل حاملة بيديها الضعيفتين الطعام والدواء، تسرع نحوه وقد أحضرت له فاكهة مما يحبها لا تلبث أن تأتي بصحن تضع فيه الفواكه لتتناولها معه والضحك يعلو وجهها، فهي لم تعتد أن تتذمر من تلك المسؤولية، حتى دراستها التي اضطرت لعدم الانتظام بها قررت أن تؤجلها حتى تستقر الأمور.

تنهى نهارها فتتوجه لغرفتها لتخلد للراحة، غير أن عقلها لا يلبث أن يتشبث بأفكار فتشرد في ذلك المقيم بعشقها فهو لم يصرح غير أن عيناه تفضح عشقه، وصدها له لا يزيده إلى تعلقا بها، كلما شردت في أمره وجدت نفسها تمنعها من ذلك فمجرد التفكير في ذلك الأمر. درب من دروب الجنون لا يمكن لها أن تتماذى به فأنى لها من ذلك الرجل ثم أنها علمت أنه متزوج من سيدة من وسطه إذن لا مكان لها بحياته بل لا يمكن لهذا الشاب الذي عرف بقصصه ومغامراته أن يكون زوجها فهي الفتاة الطيبة المتزنة التي لا يملكها إلا رغبتها في شفاء أبيها واتمام دراستها ولا تود أن تضيع آمالها وحياتها. ثم أنها تدرك أن أهله لا يمكن أن يوافقوا على تلك الزيجة فهيات هيات أن يكون ذلك.

لطالما أخدمت أفكارها تلك وأنهتها بجملة تقولها لنفسها ، يا عالية
كفى عن هذا الهراء فذاك والله درب من دروب الخيال والجنون الذي
لا يقبل عاقل به أبدا ، لطالما أيقظها صوت أنين أبيها يخترق مسامعها
في غرفتها المجاورة فتتطلق مسرعة نحوه ، تمكث على سريرها إلى
جواره تداويه وتقدم له الدواء لاتتركه حتى يذهب في نعاسه ، تظل
عينها متعلقة به وعقلها مشغول به تخاف عليه فقد صار كل مالها
من الدنيا تراه وقد أصبح لا حيلة له ولا حول له ولا قوة بعد أن كان هو
الجدار المنيع الذي تستند عليه وكان عصاها من الدنيا تتوكأ عليه
في شديد الأيام ووجعها غير أنه صار واهن القوى يتوكأ هو عليها ترى
في عينيه شفقتة عليها وحبها غير أنه لا يملك حلا ولا سبيلا ليخفف
عنها أو يسعدها .

كلما رأت في عينيه ذلك أخبرته أنه يكفيها أن يدعو لها
فيكفيها أنفاسه الطاهرة يسعدها أنه موجود بحياتها .

ينبلج الصباح وتملأ الشمس بخيوطها الذهبية صفحة الكون
فتغدق على شرفتها بالأشعة الدافئة فسحاء شمسها تعرفه وتعتاده ، ما
إن تزيج ستائر غرفتها الرقيقة عن نافذتها تطالع بناظريها السماء
تتسم ضوء الصبح الصافي ، تكلل دعواتها صوتها فلا تنفك تتاجى
ربها في كل حين ، لطالما دعت أن يكفيها شر البشر وأذاهم وأن
يعينها على المهمات الجسام التي آلت إليها ، تدعو أن يثبتها على

الصراط الذي استقامت على المسير به، تشرّد في البشر يروحون ويأتون تختلف مطالبهم من الحياة لا يدرك أي منهم أن بالبيت أناس يشقيهم العناء طلبا للقمة العيش الشريفة، يقطع شرودها صوت الأب المريض فتهرع إليه تعد طعامه وملابسه ودواءه دون تبرم أو تذمر لتتطلق في دربها للعمل، يقطع ضياء طريقها وقد ترجلت مهرولة لتلحق بموعد العمل فيحاول ضياء أن يوقفها للتحدث معها، غير أنها ترد عليه بكلمات رادعة لتصدده وتثنيه عن محاولة اللحاق بها.

في تلك المرة جذب معصمها في قوة فهاها ما فعل فدفعته بقوة وقد نفرت منه وصوتها يعلو عليه تنهره.

— مابك يابن الأكابر والأغنياء ياسليل الحسب والنسب ماذا ظننت نفسك فاعلا ؟ أما تراك وقد سولت لك نفسك أن كل فتيات الكون يشبهن تلك اللاتي تعرفهن، اذهب واغرب عن وجهي ولا أراك بطريقي مصادفة.

يحاول ضياء تهدئتها فيجيبها أقسم لك أننى عازم على الزواج بك فلست بالنسبة لي كأي من النساء.

نزلت كلماته عليها صادمة هالها ما سمعت ثم ما لبثت أن استعادت صوابها لتلقى عليه مقولتها.

ماذا تقول ؟ ألسنت متزوجا من سيدة من بنات طبقتك ؟ ثم أننى لست غنية مثلك ولا ابنة عائلة ثرية.

– لا تكملنى يا عالية أنا يحق لى الزواج، وعن زوجتى فالكل يعلم أنى لا أحبها.

تركته واندفعت مبتعدة عنه قائلة : اتركنى وشأنى ودعك من هذا الهراء فلست لك ولست أنت لى فالمشرق والمغرب لا يلتقيان. حاول إيقافها ففشل فقد ابتعدت عن ناظره مسرعة نحو المصنع. اضطربت فى هذا الصباح وتصاعدت أنفاسها وقد تشتت عقلها فى طلبه تدرك أن الأمر غريب وأن ثمة شيء سوف يحدث بحياتها غير أنها لا تعلم ماسوف يكون.

لم يتوجه ضياء فى هذه اللحظة للعنبر ولكنه صعد إلى مكتب أبيه، طلب منه أن يأخذ بعضاً من وقته أصر أن يكون ذلك الآن. أخبره بما يكن صدره وما تجيش به نفسه.

– نعم أحببتها يا أبى ولو لم أتزوجها فسوف أطلق هند وأرحل عن البلاد وأقسم أنك لن تعرف عنى شيء.

رد أبيه متوقع فقد أردف يسأله ما الجديد فى تلك المرة لماذا تصر على الزواج ؟

ثم من تكون تلك حتى أضع يدي بيد أبيها ذلك العامل الفقير

هل جنت يا بنى حتى تفكر بالزواج من تلك ؟ تلك يا بنى ؟

– سأتزوجها يا أبى ولو أردت أن أساعدك بكل مرادك من الصفقات والأعمال فلتسرع لنذهب لطلبها من أبيها.

مضت أيام يعاقب فيها ضياء أباه فلا يتحدث إليه ولا يخاطبه ولا يتواجد بالبيت. الجميع يدرك أن ثمة ما يشغله، والداه يعرفان وأخته قد علمت من أمها أما زوجته فهي لا تعلم بجديد الأمر.

ازدادت الفجوة بين ضياء وأبيه، غير أن الأب لم يجد بدا من محاولة إرضاء الولد

وقف ليلحق بابنه على الباب يناديه فسأله ضياء عن ماذا يريد بادره أبوه وهو يهمس كما لو كان يخفى سرا يتطلع حوله حتى لا يسمعه أحد، أنا سأصحبك للذهاب لبيت الفتاة ووالدها.

– الفتاة ؟ تقصد عالية ؟

– نعم هي لكن خفض من صوتك

عاد ضياء للخلف خطوات اقترب من والده يتحدث هامسا : أبى هل أنت جاد فيما تقول

انفعل فريد يجيب ابنه بلهجة حادة منذ متى وجدتتى مازحا ؟

– أبى أنا لا أقصد لكن فقط أنا أعرف أن الأمر له تبعاته وعواقبه التي تخشاها فأنا أعلم أنك تخشى على مصالحنا مع الشركاء ومع والد هند أن تتأثر وأنتك ..

قبل أن يكمل ضياء حديثه قاطعه فريد هل أنت مجنون ؟

من قال أن أحدا سوف يعلم ؟

طأطأ ضياء رأسه قائلاً فهمت أنت تعنى أن أتزوجها سرا أليس كذلك ؟

- بلى هو كذلك.

صمت ضياء هنيهة يرنو إلى الأرض يدير حديث أبيه في رأسه ثم انصرف وقد أخبره أنه سيذهب للمصنع.

كان ضياء قد شرد في حديث أبيه فما المانع أن يتزوج بالفتاة سرا أو على الأقل بعلم المحيطين بها ؟

حتما سيوافق أبوها وسترحب هي بالأمر فهم شديداً الفقراء لا عز لديهم ولا جاه وسيكون أقصى آمالهم تلك الزيجة ثم أنه سيدفع مهوراً كبيراً وسوف يغير حياتها إلى نعيم لم يحلم به أبوها المريض.

لم لا ؟ الفقراء يعانون الجوع والحياة القاسية فأنى لهم بزيجة مثله إن مجرد التفكير بأن يكون الزوج بهذا العز والجاه كفيلاً بتغيير حياتهم إنه النعيم قد فتح لهم وباب السعادة فهل لهم أن يرفضوا ذلك الكرم وهذا العرض ؟ ليسوا بهذه السذاجة ولا بهذا الغباء. ذلك مادار برأسه.

لم يكف ضياء عن التفكير فعرض أبيه يتيح له فرصة أن يحظى بكل ما يريد فيتزوج من يهفو لها قلبه ووقع في عشقها ولا يخسر هند بنفوذ أبيها وأسرتها.

يمسك بالعصى من المنتصف، انه تفكير تجارى واستثمارى لا يخرج إلا من رأس يحوى عقلا كعقل فريد وولده.

توقفت عجلات السيارة ليخبره السائق بأنه قد وصل فيقطع شروده الطويل.

عندما دلف ضياء إلى مكتبه استجمع أفكاره ثم عاد للعنبر ليتحدث إلى عالية، التفت إلى مكانها لكنه لم يجدها، تغير وجهه واحمرت عيناه كاد يتميز من الغيظ، استشاط وثار لينادى في ثورة عارمة أين عالية ؟

لم يملك كتمان لهفته ولا غضبه لغيابها.

أجابته زميلتها بأنها لم تأت اليوم.

لم ؟ لماذا غابت ؟

في تردد شديد أجاب أحد العمال ربما مرض والدها وربما

تردد في إكمال الجملة بل بدى لضياء انه تراجع عن ماكان يود قوله.

ربما ماذا ؟ انطق، تحدث بما تعرف.

لا أعرف شيئاً سيدي ولكن أنا أقصد ربما لن تأتى مرة ثانية إما وجدت عملاً آخر أو ستكمل دراستها أو تمت خطبتها أو ضايقها أحد أدار ضياء وجهه، وضع يده يمررها على رأسه تارة وعلى وجهه تارة يفكر.

مكث لدقائق يراجع ماقاله الرجل فهو بالفعل أزعج عالية وضايقتها، أو تكون ستكمل دراستها أو وجدت عملا أسهل تستطيع معه الدراسة وربما تمت خطبتها فالفتاة جميلة وخطابها كثيرون زفر أنفاسه في صعوبة بالغة تزايدت خفقات قلبه انتفخت أوداجه تشعر من عينيه أن أسدا ثائرا يستعد للهجوم.

استدعى السائق وأمره أن يصحبه إلى بيت سالم، حاول السائق إخفاء دهشته إلا أنه نفذ الأمر مسرعا.

استقل ضياء السيارة حتى وصل إلى شارع ضيق بسيط، المارة حوله يتجولون في ملابس بسيطة تدرك من عيونهم معاناة الفقر وضيق الحال، البيوت مبنية من طوابق قليلة وقد بدت قديمة ودهانها متقشر وبعض الجدران متصدعة، الشارع ضيق قد لايسمح بعبور سيارة كبيرة فارهة كسيارته خاصة وأن بائعي الخضروات قد تناثروا بالطريق تعوقه عربات الفول وعدم انتظام الأبنية.

نزل من السيارة وترجل حتى وصل البيت.

ما إن وصل وطرق الباب حتى هرعت عالية لتفتح، وجدته أمامها لم تتوقع مجيئه، تسمرت مكانها لا تتطرق نظرت إليه وقد تجمدت أطرافها حتى الكلام على شفيتها قد تجمد ما تفعله هو أن تحمق في ضياء وعيناها قد تسمرت تحاول استجماع مايمكن أن يقال أو أن تفعله في تلك اللحظة إلا أنها فشلت في ذلك.

لم تتبس ببنت شفة.

بادرها ضياء في هدوء : هل ستركيني واقفا هكذا ؟ ألن تقولي
تفضل ؟

زردت ريقها لتتشع غيمة الصمت التي خيمت عليها أهلا ضياء بك
تفضل أشارت له بيديها بالدخول.

تهادى من الداخل صوت أبيها الواهن يسال : من الضيف يا عالية ؟
لما أخبرته بأن الضيف هو ضياء بك اندهش الرجل وغلبته الحيرة
يفكر في سبب مجيئه.

تقدم ضياء ليصل إلى غرفة الجلوس المتواضعة فساعدت عالية
أباها في النهوض من فراشه ليرحب بالضيف كما ينبغي ، استأذنت
لتحضر واجب الضيافة إلا إن الباب عاد جرسه ليدق مجددا فاتجهت
نحوه لتفتح.

هالها في هذه المرة ضيفهم المفاجئ إنه فريد بك إلا أنها في هذا
الموقف كانت أسرع في التغلب على دهشتها فرحبت به واصطحبته إلى
الغرفة التي تواجد فيها ولده مع أبيها.

حملق ضياء في وجه أبيه والدهشة قد سيطرت عليه.

استدرك فريد الموقف فقال لولده : سألت عنك فأخبروني أنك
غادرت المصنع مسرعا دون أن تنتظرني فادركت أنك هنا.

استغرق سالم في الترحيب بضيفيه الغير متوقعين دعاهما للجلوس في أفضل كراسي لديه، كرر كلمات الترحيب بهما ثم ما إن لبثت عالية أن عادت تحمل صينية الشاي وبعض الفاكهة وقدمتها لهما تناول ضياء منها الكأس وقد تسمرت عيناه بها يلاحقها كلما تحركت فأخجلها ذلك فوضعت عينيها في الأرض وتوشح وجهها بالحمرة وتفصد العرق من جبينها.

بادر فريد بطلب خطبة عالية فارتبك سالم إذ لم يتوقع ذلك ولكن ياسيدى نحن لسنا في مقام نليق فيه بكم ثم إن ابنتي مازالت صغيرة ترغب بإكمال تعليمها وضياء بك متزوج فالأمر كله غير منطقي استشاط فريد غضباً إلا أنه حاول أن يكظم غيظه وهو يلتفت إلى ولده الذي مكث مترقباً حديث أبيه.

اسمع يا سالم مسألة أن الفارق عظيم فهذه معك حق فيها ولكننا تجاوزنا عنها ومسألة أن ضياء متزوج فالأمر لن يؤثر على زواجه لأن الزواج سيكون سراً لن يعلم به إلا أنت وبعض أهلك ثم استطرد في سخرية إن وجد لكم أهل إما مسألة التعليم فلن يؤثر الزواج على دراستها فضياء مشغول لن تراه كل يوم وسوف ننقلكم إلى بين جيد بدلا من هذا.

كان يتحدث ويده على أنفه التي كمشها وهو يدير رأسه في البيت معربا عن اشمئزازه من رقة حالهم ورائحة الرطوبة والعطن التي تتبعث من الجدران.

انتظر سالم حتى يكمل فريد حديثه ثم شرع يتحدث.
تستشعر القوة في صوته وكأن صجته لم تشتكى وهنا ولاسقم.
فرد ظهره للخلف واعتدل بجلسته وهو يلتفت إلى ابنته التي انزوت
صامته تكتّم دموعها تبتلع الحسرة في حلقها وبريق عينيها تزيده
العبرات ضوءاً وتألّقاً.

اسمع يا سيدي فريد بك. مجيئكم لدينا وتشريفكم لنا هو كرم
وفضل عظيم وشرف لآنحلم بأن نحظى به فمابالك بتشريفك لنا
بخطبة ابنتي، لكن اعدرني ياسيدي وسامحني أنت أيضا ضياء بك
فابنتي التي يراها كل منكم فتاة فقيرة رقيقة الحال ترتدي الخادمة
لديكم أفضل من ملابسها بل وتطعم كلابكم أفضل من طعامها إلا
أنها في عيناى هاتين ملكة متوجة تملك حياتي وقلبي، ملكة
لاستحق أن أزوجهها سرا ولا أخفى زواجها ولا أن أسمح باهانتها مهما
كلفني ذلك، كل أموالك ياسيدي وكل ثرواتك لا تصنع ابتسامة
ابنتي ولا تجعلها سيدة القصر الذي تستحقه، واسمح لي قبل أن
تسخرا من حديثي فأنا لا أعنى قصوركم، لا لا فليس القصر الذي
تبغى ابنتي أن تعيش حياتها فيه هو الجدران الشاهقة والأثاث الفخم
والمساحة الهائلة ولا الذي تنتظرها أمامه سيارة باهظة الثمن
كسياراتكم لا ولكنه ذلك المكان الذي تشعر فيه عالية بأنها
صاحبته وسيدة قلب الرجل الذي تزوجته لاتنازعها في قلبه أخرى

لا تتظر أبداً نفسها باستحقار ولا دونية فهي ترى نفسها كفضلاً
ومستحقة له تدرك أنها ملكة متوجة في قلب من يستحقها وليس في
قلب أبيها فقط.

طوال الوقت الذي تحدث فيه سالم كان فريد وضياء يتبادلان
النظرات لبعضهما يود أن ينقض فريد عليه ليكتم صوته أو يضربه.
تميز فريد غيظاً بينما ضياء أصابه الذهول إذ لم يتوقع أبداً رد
فعل سالم ولا رفضه طلبه فما هو قد خاب ظنه وفشل مسعاه لكن هل
يخرج من بيت سالم هكذا خالي الوفاض وقد باء طلبه بالرفض ؟
كانت نظرات عالية لأبيها كلها ود وإعجاب بموقفه فهو أبداً لم
يخيب ظنها فيه.

لم يبعها بثروة ضياء ولم يفرط في حقها ، كان كلامها يبرد
نيرانها وسكن قلبها تشعر به سندا ولم يتوانى في الحفاظ على ذلك
الشعور حتى وهو مريض وفي أشد حالات الوهن والعجز والعوز يراها
ملكة لا يمكن التفريط فيها.

كلماته أعادت الروح فيها.

بادر ضياء ليرد على سالم محاولاً تهدئة الموقف : من قال أننا
سنقلل من شأن عالية أنا أحبها واخترتها للزواج ثم أن الزواج لن يكون
سراً بالكيفية التي فهمتها أو ربما أخطأ أبى في تعبيره عنها فقط

نقصد لن يكون هناك حفل كبير ولا مدعوون كثيرون وسيعرف أهل الحى لديكم وسوف نسطحب أمي وأختي لزيارتكم.

ثار فريد وهو ينظر لولده لايعجبه حديثه يحاول كتمان حنقه عليه وغيظه إلا أنه تزرع بالصبر هنيهة حتى يفرغ ضياء من حديثه حتى استطرد ضياء قائلا وكل ما تطلبونه سوف أنفذه ولكن فقط سنكتم الأمر عن زوجتي وأهلها أليس كذلك يا أبى أكمل كلامه وهو يلتفت لأبيه طالبا دعمه وتأييده لحديثه

على رغم منه وفى محاولة للتظاهر بالاستحسان أجاب فريد : بلى هو كذلك طبعاً.

خرجت عالية عن صمتها لترد عوضاً عن أبيها : اسمح لي يا أبى معذرة ضياء بك أنت فعلاً مطمح لك النساء والفتيات لكن معذرة فلست أنا التي تتزوج برجل متزوج من أخرى والتي تقبل أن يتزوجها بتكتم عن عالمه وحياته ، بدت علامات التعب والإجهاد على سالم فهرعت عالية لتساعده في النهوض إلى فراشه في الوقت ذاته الذي وقف فريد ومعه ولده وهو يقول لسالم غدا ستندم يا سالم أنت وابنتك في طريقه لبيته لم يتحدث بكلمة مع أبيه ، كل تفكيره في شعور الرفض الذي سيطر عليه لم تفشل محاولاته من قبل ولم يخسر صفقة ولم ترفضه أي امرأة في الكون.

من أين أتوا بتلك العزة الفارغة والكبرياء الواهية والجرأة الغريبة؟

من أين أتى الفقراء بمقدرة على رفض مثله أو النطق بكلمة لا ؟
كيف لمن كانوا لا يحلمون بمثله إن يرفضوا فرصة عمرهم ؟
هل هذا هو حال الفقراء أغبياء أم تلك التي يسمونها عزة نفس ؟
كان يشعر أن كبرياءه قد تحطم وأنه أهين وأن تلك الفقيرة قد
قتلت كبرياءه على أعتاب بيتها المتواضع.

من أين يمكنه أن يسبر غور حقيقة هذا الإباء الغريب.
لم يكن حاله مع زوجته بالجديد عليها وهى التي اعتادت هجره
لها وصمته وإعراضه وقد ألفت ذلك التجاهل، غير أنه هذه الليلة قد
زاد صده ونفوره فصارت عصبية الشديدة وثورته العارمة تشى بأن
هناك بركان على حافة الانفجار، ربما استطاعت هند بحاسة المرأة
التي تستطيع أن تشتم رائحة أنثى غيرها تشغل قلب زوجها لتمييز أن
غضبه اليوم لفتاة رفضته أو أعرضت عنه لكن من تكون تلك التي
قالت لذلك الرجل لا.

كعادتها لم تتطرق لتعاقبه أو تستطلع أحواله فهكذا المشاعر
عندما تموت تحت غفلة وقسوة من تشاركه روحك تشبه النبتة التي
استمرت في الذبول فوق غصن يرفضها فلا هي سقطت لتكتب شهادة
وفاتها ولا الغصن يشعر بوجودها فيمدها برمق الحياة.
ضمت بذراعيها صدرها تحتضن بقايا الروح المترعة بالأوجاع
لتنظاها بالنوم.

مضت أيام لم تخرج فيها عالية من البيت تضطرم في قلبها مشاعر مختلطة فمرة تشعر بفخر بالأب الحانى العطوف الذي لم يبع ابنته تحت وطأة الحياة الصعبة وتارة تشعر بالأسى إذ كيف لذلك الرجل أن يدهس كرامتها كيف يراها وبماذا يظنها أيكون متصورا أنها ترمى بنفسها أمامه وترضى بعار الدهر وهوان السنوات لعزه وغناه أمام فقرها وبساطة عيشها ؟ كيف يفكر هؤلاء الأثرياء كيف يروننا ؟ أتراهم يظنون أننا قد يدفعنا الفقر للرضوخ والاستسلام للعبودية ؟ نعم هى عبودية كونك لاتملك الرفض عبودية ، وكونك لاترقى في نظرهم إلى مساواتهم بك عبودية ربما كانت بصيرتهم قد عميت فأصبحوا يرون أنفسهم فوق البشر.

لم تكف عن التفكير حتى أن عقلها شرد في الحال الذي سيصلون إليه كعاقبة لموقفهم فمؤكد أن ضياء وأباه ثم ينهون عملي لديهم ولكن ما الحل وكيف سأبحث عن عمل آخر.

قطع شرودها دقات على الباب فنهضت لتفتح فإذا بعمها شفيق صديق أبيها وزميله بالمصنع.

لمحت من صوته ونظراته ما لم يستطع أن يتحدث به مباشرة فرأت التردد في وجهه فرنت إليه تتحدث بصوت خافت

ما الأمر يا عمى ؟ أخبرنى ، أنا مدركة لما تخشى أن تخبرني به
يا ابنتي أنا أنا.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من حلقه.

جئتَ تخبرني بأنهم أنهوا عملي لديهم أليس كذلك يا عمى ؟
رفع الرجل رأسه التي كان قد طأطأها يحملق في الأرض من
الحر.

لا بأس يا عمى فالله كريم، وفريد هذا قد خلق الله غيره الكثير
لن يملك عيشنا إلا خالقنا فعليه توكلت.

وأنا اليوم استيقظت من نومي عازمة على الخروج في رحلة بحث
عن عمل وقد فعلت ذلك بالأمس، ورغم أنى لم أجد إلا أننى لن
استسلم فسوف أعيد البحث.

— ربنا معك يا ابنتي.

مد الرجل يده في جيبه يخرج لها نقوداً يبدو على قلتها أنها هي
كل ما استطاع تدبيره لها.

رفضت، دفعت يده بما فيها من نقود، وأخبرته أن البيت به مال
وأنها ليست بحاجة للنقود غير إن الرجل أصر وأجابها بأنها عادتهم وأن
أباها كان يدفع هو أيضاً لكل من يحتاج أو يمر بضائقة.

في خجل شديد وتردد قبلت النقود.

لم تترك عالية مكاناً يمكنها العمل به إلا طرقت بابه لكن دون
جدوى فقد كان الرفض هو الرد المُعد مسبقاً لطلبها وذلك لأن فريد
وولده أصرُوا على إذلالها فلم يتركها صاحب عمل إلا أخبروه أن

مصالحتهم معه في جانب وموافقتهم على عمل الفتاة لديهم في جانب آخر.

لم يقو أي منهم أن يبدي مصلحة تلك المسكينة على مصالحته مع فريد وولده.

كانت عالية تخرج من طلوع الشمس لاتعود الاباليل وقد تمزق حذاؤها وتورمت قدمها في رحلة البحث عن عمل حتى أنها فكرت بالخدمة في البيوت.

طرقت باب جارتها تخبرها أنها مستعدة للعمل كخادمة في أي بيت وجدت السيدة أن عالية قد رفعت عنها الخجل إذ كانت تود أن تعرض عليها عملاً ببيت تعرف حارس الأمن به.

كان رد السيدة بأن هناك أسرة ثرية تبحث عن خادمة.

لم تتردد عالية في القبول وذهبت مع جارتها لمقابلة صاحبة البيت مضت الأيام وعالية تنتقل من غسيل إلى تنظيف وتلميع ومن أوامر لأخرى.

تفانت في عملها فأبدت لهم نظافتها وأمانتها وحرصها الشديد وسرعة تنفيذها لكل المهام.

غير أن سيدة البيت كانت نظراتها لعالية كلها حقد وكره كانت امرأة غيور بل شديدة الغيرة على زوجها وخشيت عليه من الخادمة الجميلة.

نادتها يوماً لتأتيها بالقهوة أسرع عالية في إعدادها لتقدمها
ومعها كوب الماء البارد على الصينية فما أن وضعت القهوة المضبوطة
للسيدة حتى صرخت المرأة بوجهها.

أيتها الغبية الحمقاء ما هذا ؟

الشرر يتصاعد من عيني المرأة فغلب احمرار أوداجها حمرة
شعرها الذي بالغت في صباغته إلى جانب المساحيق التي رتبها في
طبقات على وجهها صوتها الأجش ونظراتها الحادة تشى بأنها مقدمة
على إنزال عقاب على المسكينة التي أثارت بجمالها غير شاهيناز
في صوت هادئ متوجس ردت عالية ماذا بها القهوة ياسيدتى ؟
صنعتها مضبوطة كما تحبين.

قبل أن تكمل شاهيناز إجابة عالية على سؤالها مدت يديها إلى القهوة
لتسكبها وتقذف بها في وجه عالية وهي تتمتم: تذوقى أيتها الغبية.

صرخت عالية من شدة وجع القهوة الساخنة التي انسكبت على
وجهها تحرقه وهي تبكى وتحاول مسح وجهها وثيابها التي أفسدت
القهوة لونها ، انطلقت نحو المطبخ تبكى وقد انفطر قلبها من البكاء.
في تلك الأثناء كان يدلف لبيته محسن ، رجل أنيق الهدام تبدو
عليه علامات الوسامة والمظهر المرتب تفوح منه رائحة عطره الفاخر
تسبق قدومه وتتبعث من وجهه ملامح الطيبة والود على عكس زوجته
شاهيناز وقد سمع عند الباب بكاء عالية وصريخ شاهيناو بوجهها

فأدرك أنها زوجته عادت لتمارس هوايتها المحببة لقلبها من إذلال الخادومات فهي امرأة لا توجد خادمة وقد أكملت شهرا لديها ومما زاد الطين بلة أن عالية فتاة جميلة تشير غيرة شاهيناز.

أسرع الرجل منطلقاً نحو المطبخ ليطيب خاطر المسكينة فوجدها تستأنف أعمال المطبخ وقد ملأ القهر عينيها فشعور الإنسان بأنه غير قادر على ترك عمل في مكان يلقي به جرعات من الذل نظراً لكونها لا تجد حيلة أخرى وقد تأكدت من أن فريد وولده قد تسلطوا على كل أصحاب الأعمال ليمنعوها من العمل حتى تشعر بالذل والندم والحسرة.

هكذا البشر فالبعض يظلم ويظلم دون أن يشبع من الظلم ولا يكف عن ملاحقة ضحيته حتى أنه يجتهد في منع أي إنسان يملك شيئاً من الرحمة في قلبه من أن يحنو على ضحيته أو يمسح دموعها حاول محسن أن يهدئ من وجع عالية التي بادرت به بالاجابة وهى تحاول التظاهر بأن لا بأس بها لا عليك ياسيدى فأنا بخير وانصرفت مبتعدة عنه تكمل مهامها في بيت تلك المتعجرفة الغيور.

لا شيء بهذا البيت يملك طيبة قلب إلا محسن فقد رأى فيها ابنة له، أخبرها يوماً أنها تذكره بأخته التي توفيت صغيرة.

لم تكن عالية تفتأ تنهى عملاً حتى تستحدث شاهيناز لها عملاً آخر أوامرها لا تنتهي ولا تستكف أن تسوم عالية ألوانا من الالهانات والسباب.

في كل مرة عالية تستقبل وابل اللعنات من مخدومتها ولا تملك إلا أن تلوذ بالصمت وتزرع بالصبر وهي على يقين أن الله سيحدث بعد ذلك أمراً وأن الله سيجعل لها فرجاً ومخرجاً.

في كل مرة يتحدث إليها محسن كان يدرك أن الفتاة مثقفة ومتعلمة فأدرك أن ضيق ذات اليد هو ما يمنعها عن إتمام تعليمها ودراساتها.

ذات يوم هرع محسن إليها ومعه مجموعة من الكتب الدراسية لتستذكر في وقت فراغها.

تفرست عالية مجموعة الكتب المتراسة وقد انحشر الصوت بحلقها إذ شعرت وكأن هدية السماء قد سقطت عليها.

التقطت الكتب تتصفح واحداً تلو الآخر، تلعثت كلمات الشكر والامتنان، ثم احتفظت بحقيبة الكتب جانباً خفياً من خزائن المطبخ وراحت تستأنف عملها.

فقد كانت أواني الطهي والأطباق تتزاحم أمامها وكأنها تتاديهما سعت في أن تجد بعض الدقائق بين الفينة والأخرى لتحصل بعضاً من دراستها.

ثم ما إن تنتهي من أعمال يومها حتى تتطلق عائدة لبيتها تهرع إلى أبيها لتطمئن عليه وتناول دواءه وطعامه.

كلما نظر سالم ودقق في ابنته وجد علامات التعب والارهاق قد طغت على ملامحها حتى أنها ما إن تدلف إلى حجرتها بعد عناء يومها حتى تخلد إلى نوم عميق وقد سقطت على فراشها وكأنها مغشى عليها تستسلم للنعاس وقد عانت مشقة اليوم ومتاعبه.

* * *

كانت عالية في ذلك اليوم قد فرغت من أعمال المنزل لدى شاهيناز وهي تسرع في العمل حتى تتمكن من الحصول على فسحة من الوقت تستذكر فيها دروسها.

افتрشت الأرض في المطبخ إلى جوار الموقد وخزائن الأطعمة وإلى جوارها على الأرض فرشت كتبها وأقلامها ، حين دخلت شاهيناز وقد افتقدتها بالمنزل فهرعت للمطبخ بحثاً عنها فإذا بعالية تستذكر وتستظهر ما تحاول حفظه ، استثار الأمر حفيظة شاهيناز وأثار غضبها وحنقها فانكبت على المسكينة تصرخ بوجهها بحجة أن وقتها في المنزل مخصص لأهل المنزل ولا يحق لها أن تفعل أى شيء آخر انهالت عليها بالسباب واللعنات ثم أمسكت بالكتب تمزقها وكأنها تنتقم من الأوراق.

لم تتمالك المسكينة نفسها فصرخت في وجهها وهي تسكب العبرات ، ترنو إلى كتبها الممزقة وأحلامها الموقدة.

أيتها الظالمة المتجبرة لن أسامحك ماذا تظنين نفسك ؟ أتظنين أنك
بمالك امتلكت البشر ؟ لسنا عبيداً يا شاهيناز هانم.
الله الغنى عنك وعن العمل عندك ، لم يعد لي طاقة بك ولا بالعمل
عندك.

حاولت عالية التقاط أوراقها لعلها تتقذ شيئاً قد سلم من يديها دون
أن تمزقه.

تجفف عبراتها بظهر يديها ، سحائب العبرات صنعت على مقلتيها
غشاوة فهي تتخبط في المكان لاترى ماتحت قدميها.

استجمعت أغراضها وملابسها وانطقت صوب الباب تفتحه بسرعة
لتعود لبيتها لم تكن عالية تبصر بوضوح طريقها ولا الأرض تحت
قدميها المتعبتين فتعثرت خطواتها كطفل حديث عهد بالمشى على
أرض غير ممهدة.

ما أن وصلت لبيتها حتى بدأت في محاولاتها المستمرة في إخفاء
مابها عن أبيها عندما انطلقت نحوه تسند يديه وتساعده على النهوض
ليتناول غذاءه ودواءه حتى انهالت أسئلة سالم على ابنته.
يرنو إليها يحملق فيها يدرك أن ثمة ما تخفيه عنه.

مابك يا عالية ؟ أراك أتيت مبكرة قبل موعدك ثم ما بال عينيك
ياابنتي لقد صارتا كالجمر الأحمر وقد تقرح جفناك.

أشاحت بوجهها بعيدا وقد بذلت كل وسعها لإخفاء العبرات.
يا أبى ليس بي شيء، أنا فقط قلقة بشأن صحتك لا أكثر ثم أنك
تزعجنى بعدم تناولك للطعام ألا ترى أنى كلما قدمت للبيت وجدت
أطباقك التي تركتها إلى جوارك كما هي إلا بضع لقيمات ؟ ألا تعلم
أن الغذاء الجيد مهم لتتعافى.

تحاولين دوما يا عالية إخفاء الحقيقة وإخفاء أوجاعك عني.
لا تراوغ يا أبى وتناول كل طعامك وإلا سأجلس دون أن أتناول ولا
لقمة هيا هيا فالطعام قد أصبح بارداً.

زفر أنفاسه وهو يبتسم في سخرية ما يدرك أن ابنته تخفى عنه
همومها ثم راح يلتقم بعض لقيمات، أما عالية فقد أجادت التظاهر بأن
لا شيء يزعجها فتارة تعلق على الطعام وتارة تحكى له عن أحداث
الشارع والجيران وحديث من هنا وآخر من هناك حتى تمكنت من أن
تجعل سالم ينبرى بالكلام دون أن يفكر في أي مشكلة ت تقلقه

جهزت فراشه واصطحبته لتسحب على جسده الغطاء، ماهى إلا
دقائق قليلة وكان جرس الباب لا ينقطع عن الرن وطرق متلاحق على
الباب اندفعت عالية نحو البوب والهلح قد سيطر عليها وعلى أبيها
فممكن يكون صاحب كل الطرق الذي سيكسر الباب.

أتى الصوت من الخارج افتحي، شرطة.
شرطة ؟ تساءلت وهى تسرع في وضع وشاح تلفه عليها دون ترتيب.

نهض سالم من فراشه يتحسس طريقه للباب ويداه ترتجفان
فتحت لتجد رجال الشرطة يأمرونها بالمجئ معهم فوراً ، سألت
مالأمر ؟

كان جوابهم لا أعلم ستعرفين هناك.

راح الجيران يتساءلون وكلهم يضرب كفاً بكف فماذا يكون
قد حدث ؟ لا بد أن هناك خطأ ولكن من سيأتي بالخبر لينقذ
المسكينة ومن سيسبر غور الحقيقة ليعرف تهمتها أو يعلم كيف
يساعدها ؟

دخل أحدهم للتفتيش فأخرج من حقيبة ملابسها أسورة ماسية
ثمينة فتحرز عليها وسحب عالية وهى تصرخ أقسم أنى لا أعرف شيئاً
عنها لا أعلم من أتى بها أقسم لك.

وضعوا عالية فى سيارة الشرطة وخلفوا وراءها الأب المصدوم لا
يملك ما يهدئ به روع نفسه ولا يملك إلا قول لاحول ولا قوة إلا بالله
حاول بعض الجيران اللحاق بسيارة الشرطة.

أثناء تواجدها بقسم الشرطة اندفعت الأفكار بعقلها تكاد تفجر
رأسها فأى ذنب قد اقترفته هي لا تعلم.

دقائق معدودة أدركت بعدها أن متهمتها بسرقة الأسورة الماسية
هى تلك السيدة مخدومتها ثم أن اجراءات القبض عليها رافقتها الأدلة
وهى تواجد الأسورة فى حقيبة أمتعتها التى رحلت بها من بيت شاهيناز.

تحملق في القلادة والأمتعة وهى لاتصدق، تدرك أن موقفها صار صعباً.

ترتجف وتستجدى الرحمة والعدل ولا أحد يسمعها أو يصدقها
أقسم أنى لا أعلم شيئاً عنها لا أعرف كيف دخلت حقيبتى،
يدفعها العسكرى نحو الردهة، لم يتوقف عن السخرية والاهانة
- جميعكم يأتى إلينا يدعى البراءة، اعلمى أنك لو لم تعترفى
فلن يرحمك أحد.

في تلك الأثناء كان يمر بالطريقة شاب يحمل حقيبة أوراق وبعض
الملفات لفت نظره بكاء الفتاة وحزنها، شعر لوهلة بأنها مظلومة
أوجعه بكاؤها، تقدم نحوها.

كلماتها المقتضبة تشى بأن مصيبة أحلت بها استطاع جمع بعض
ماتتاثر من كلماتها ليربط حقيقة أنها متهمة بسرقة.

هل من محامى معك ؟ أعنى هل طلبت محامياً يترافع عنك ؟
رفعت عينها نحوه تمسح دموعها بظهر يديها وكلماتها تتقطع
تجيبه : لا ليس معي.

مسح جبينه بيده ثم وضعها على ذقنه وهو يفكر ملياً.

ماهى الادقائى حتى تم استدعاؤها للتحقيق.

ولجت للحجرة ومثلت أمام المحقق الذي ارتسمت على وجهه بعض
علامات التجهم والعبوس يسألها ويستجوبها، ملامحه الباردة لا تشى

بأى انطباع نحوها ، بعد ثوان قليلة طرق العسكرى الباب ليدخل الشاب الذي كان بالخارج يقول :حسام عبد العزيز محامى وحاضر مع المتهمه.

لا يعرف اسم المتهمه التي دخل يدافع عنها ، أشفق عليها ، شعر بأنها بريئة أدرك بقلبه احتياجها له.

ما إن رآته حتى تنفست الصعداء ، تنفرس الشاب الذى جاء ينقذها ، شعرت كمن كان غريقا وتقطعت به السبل فمد أحدهم إليه يده لينقذه.

يدلف ليجلس قبالتها وقد بدى أطول من بالحجرة ، بشرته الخمرية وشعره الأجدع شديد السواد منحسر قليلاً عن جانبي رأسه ، لهجته تشى أنه من أصل ريفى.

زفرت أنفاسها وهى تنظر إليه تود أن تسأله هل أنا سأخرج من هنا؟ هل ستمكن من اثبات براءتى ؟

طلب أن يتحدث إلى موكلته ، شرع يسألها يأخذ بعض المعلومات منها.

– أقسم لك ياسيدى أنا لم أسرق كيف أسرق وأنا ابنة سالم الذى أحسن تربيتى أنا أجوع وأموت ولا أسرق ولا أمد يدي أقسم ياسيدى.

– أعلم أعلم فلو كان لدى شك فيك لما قررت أن أترافع عنك.
تجهش بالبكاء فيكتم نشيجها كل صوت فبعض كلامها يبدو
غير واضح.

حاول غض بصره عن جمالها الذى طغى على حزنها، تحرك قلبه،
خشى أن تفضحه نظراته فعاد يبدى الحزم.

– أريدك أن تخبرينى بكل معلومة وأود أن أفهم علاقة السيدة
مخدومتك بك هل هناك ما أغضبها فقد تكون قد افتعلت كل ذلك
للانتقام منك ؟

انبرت تروى وتتكلم دون انقطاع.
طلب لها حسام شاياً تشربه وناولها كأس ماء فقد بدى عليها
التعب وجف حلقها.

مضت ساعات طويلة وهى بالقسم تم احتجازها.
معذرة يا عالية فليس بالقسم هنا شيئاً أطلبه لك إلا الشاى والقهوة.
كان حسام ينتظر أمام مكتب الضابط يحاول أن يجمع أي
معلومات عنها وعن أهلها حتى يساعدها.

غاب نصف ساعة وأتى بكيس تفوح منه رائحة شطائر الجبن.
قدم لها طعاما بعد ساعات من الإجهاد خلال الاحتجاز، بالقسم
تناولت لقيمات بعد الحاج.

– لدى قناعة أن السيدة شاهيناز هي من دبرت لك كل ذلك وأنها هي من أودعتك هنا لكن من حديثك كله استطعت أن أخلص إلى حقيقة أن زوجها لن يرضى بهذا الظلم صمت هنيئة ثم استأذن لمغادرة المكان.

اتجه لتوه لشركة السيد محسن انتظره حتى يفرغ من عمله ثم سمحت لها السكرتيرة بالدخول.

ما لبث حسام أن فرغ من حديثه حتى وجد علامات الضيق قد ملأت وجه محسن تقطب حاجباه، زم شفتيه، أعرب عن شديد أسفه وغيظه من أفعال زوجته إذ أنه لم يخطر بباله للحظة واحدة أن يصل الشر بداخلها إلى هذا الحد، هي سيدة ظالمة ومتسلطة لكن لم أكن أتخيل أن تضع فتاة مسكينة بالسجن وتشوه سمعتها.

استطرد محسن وهو يضرب على المكتب بكفيه : أخبرنى يا سيد حسام ما الذي يمكنني فعله لإنقاذ المسكينة مما هي فيه ؟ وأقسم لك لن أتردد مهما كلفنى الأمر.

طال حديثهما ثم انتهى على خروج محسن في صحبة حسام وتوجها إلى قسم الشرطة ليخبر الضابط أن قطعة المجوهرات التي وجدت بأمتعة عالية واتهمت بسرقتها هو من أهداها لها وهى تشبه قطعة لدى زوجته. لقد دلل على ذلك بقسيمة الشراء التي كان قد جاء بها معه من درج مكتبه فهو من اشترى الاسورة لزوجته.

خرجت عالية لبيتها واصطحبها حسام بعد أن قدم محسن لها
إعتذاره ما إن دلفت بيتها حتى استقبلها أبوها بحنو عظيم جذبها إليه
ودموعها تختلط بدموعه، أخبرها إن هذا الشاب الطيب أتاه بالأمس
ومعه الدواء والطعام وأنه ساعده في احتياجاته.

— يا بنى أنا عاجز عن شكرك فما قدمته لي ولابنتي عظيم
— لا شكر على واجب أنا لم أفعل سوى الواجب، وعلى كل حال
سأتركك لتستريح وأترك عالية.

فى طريقه للباب لم يستطع أن يشيح بناظره عن عالية، يخفق
قلبه، ابتسم ابتسامة هادئة، جفلت عيناه وأوماً يحييها.

بعد مغادرة حسام التفتت عالية لتجد إلى جوار الأريكة مظروفا
ورقياً يحوى مبلغاً من المال فلما فتحته وجدت ورقة مكتوب عليه
هذا مبلغ قليل جداً لا يكفى أسبوع خجلت أن أقدمه لك فترفضى
والمبلغ بسيط لا يستحق النقاش حوله.

أمسكت بالظرف وهى تنظر إليه تحاول تدبر أمرها فهاهى الآن
صارت بلا عمل ولا مصدر دخل وكذلك أبوها المريض.

صار من المستحيل التحاقها بأي عمل فكل أماكن العمل
والوظائف أصبحت أبوابها موصدة بوجهها.

ما الحل فى أزمتها ؟ يكاد رأسها أن ينفجر.

مرت ثلاثة أيام عاشت خلالها عالية تمسح جراح قلبها بيديها
وتداوى ألمها وألم أبيها، لا تكف عن الرد على أسئلة الجيران
والأصدقاء حول اليوم الذي حبست خلاله وحول سبب اقتيادها لقسم
الشرطة.

تجيب على الأسئلة المكررة كما لو كانت تستظهر نصا تحفظه،
الأسئلة وعلامات التعجب وكلها تنتهي بدعوة على المرأة الظالمة
شاهيناز

دون أن يضيف الناس جديدا في حديثهم أو حوارهم
فكرت في بقعة الضوء في الأمر، ذلك الشاب الذي قدم لها
المساعدة دون مقابل وصدقها وآمن ببراءتها دون سابق معرفة بها.
كل ذلك يدل على أن الدنيا مازال بها خير فمازال هناك طيبين.

* * *

بارقة أمل

.....

قبل أن ينقضى الأسبوع كان حسام قد زار والدها يتقدم لخطبة
عالية، أخبر أباهما أنه لمس بها شيئا دفعه لخطبتها ويتمنى أن يكمل
معها رحلة حياته.

علم من أبيها كل ظروفهم وأحوالهم لا يهتم مايعانونه من فقر،
ففقر الإنسان في خلقه وفي عقله وروحه.

غناك في كونك قادر على أن لا تستسلم للحياة فأنت أعلى من
صغائر البشر ودونيتهم

أخبره حسام أنه لما قرر خطبة عالية سأل عنها فعلم من أهل الحي
سيرتها وأنها وقفت مع أبيها وقفة رجل وأنها فتاة تركت عروض المال
والثراء، لم تأبه بكل ثروة ضياء وأبيه ورفضت زيجة على حساب
كرامتها.

شعر سالم بارتياح شديد في حديثه للشاب يعلم بأن ابنته سوف
توافق.

انتهى حديثهما برد سالم على الشاب وهو يودعه عند الباب ربنا
يقدم الخير فسوف أتحدث إلى عالية وأخبرك

بابتسامة هادئة صافحه حسام وهو ينطلق من بيت سالم خارجاً منه.
لا شك أن عالية قد استمعت لحوارهما فما لبثت أن عادت تتحدث
إلى أبيها تنتظر أن يخبرها بما دار بينه وبين الشاب وهي تعلم به
مسبقاً، يبتسم سالم الذي استنتج رضا ابنته وقبولها للشاب.

في هدأة الليل وسكونه وعمته حين آوى الناس إلى مضاجعهم
يسكنون إلى الصمت بعد عناء اليوم وثقل الحياة آوت عالية كباقي
الناس إلى فراشها ترنو إلى غد أكثر حنواً ويوم أكثر إشراقاً.

حين استيقظت عالية لصلاة الفجر كان صوت سالم وأنيبه يشى
بوجع شديد ألم به.

هرعت عالية نحوه.

كان يبدو عليه أن قدرته على التحمل هذه المرة قد تلاشت فقد
بدى أن الألم أشد من احتماله ثم تلك العلامات على وجهه وجلده ولون
عينيه وتورم جسده كل ذلك كانت علامات تشى بأن حالته هذه المرة
أسوء من سابقتها.

هرعت إلى باب الجيران تطرقه يساعدها في حمله إلى المستشفى
حمله الجيران للمستشفى ثم ما إن فحصه الطبيب حتى تغير
وجهه، اقتربت منه عالية فهو يعرفها فلطالما اصطحبت والدها له.

في تلك المرة كان وجه الطبيب يحمل كثيرا من علامات الأسى إذ
يخفى شيئا لا يستطيع الإفصاح عنه ثمة أمر أراد أن يخبرها به.

— أرجوك أخبرنى عن حقيقة حالة أبى لاتخفى عنى شيئا فأنا
أدرك أن الأمر هذه المرة خطير

أجابها فى حيرة، حاول استجماع شجاعته ليخبرها بالحقيقة
— يا ابنتي هذه المرة الأمر خطير إذ لابد من جراحة عاجلة، تعلمين
أنها باهظة الثمن ولن تكون بأي مستشفى حكومى ويجب أن تدبرى
نفقاتها في ساعات وليس أيام.

راح يطأطأى رأسه وهو يخبرها أن الأمر لا بد أن يكون على وجه السرعة.

تلك الساعات التي مرت تحاول فيها أن تستجمع أفكارها لتتدبر أمرها من أين لها بالمال اللازم ؟ لم تستمع الى كل الصخب حولها في المستشفى، عقلها تحول لعالم آخر لا يستوعب ما يدور بالكون.

عالم صار أشد ضآلة من الذرة أمام ما تشعر به في تلك اللحظة. حالة من العجز التام أمام أب مهددة بفقده، جنيتها قليلة كل ما تمتلكه، بالكاد يكفي لطعام وشراب لأيام، مصدر دخل فقده، لا عائل لها.

حاولت البحث في كل الملفات بعقلها.

يذهب بصرها لكل مكان حولها ثم يعود البصر خاسئاً وهو حسير.

لا طائل من محاولات التفكير البائسة إذ لا يوجد فيمن حولها الشخص الغنى الذي يتكفل بالجراحة.

تلك الفكرة التي عرضها أحد أصدقاء أبيها وانتبهت لكلماته إذ أنه فكر في جمع مبلغ من كل المحيطين من أهل وأصدقاء، إلا أن الرجل نفسه عرض الفكرة وعرض الرد عليها فلو تم جمع الأموال وكل من حولها فقراء فلن يكفي المبلغ إلا ما يعادل خمس تكلفة الجراحة.

زردت ريقها وهى تستششق بعض الهواء الذي كادت تشعر أن المكان قد خلا تماما منه.

الوقت يمر، أجهزة العناية المركزة بالغرفة التي جلست أمامها تطلق صافراتها تشى بأن ثمة خطر يقبل عليه أبوها، الوقت يضيق خناقه عليها، أصبح الزمن عدوا لها ترنو إلى الباب لا ترفع نظراتها عنه.

تتربص كل من يخرج ويلج، تحملق خلال دائرة من الزجاج إلى ذلك الجسد الهزيل الملقى على فراش المرض مهددا بالموت.

يخرج الطبيب فينظر إليها، يخبرها بأن الحالة تسوء وأنهم في صراع مع الزمن، يجب دخوله العمليات.

في تلك اللحظة كان حسام قد خرج من حجرة الطبيب.
علم منه أن تكلفة الجراحة باهظة.

صمت هنيهة يحاول البحث في أي حل للأزمة إلا أنه لا يجد.
جلست مكانها وقد أومأت برأسها تسندها على كفيها مغمضة جفניה تدعو ربها وتتضرع إليه إذ لا ملجأ لها إلا هو.

ماهى إلا لحظات حتى أخرجها من شردوها صوت ذلك الرجل الذي يدخل ويسأل الطبيب عن تكلفة الجراحة وموعدها وعن إمكانية نقله لمكان أفضل ثم أخرج من جيبه مبلغا تحت حساب الجراحة.

تتهددت، تزفر أنفاسها، تشعر بشيء من حمولتها قد سقط عن
كاهلها ترى وكأن بقعة ضوء قد سطعت من بعيد.

نبضات قلبها تغير عددها لا تدرك أي أصبحت أفضل أم أن ذلك
سببه سطوع شيء من الأمل.

دنى منها ضياء يهمس إليها بأنه قد جاءها منقذاً.

تدرك أنه سبب في كثير من مشكلاتها وكثير من المصائب التي
حلت بها غير أنها الآن مستعدة أن تتسوى أي شيء مقابل إنقاذ أبيها.
ما إن تحدث إليها حتى أدركت عالية أن مساعدته لها ينتظر لها
مقابل.

في صوت هادئ شديد الحنو تحدث إليها.

— أود مساعدتك وسوف أتكفل بكل علاج والدك، سوف
أعوضكم عن كل ما حدث من ضيق العيش بسبب ترك العمل.
كل ما أتمناه يا عالية هو الزواج منك.

قبل أن تنطق بكلمة استطرد يقول : اسمعيني يا عالية فزواجنا لن
يكون سرا بل سيكون في النور زواجا شرعيا كأي زواج.
أعدك لن تقل مكانتك ولا قدرك وستكملين دراستك كما
تودين.

ما إن توقف عن حديثه حتى بادرت به تسأل:
سيدي أنت متزوج وأنا.....

قاطعها ضياء وهو يتحدث بهمة في محاولة اقناعها.

عالية أنت تعلمين فأنا لست على وفاق مع زوجتي وكذلك أهلي يعلمون، غير أنه ليس من الإنصاف أن أطلقها وكذلك فقد تزوجنا من سنوات ولم ننجب فكل الناس سوف تجد لي كل المبررات والحق في زيجة أخرى.

سواء أقنعها منطقته أم لا فليس مهما إذ أنها في تلك اللحظة كان كل همها أن تتقذ أباهها وليس في الواقع أمامها بديل آخر. في ركن على بعد أمتار يقف حسام يرنو إليها، لطالما سمع من الناس عن قصة ضياء وما فعله وأبوه لإذلال المسكينة، وقف عاجزا عن أن يغير أي حال عن ماهو عليه.

أصبح في حيرة من أمره فهو يدرك أن الفتاة أمام خيار بين أمرين كلاهما مر إذ انه لو باع كل مايملك واقترض من كل من يعرفه فلن يملك ثمن الجراحة.

هو على يقين أن سالم هو أغلى وأعز مخلوق لدى ابنته.

في أثناء خروجه من الممر بالمستشفى لمح ضياء ذلك الشاب الطويل الأنيق الثياب وقد ارتسمت على ملامحه وسامة شرقية عربية، يقف على جانب الممر الطويل.

لم يخف عليه أمر ذلك العريس المتقدم لعالية فهو يتابعها ويعلم بكل أخبارها.

رنت بناظريها لتلتقى عيناها بعيني حسام تنظر والعبرات تتدفق
تحرق وجنتيها.

اقترب منها ، لم يجد مايواسيها به.

يدور بعقلها ألف سؤال ، حيرة بين ذلك الذي ارتاح له قلبها وبين
أبيها الذي تشعر بالعجز أمام إنقاذه.

تعاود النظر خلال النافذة الزجاجية إلى أبيها تراقبه دون أن تتطرق
بكلمة.

حتى كلمات حسام يعدها بأنه لن يألُ جهداً لتدبير التكلفة
اللازمة ابتسمت لحديثه ابتسامة هادئة كما لو كانت تدرك أن
كلامه وعد من لا يملك حيلة ولا قوة.

قبل أن يصل ضياء إلى شركته كان أحد رجال والده قد أرسل
بتهديدات إلى حسام.

أخبره بأن ملفات هامة لأحد كبار العملاء قد تم سرقتها من
مكتبه وأنه لو أكمل طريقه في محاولة الزواج من عالية فسوف يفقد
عمله ويفقد معها سمعته.

ساوموه على الأوراق ، إما حصوله على الملف أو الإبلاغ عنه.
الأمر محير خاصة وأن التهديدات لم تشمل فقط القضاء على
مستقبله المهني بل شملت أيضاً تهديداً بالقتل.

عندما عاد لبيته لم يجد سلوى أخته الصغرى لا يملك أغلى منها ،
هى امانة أبيه وأمها وهو كل عالمها.

اعتاد أن يجدها بعد خروجها من جامعتها ، لم تعد التأخير
وقف يضرب كفا بكف.

أين ذهبت ؟

شرد لدقائق، صوت هاتف البيت يصدر رنات جعلته يهرع نحو
السماعة يرد مسرعا فيجد على الجانب الآخر من الخط:

- أهلا أستاذ حسام أختك بالحفظ والصون مع الملفات ونعندك
بمجرد اتمام زواج ضياء بك بعالية كل أمانتك ستكون لديك معززة
مكرمة، فقط ماعليك إلا أن تجلس ببيتك هذه الأيام ولتستريح في
اجازة قصيرة.

صوته عال بالسباب واللعنات، تخرج وجهه بالحمرة وانتفخت
أوداجه ترى الشرر يتطاير من عينيه.

استمع أيها الوغد أقسم إذا أصاب أختي مكروه فلن أترككم
هل سمعت ؟

قبل أن ينهى كلماته الغاضبة كان محدثه قد أغلق الخط.
مكث مستشيطاً يشعر أن الدنيا قد أظلمت حوله.

ازداد عجزه، كل السبل تقطعت أمامه فلا مجال للحديث مجددا
عن الزواج بمن أحبها قلبه إذ أن ظروفه قد حالت دون ذلك الحلم
وكذلك ظروفه.

مرت الليلة على عالية في وجوم، تنظر إلى كل ماحولها فقد ارتسم طريقها دون ارادتها.

ليس هناك خيار أمامها.

انتظرت أن يحدثها حسام فلم يفعل.

أمسكت الهاتف طلبت الرقم الذي تركه لها ضياء

— سيدي أنا موافقة على عرضك.

— حسنا يا عالية وأعدك فالجراحة ستتم اليوم كما أخبرني

الطبيب فهو يجهز حجرة الجراحة لتوه وكذلك سيتم في غضون دقائق

نقل أبيبك لمستشفى أفضل حتى نسرع من اجراءات الجراحة.

— أشكرك

ما إن أنهت حديثها معه حتى استسلمت لنوبة بكاء شديدة، قلبها

كاد ينفطر وهي لا تملك حيلة في أمرها يعلو نشيجه وتزيد زفراتها

تحملق في كل ما حولها لعلها تجد أي سبيل آخر للخلاص لكن يبدو

أنها وضعت أمام سبيل واحد.

جثت على ركبتيها في ركن بعيد من المشفى تستند إلى جدار

تحاول تتماسك.

تتحدث إلى نفسها بصوت لا يسمع.

عالية احمدي ربك أن أرسل أحدا لنجدة أبيبك فلربما لا تجدين من

ينقذك ثانية.

هل لك أمل آخر ؟ لاتكونى غيبية فأمثالنا من الفقراء والضعفاء
تموت أحلامهم وتدهسها سنايك خيول القوة والسلطان والمال والنفوذ.
تضطرم الأحزان في صدرها فتتطلق الزفرات ملتاعة بخوف وألم
وحزن.

ثمة صوت قد علا من بعيد فأصاحت السمع تحاول التقاط خبر
عن أبيها بدى الصوت واضحا شيئاً فشيئاً.
نهضت لتدلف نحو الغرفة.

هيا انقلوه بسرعة فقد تم تجهيز غرفة العمليات في مشفى خاص
وسيقوم بالجراحة واحد من الجراحين المهرة.

كان صوت الطبيب عالياً وهو يعطى أوامره للطاقم الطبي.
أدركت أن ضياء قد أمر بنقل أبيها ودفع كافة المصاريف،
تزرعت بالصبر والأمل فوضعت يدها على قلبها لتطمئن روحها،
ابتسمت بينها وبين نفسها ابتسامة سخرية لتقول كيف غيرت الأموال
حال الناس بين عشية وضحاها بل أسرع إذ ربما بين طرفة العين
وانتباهاتها ؟

قد أزاحت الأفكار عن عقلها طيف ذلك الشهم الذي صادفته ثم
انتابها شعور أنه قد يكون من نصيبها إلا أنه يبدو أن الحلم ليس من
حق الجميع.

تتبع بناظرها أباهما ينقله الممرضون والممرضات نحو المشفى الجديد ثم ترجلت للمشفى الفاخر وقد أسرعوا به لإجراء كافة الفحوص والتحليلات ليدخل لغرفة العمليات.

تسمرت عيناها تراقب حجرة العمليات وقلبها يتصاعد نبضه ، أنفاسها كادت تنقطع ودموعها تنهمر لاتملك إلا الدعاء.

تنتظر أمام الباب في تضرع وخشوع

ما إن سمعت صرير الباب يفتحه أحدهم حتى انطلقت دون وعى تسأل الطبيب فيطمئنها أنه في أحسن حال سيخرج وتطمئن عليه وتراه مضى وقت الجراحة كأطول مايكون الزمن وأقساه على عالية. انتقل سالم لبيته في حال أفضل وجاءه المهنئون على السلامة ، من بينهم ضياء وأبوه أدركت عاليه أن ضياء ما جاء إلا ليذكرهم بالثمن فهاهي الآن مدينة له بحياة أبيها.

ابتسم ضياء وهو يومئ إلى سالم يسأله عن موعد إتمام الزواج. انتابت سالم دهشة مزجت بضيق وقلق وهو ينظر إلى ابنته فردت عليه بابتسامة انكسار مصطنعة تطمئنه ، تخبره بأنها وافقت على الزواج من ضياء سيكون عقدا رسميا لدى المأذون ويكون أقرب الأقرباء حاضرين.

أكمل ضياء حديثه : وأيضاً أبا عالية سيكون لها بيت تعيش فيه في أقصى المدينة ولا تقلق فالجميع سيعلم بالزواج لن أخفيه ولكن

لا أريد أن أجمع النار بالبنزين فأهل زوجتي سيسببون مشاكل
لا طائل منها ستعلم زوجتي أنى تزوجت غير أنها لن تعلم بمكانكم
على الأقل في الفترة الأولى من الزواج حتى أنهى بعض الأعمال لدى.
بدى لسالم أن الأمر محسوم مسبقاً، أدرك أن ابنته قد قررت
التضحية بهذا القدر، فكر وبينه وبين نفسه ردها لله الأمر من قبل
ومن بعد.

* * *

في ذلك اليوم استيقظت هند طوال الليل لم تهجع إلا قليلاً.
وخلال الدقائق التي أغمضت عينيها استيقظت على ضيق صدرها
ازداد اختناقها ولا تعرف سبباً له انطلقت نحو الخادما تصرخ فيهن،
تفرغ فيهن غضبها.

أدركت أن اليوم يحمل لها وجعاً جديداً هي لا تعرف كنهه الآن
انتبهت لخلو البيت من أصحابه فكرت في أنه ربما تجمعوا لتناول
الطعام بأي مكان خارج البيت ولم يدعوها أحد منهم.
لا يوجد فريد ولا زوجته ولا أي من أهله لطالما تطلعت لطفل تتمنى
أن تمضي وقتها وهي تمازحه.

عادت لشرفة الغرفة تحتسى القهوة التي سبقها أربعة فناجين.
كان ضياء وأبوه وأمه وأخته وزوجها قد تجمعوا لزيارة سالم

في بيت من أقصى المدينة انتقلت إليه عالية وأبوها أعده ضياء على عجل للزواج ومن أهل سالم سمح له فقط بجار له وزوجته من البيت القديم.

جلسوا لساعتين ثم خرج الجميع.

أصر سالم أن يعود لبيته القديم فيأتي لعالية بعد عدة أيام ثم إنه يرغب في أن يكون بين البيتين فلا يحب أن ينخلع من جلده بهذا الشكل.

تركه ضياء بحريته وسمح له بالذهاب ثم أخبره أن عليه أن يجهز أمره ليكون إلى جوار ابنته فضياء لن يكون متزاجدا طوال الوقت اتفق سالم معه على أن يأتي لعالية في الوقت الذي تكون به وحدها حين يكون زوجها غير متواجد. انصرف الجميع تاركين العروسين.

طار عقل ضياء بعروسه، يحاول أن يسعدها ويسعد بجوارها أدركت عالية أنه ملاذها الوحيد هو ذلك الرجل وبيته وأن عليها أن تتفانى في إسعاده.

عاشت في الأيام المتتالية زوجة تبذل كل مافي وسعها لإسعاد زوجها. مكث ضياء بالبيت شهراً كاملاً يرفض أن يغادر منزله الدافئ يستمتع بطعامها الشهى وحديثها الأكثر جمالا وجوارها الأكثر ألفة حياته تغيرت فقد كان ينقصها عالية.

ففي جوار الأحبة حياة وفى الألفة والمودة كل المتعة والهناء والدفع
كان سالم يروح ويأتي إلى بيت عالية بين الفينة والأخرى.
أجمل يوم مضى عليه وعلى عالية وضياء هو ذلك اليوم الذي علموا
أن طفلاً سيأتي للدنيا ، طفل أمه عالية.
سيحبو ويلعبه جده ويطير به ضياء.
سترتسم ملامح جديدة للحياة سيتغير الكون في عيونهم جميعاً

* * *

لم تستسلم هند لشعور الهدوء المسيطر على بيت عائلة فريد فقد
صارَت على يقين بأن سراً يخفونه.
باتت تفكر في كيفية معرفة الأمر كله
كلما دخلت على أي شخص بالبيت وجدته يتحدث همساً لشخص
آخر حتى أن نور أخته صار الحديث بينها وبين والدتها وأخيها هامساً
طوال الوقت.

منذ طلبت من جواسيسها أن يأتوها بالخبر اليقين وهم يجتهدون
في معرفة الأمر لم يكن من الصعب على عدوى أن يجمع كل
المعلومات ويأتي بها إليها.

لاتدري ما الذي صدمها إذ أخبرها بأن ضياء تزوج ، لاتعلم لماذا
احترقت واشتعلت النيران تمزق أحشاءها وهى تستفز حواسها لتتصت
إلى حديث عدوى جاسوسها ويدها اليمنى.

أما كانت تتوقع ذلك ؟ أما كانت تدرك في كل ليلة يأتي للبيت أنه مؤكد قد تزوج عليها.

لقد كانت تتدهش وتتعجب كلما أتاها الخبر بأنه لم يتزوج
أم أننا قد نتوقع البلاء فإذا حدث تألنا وكأنه لم يكن في
الحسبان ؟

تلهفت لتعرف كل شيء عن العروس، وصفها، اسمها، مكانها
لم تلبث أن أشعلت النار في البيت بصراخ وشجار وغضب.
تدخل أبوها الذي أراد أن يثار لكرامة ابنته، حاول فريد تهدئة
الأمر أخبرهم أنها زيجة مختلفة، هدفها الحصول على طفل لضياء ثم
سيرمون بالفتاة بعدها فلا حاجة لهم بها وعندهم هند سليلة الحسب
والنسب وموضع الفخر.

لم تفلح المحاولات في تهدئة هند.

تدخلت نور بمساعيها.

أخبرتها بأنه لا يجب أن تترك زوجها لغيرها وأنها هي الزوجة التي
تفتخر بها العائلة.

ثمة أمر وتخطيط يدور في عقل هند جعلها تعود لبيت ضياء رغم
حنقها ورغم المرارة التي تغص بحلقها.

عادت لبيتته والخنجر مغروس في قلبها فترى مالذي يحملها على

ذلك ؟

مالذى جعلها تستيقظ في الصباح ثم تنهض من فراشها في بيت أبيها مسرعة تخبر أباهما بأنها الآن ستعود لبيت زوجها.

عندما أراد أبوها أن يعرف سر ذلك التغيير ولم تلبث أن مضت أيام قلائل منذ عادت فيها لبيت أبيها تصرخ وقد انهارت من أفعال زوجها تريد من أبيها أن يثأر لكرامتها التي ضاعت.

أم تراه يكون محاولات نور لإقناعها ؟ أم أن شيئاً آخر يدور بعقلها فلربما انصاعت لكيد النساء وأفعال ابليس.

أمضت أيامها في بيت ضياء تتظاهر فيها بعدم الاكتراث لما يحدث تتهمك في الاشراف على الخادومات تارة وتارة تخرج لمقابلة صديقاتها تارة أخرى.

ثم بدأت في التقرب لضياء.

اهتمت به أكثر من ذي قبل ، حاولت جذبها لجانبها ليس فقط بالتغير الهائل الذي أحدثته في شكلها وملابسها ولا بالطعام الذي كانت تتفنن مع الطباخين في إعداده.

بل لجأت لإعداد صفقات يجنى من خلفها الأموال الطائلة أضعاف ما كان يجنيه هو وأسرته من قبل.

لعبت على كل الأوتار.

مكثت على تلك الحال لشهور طويلة ، تزرعت بصبر شديد في حربها.

منذ علمت هند بحمل عالية وهى تقرر أن تكون الخطط ذات شكل مختلف.

مكالماتها الهاتفية المبهمة لأشخاص في أوقات مختلفة من اليوم والأوامر التي تعطيها لهم لم تتوقف بل زادت في الشهور الأخيرة لحمل عالية.

* * *

كانت نور رغم عدم رضاها عن أي سلوك لأخيها ولا عن تلك الطريقة التي تزوج بها بفتاة استغل حاجتها للمال إلا أنها كانت تزور عالية بين الحين والآخر رغم أن البيت الذي أسكنها فيه ضياء بعيداً جداً على أطراف المدينة.

كانت تجلس إليها تستمع إلى حديثها العذب وحديث أبيها. تنتظر بلهفة وليد أخيها الذي سيأتي للعالم بعد أسابيع قلائل ربما تود أن يلعب مع وليدها هي أيضاً فهي على مشارف الوضع بعدما أجهضت مرتين قبل ذلك الحمل تحسب مع عالية الأسابيع فهما يسيران في حملهما في نفس المدة.

عالية ونور تتبادلان الضحكات وأحاديث الود والسعادة.

تحسبان مدة الحمل لتتعمان بصغيريهما.

كلما تملك الخوف من قلب وعقل عالية عادت لتفكر بحملها ووليدها المنتظر، ترنو لليوم الذي تحمله فيه وتضمه إلى قلبها لعله يفلح في أن ينسيها أوجاع الحياة.

لم تكن تتابع مع طبيب في الشهور الأخيرة فقد صار زوجها يعنفها كثيرا عندما تحاول الخروج من البيت.
لم تجد داعياً لمتابعة الحمل فقد استشعرت أنه بصحة جيدة.

* * *

الخلافا

.....

في ذلك اليوم عادت نور لبيتها بعد شراء مستلزمات البيت ومستلزمات الصغير المنتظر، تنتظر زوجها لتناول العشاء معه ما إن دخلت لبيتها حتى أتاها من الداخل صوته عالية كان واضح من حديثه في الهاتف أنه على خلاف مع أحد الشركاء.

منذ فترة وهي تعلم أن خلافات شديدة بدأت تضطرم بين زوجها من ناحية وبين أبيها وأخيها من ناحية أخرى.

كانت تعلم أنها خلافات نشبت بسبب العمل والشركة والمصانع والصفقات والمشروعات المشتركة ببداية الأمر حاولت التدخل لإصلاح العلاقة بينهم ولكن دون جدوى.

أخبرها زوجها أن مشكلات العمل والتجارة لا يجب أن تشغل بالها.

— طارق ماذا حدث ؟ فقد عدت مبكرا وصوتك العالي أسمعته من على بعد.

يزفر أنفاسه ويتهدد وينظر شظراً لكل الملفات أمامه ثم يحملق في هاتفه يطلب رقماً آخر وقد أشاح بوجهه عن نور لا يرد عليها ، يتجاهلها كما لو كان لا يراها.

انتفخت أوداجه وتخضب وجهه بالحمرة عيناه يتطاير الشرر منها. تقتل من ؟ وتقضى على من ؟ أقسم أيها المغفل أنى سأقضى عليك أنت.

أتظن انك ستتجو بأفعالك. ؟ ألا تعلم من هو طارق الحسينى يبدو أنك لا تعلم أذن دعنى أعلمك.

— مابك ياطارق ؟ مع من تتشاجر ؟ دفعها بيده جانبا وانطلق خارجا من الباب.

وهو يصرخ فيها أقسم يانور أن أؤدب أباك وأخاك فقد تجاوزا حدودهما.

سأكشف كل جرائمهما سوف أسحقهم وألقى بهم في السجن يود كل منهما أن يتخلص منى لكن أقسم أن أدمرهما.

تستمع إلى حديثه وانفعالاته وقد وضعت يدها على فمها. عيناها تحجرت ، لاتصدق ما تسمعه لأول مرة ترى طارق بهذا الحال.

تعلم أن ثمة خلافات نشبت بينه وبين أسرتها في العمل لكنها لم تتخيل أن تصل لهذا الحد.

صدمتها كبيرة إذ كيف يتحدث بكل ذلك العنف والغضب عن والدها وأخيها.

قابلت حديثه باستياء وهى لا تدرك سبب غضبها أهى حزينة لأجل زوجها أم لأجل أهلها.

أحزنها وقوفها مكتوفة الأيدى.

مرت الأيام التالية ونور تتجرع مرارة الخلاف الناشب في البيت ترى زوجها على حال غير الذي ألفته منه ، لاتتحمل حزنه وغضبه فقد أحبته كما لم تحب أحدا من قبل.

وحده طارق من استطاع أن يمتلك قلبها بحبه وعقله.

لطالما أشفق طارق عليها أن تكون هي ضحية هذا الخلاف فحاول أن يبعدها عن مسرح الأحداث ولطالما أخبرها أنها كل الكون بالنسبة له وأنها لا يجب أن تحزن حتى لا يتأثر حملها أو تعتل صحتها. كلما عاد لبيته رغم مشاكله وهمومه يغدق عليها بالهدايا وكلماته الرقيقة الحانية تدلل مسامعها.

لا يقوى على أن يراها حزينة ، طوال وقته يبتسم ممزحاً لها.

رغم مشاغله الدائمة يفاجئها بأنه قد أعد لها عشاء مميزا في مكان تحبه.

تضحك وهى تتأمل خاتماً ماسياً أهدها إياها منذ أيام وثوب أنيق يعرف جيداً عطورها المفضلة.

يملاً البيت بزهورها المفضلة.

إبتسامته الهادئة عندما تتحرك أمامه منتفخة البطن وقد ثقلت
وتباطأت حركتها.

تتحدث أمامه عن جسمها الذي صار أشبه بالبطيخة الضخمة
فيداعبها ممازحا: أحب البطيخ.

استيقظت نور في صباح ذلك اليوم تشكو بعضاً من الآلام ربما
كانت تشى باقتراب المخاض هي لا تعلم على حد اليقين سببها.
منذ أيام لم تتصل بأي شخص من أهلها ولم تحدث أمها.
مكثت في فراشها تعاني خمولاً شديداً مصاحبا لبعض الآلام
تحطمت أعصاب هند، أصبح جنونها يجن لأتفه الأسباب تثور
ثأرتها.

ترسل العيون لمراقبة ضياء وعالية فتأتيها الأخبار عن عالية وقد
امتدت بطنها أمامها تشى عن صغيرها المنتظر.
يحترق داخل هند.

تطيل الصمت غير أن بداخلها صخب شديد، ترقب الأحداث وتعد
عدتها وخطتها.

تجيد التظاهر بالهدوء والإنشغال عن زوجها ومن تشاركها فيه
لم يخف عليها الصراع المحتدم بين زوجها وطارق.

أسعدها هذا الصراع فقد ساءت مشاعرها نحو نور، تعلم أن نور راضية عن زواج أخيها من عالية بل إنها أيضا على علاقة جيدة بعالية اشتدت كراهيتها لنور وزاد من كراهيتها احتدام الغيرة فنور تحظى بمحبة زوجها ويحمل بصحة جيدة.

أسعدها أن نور إنقطعت زيارتها للبيت منذ فترة.

راحت هند تزكى الصراع بين ضياء وطارق تشعل أوارها، ساعدها والدها في اشعال الخلاف.

أصبح أبوها الوقود المثير للإشتعال وتمكن من زيادة الكراهية والخسائر التي تعرض لها كل الأطراف.

في ذلك اليوم الذي زادت مدة الإتصالات الهاتفية بين هند وعيونها التي ترسلها خلف عالية.

توشحت ثيابها في عجلة شديدة.

دلفت مسرعة نحو سيارتها، طلبت من سائقها أن يترك لها السيارة، تخبره أنها تود أن تتنزه بالسيارة بمفردها ولا تحتاج لمرافقة أحد لها.

حرصت على عدم الاحتكاك بوالدة ضياء حتى لا يسألها أحدهم عن وجهتها رغم اعتيادها بالفترة الأخيرة على الخروج منفردة فتارة تتردد على أهلها أو النادي أو الشراء أو صالون مصفف الشعر.

قادت سيارتها بسرعة الريح.

توقفت أمام مطعم صغير بزقاق بعيد عن تلك الأماكن الراقية.
ردت عبر هاتفها تخبر المتصل أنها قد وصلت.
دلفت عبر باب المطعم وقد زمت شفتيها وأغلقت أنفها.
توجهت مسرعة لأقصى زاوية بالمكان.
لم ترفع نظارتها السوداء العريضة عن عينيها.
جاءها صوت رجولى خشن من خلفها عبر حنجرة ضخمة لجسد
عملاق وملابس غير أنيقة ووجه بدى خبيثا.
تسبقة رائحة فمه المنتنة، أظافره السوداء غير المهذبة مما زاد من
اشمئزازها.
- أهلا سيدتى قد خشيت أن تتأخرى قالها الرجل الضخم ثم
أردف : معاطى تحت أمرك يا هانم.
تفرسته بإشمئزاز تحملق به وبالمكان القذر تدير وجهها بالمكان
يمينا ويسارا وتلفت خارجه.
- أما كان هناك مكان أفضل من ذلك الجحر القذر ؟
تتمتم وهى تخرج مظروفاً كبيراً من حقيبتها لتتاوله لمعاطى
الذي بادرها يختطف المظروف من يديها.
- وهل يا سيدتى المهمة التى نتحدث عنها يناسبها مكان من تلك
التي تتناولون بها عشاءكم وسط الأزهار وتحيط بكم الشموع ؟
كان يجب أيضا أن أرددى سترتى الأنيقة وأضع رابطة العنق الزرقاء.

قالها وهو يضحك ضحكات هستيرية ثم أشعل سيجارة ينفخ غبارها بوجه هند يتحسس أنفه يمسحها ثم يحك رأسه فتتظر إليه باستياء.

إنته أيها التتين السمين فعليك الحذر ولا تترك خلفك أثراً ولتعلم أنه في حالة انكشاف أمرك فلن تخبر أحداً بأنك تعرفنى لا أنت رأييتى ولا أنا أعرفك أفهمت ؟ قالتها وهى تردف إلى الباب : ألن تخبرني عن موعد التنفيذ ؟

— سأخبرك يبدو أنك متعجلة ، زادت قهقهته لتبدو معها أسنانه الصفراء ، يهتز بطنه السمين.

غادرت المكان لتتركه يعد المال بالظرف الذي تركته.
بعد أن أنهى معاطى عد المال ارتسمت سعادة على وجهه وهو يرد على هاتفه. بدى الأمر كخطة يعطى فيها تعليماته انتهى الحديث بمقولته لمحدثه.
— نفذ كما أخبرتك.

* * * *

إنتهت عالية لصوت طرق على الباب ضربات متلاحقة.
دنت من الباب تتسمع من خلفه تسأل : من الطارق ؟ فجاءها الرد أدركى أباك سالم حالته خطيرة.

دون أن تفكر بالأمر طويلا فتحت الباب فى هلع تسأل عن أبيها
بادرها رجلان تناوبا ضربها سددا لكلمات شديدة نحو بطنها
تركوها تنزف مسجاة على الأرض.

ظلت على حالتها لم ينتبه أحد لحالها حتى جاءت جارتها متوجهة
لشقتها فلفت نظرها أن باب الشقة مفتوح، تصاعدت رائحة غاز عبره
ظنت أن عالية أغمى عليها وقد تركت الموقد دون أن تنتبه إليه
دلفت إليها، وجدتها غارقة بدمائها فاقدة للوعى، توجهت نحو
الموقد لتطفئ الغاز ثم عادت إليها تحاول افاقتها وقد نادى زوجها
يساعدها يحملها للمشفى.

أخبرهم الطبيب أنهم وصلوا على آخر لحظة فلولا أن أنقذتها
لكانت ماتت وفقدت جنينها.

أخبروا ضياء الذي طار إليها ليطمئن عليها.

سألها كيف حدث ذلك ؟

في الوقت الذي كانت ستطبق به بكنهة ما حدث تذكرت
أحدهم يهددها إذا كُتب لك أن تعيشى بعد فقدانك الجنين وسألك
أحدهم أخبريه أنها حادثة سرقة وإلا ففي المرة القادمة لن نترك لك
فرصة للحياة ليوم واحد أفهمت ؟

إتضح لها أن الهدف كان الخلاص من جنينها.

أخبرته أن أحدهم حاول سرقة مصوغاتها ولكن قاومته فضربوها.
كانت المصوغات قد سرقت بالفعل فصدق ضياء أن القصد كان
السرقه.

لم يتصور للحظة واحدة أن هند بكل هذا الإجرام.
عندما طار الخبر لهند وعلمت أن عالية جنينها بخطر ولكنها لم
تفقده إتصلت بمعاطى تويخه على فشله في التخلص من ذلك الجنين
تظاهرت هند أمام زوجها وعائلته بأنها لا تعلم شيئاً عن كل ما
حدث فحاولت أن لا يبدو عليها أي تغير بأنشطتها.

* * *

لم تكن نور تعلم عن أمر عالية ولا عن اصابتها فقد توترت
العلاقة مع ضياء وزوجها ولم تعد تصلها الأخبار بسرعة.

* * *

جلس سالم إلى جانب فراش ابنته بالمشفى يتأمل حالها ، وجهها
المصفر وشفثيها المبيضة وقد هربت منها الدماء عينيها الحزبتين
المثقلتين بما يفوق تحملها.

يعرف حقيقة مصابها ولكن يعلم أيضا ضعفها وضعفه يدرك أن لا
حيلة لها.

عندما أطلال النظر بعينيها أدرك أنها وقعت ضحية هند وأهلها وأنه
قد تم تهديدها.

مكث يحملق فيها ويداه اللتان تملكهما الوهن ترتجفان.
يسمع إصطكاك أسنانها فتزلزل فؤاده ويرى عبراتها المنسكبة
على وجنتيها فيزيد ألمه، يسمعها نتحب ويعلو نشيجها فيتفطر قلبه
كاد أن يصرخ في ضياء وكاد ينطق بحقيقة الأمر، يتمنى لو
انتهت كل أحزان عالية أما هي فكانت تجفل عينيها على مرارة
تجرعتها من ظلم البشر وتجبرهم، وهزائم روحها وإنكسار قلبها أمام
دفعات الحزن التي تطلقها عليها الحياة.
مرت ليال ترقد فيها بفراشها وقد عادت لبيتها.
استعادت عافيتها بعض الشيء.
حمدت ربها كثيراً عندما علمت أن جنينها بخير وحمدته أيضا
عندما علمت أن جنينها توأم.
لطالما تمنّت أن يكون في جنينها التعويض عن آلامها وعن ما لاقته
بأيامها الماضية.
في ذلك اليوم الذي زارها فيه أبوها بدى شاحباً، شفتاه مبيضة
نظراته زائغة كانت تسمع عالية صوت خفقان قلبه، ترنو له وهو يزرد
ريقه، يتوقف بالحديث بين كل كلمة وأخرى.
سألته عن صحته فأخبرها أنه على خير حال.
كان ينظر إليها وقد تعلق عيناها بوجهها، تدمع عيناها وكأنما
يكتّم بقلبه عبارات كثيرة.

ربت على ظهرها ثم لثم جبينها ومسح على شعرها في حنو.
كانت على يقين أنه ليس بخير فهي ترى الموت بعينيه، تغالب
نفسها تتمنى أن تكون مخطئة في حدسها.
لم يمكث سالم طويلاً فبعد اعتلال صحته وتدهور حالته لم
يلبث أن فاضت روحه إلى باريها.
تملك الحزن منها ولا تعرف أي الأحزان تغالب وأيها أقوى.
لا تملك من أمر نفسها شيئاً.
زاد من ألمها إهمال ضياء لها.
لا يعلم عنها شيئاً تركها لأسابيع بل إنه حتى لا يعلم بحال جبينها
لم يكن لها من مؤنس لوحشة تلك الأيام سوى جارتها ليلى سيدة
طيبة تهتم بحالها ترعاها وتخدمها.
تسأل عنها بصباح اليوم ومساءه.
تأنس عالية بليلى وصغارها فكأنها وسط أهلها.

* * *

تمكنت هند من تضيق الخناق على ضياء، استغلت ضائقة مالية
يمر بها وعمدت إلى أهلها لمساومته فيساعدونه في المشروع الجديد
ويمدونه بما يحتاج من مال في مقابل طلاق عالية.
بعد تردد من ضياء طلق عالية فالأولوية للثروة بالنسبة له.

كان ينوى أن أن يردّها لعصمته بعد انتهاء الفترة التي يخادع فيها.
ليست هند غبية فهي تتوقع أن ضياء يخطط للرجوع لزوجته وكان
يفيظها أيضا أن حملها لازال بخير

* * *

بمرور الوقت توترت العلاقة أكثر بين طارق وضياء
سمعت نور بأذنيها تهديد ضياء لزوجها بالقتل، انقطعت زيارتها
لبيت أهلها وللحديث معهم
تعانى بعض مشكلات الحمل وحدها دون إتصال بأمها وذلك لأن
أهلها كلهم يحبون ضياء وينصرونه عليها ويقفون معه ضد زوجها
توقفت عن زيارة عالية أو التحدث إليها ولكنها عادت تستعلم عن
أخبارها.

* * *

جسيم نور

.....

في ذلك اليوم استيقظت في الصباح الباكر.
أعدت حقيبة السفر منذ يومين كانت نور تستعد للسفر مع
طارق وقد خطط للسفر وحده ولكنه في الوقت الأخير وافق على
إصطحابها.

كان على موعد مع شركائه لمتابعة العمل بالفندق الجديد الذي
إشتراه مؤخراً

فاجأ نور بأنه قد كتبه باسمها ، قرر باللحظات الأخيرة
اصطحابها رغم أنه كان يخشى عليها من متاعب السفر والحمل
لم يعلم أحد بأن نور ستسافر برفقته ، أخبرها بأن إدارة الفندق قد
أعدت ترحيباً خاصاً بها بداية من قائمة طعام تم طهيها لأجلها
خصيصاً

وصولاً إلى الحجرة المميزة التي تطل على أجمل المناظر الخلابة
بأروع الأماكن الساحرة

تدليل طارق لها ومحاولته الدائمة لإسعادها.

أنساها أفعال ضياء وكل تصرفاته.

كان طارق كل عالمها الجميل وهى كل حياته.

أعدت للرحلة كل شيء أروع ملابسه وعطورها.

تناولت معه الإفطار في عجالة شديدة ، نقل طارق الأمتعة للسيارة

تحرك إلى الطريق لتبدأ رحلتها.

محاولاته لإيقاف السيارة أوكبح سرعتها قد فشلت في تلك

اللحظات التي على فيها وجيب القلب تشخص الأبصار ، تضطرم

النيران ، مخاوفك كلها تلمحها في لحظة واحدة وشريط عمرك كله

تراه بعينيك يمر بلحظات، الكثير تود أن تقوله ولا يمكنك أن تفعل.

تجمعت حشود البشر لتفحص السيارة المقلوبة.
انتهى العمر وضاعت الحياة بلحظات.

طار الخبر لضيء وأبيه، لم تكن صدمتهم في موت طارق ولكن المدهش كان وفاة نور، فمعلوماتهم المسبقة أنها لا تسافر في أي مكان خلال الأسابيع الأخيرة لخوفها وخوف زوجها على صحتها وصحة الجنين.

لم يكن متوقعا أن تسافر معه.

كانت أم نور لا تعلم أن الحادث مُدبر بفعل زوجها وابنها.

تصاعد الشجار بين ضياء وأبيه فالأب منهار لم يتصور للحظة واحدة أن تموت ابنته عن طريق ولده.

انهار الرجل واعتلت صحته.

مرت ساعات قليلة قبل أصابته بأزمة قلبية نقل بسببها للمستشفى، الأيام التي قضاها بغرفة العناية المركزة لم تمر سهلة على زوجته وولده، لم يكن ضياء يتخيل أن يكون هو سبباً في مقتل أخته، كان يحبها أكثر من كل أهله.

خطط لقتل طارق، كان على علم بموعد السفر، لم يكن الأمر صعباً بالنسبة له أن يستخدم واحداً من العمال الذين يعملون بشركة

طارق ويقومون بالتنظيف اليومي لسيارته، تم اطلاق مكابح السيارة ونظام الفرامل لتبدأ الكارثة بمجرد الخروج للطريق السريع فيفقد طارق القدرة تماما على التحكم بها.

وصل جثمان طارق لأهله بينما لم يتم العثور على جثمان نور، تناثرت أنباء عن أن جثتها قد تحولت لأشلاء تناثرت بعيدة بمناطق تعثر معها العثور على الجثة.

أقامت أسرة طارق عزاء ولدها.

كان محمود الأخ الأصغر لطارق يدرك أن الحادث ليس قضاءً وقدرًا ولم يكن محض حادث عادي ولكنه مدبر، أقسم أن ينتقم من ضياء ومن أسرته.

مرت أيام على عالية تعاني وحدتها حتى ذلك اليوم الذي عانت فيه آلام المخاض، رافقتها ليلي للمستشفى حيث وضعت صغيرها ضمتها عالية ودموعها تفرق الصغيرين، رزقها الله ولداً وبنتاً، لم تظهر ملامحهما بعد

انتظرت لأيام أن يأتي ضياء ليرى صغيره لكنه لم يفعل، تعلم عالية أن ضياء صار أسيراً عند زوجته، يطيع أوامرهما فقد تصالحت مصالحه مع هند وعائلتها.

أما ليلي فهي تعلم جيداً ما تعانيه عالية وما يؤلها حيث لم يعد لها مورد للرزق لتقتات منه وتعيش هي وصغيرها.

أخبرتها عالية أنها على أتم الاستعداد لأي عمل لتحصل منه على ما
نستطيع به أن تتفق على نفسها وعلى صغيرها

الهروب

.....

قد تشرق الشمس علينا فنراها تشرق لأجلنا، ننتظر انبلاج الصباح
لعله يأتي بما يجفف به عبراتنا.

يمحو به أحزاننا.

ليته يأتي ذلك الصباح.

في ذلك الصباح أتت ليلي وزوجها يطرقان باب عالية والبشر
والسعادة قد ارتسمت على وجهيهما فقد استطاع زوج ليلي أن يأتي
بعمل لعالية في أحد المحلات التي تباع ملابس سيدات بمنطقة تبعد
مسافة طويلة عن البيت

تساءلت عالية عن صغارها لمن ستركهم ؟

لكن ليلي أخبرتها أن صاحبة العمل توافق أن تصطحب ليلي
صغيرها وتتأوب وردية العمل مع زميلتها ناني، ويمكنها أن تضع
سريراً صغيراً بزاوية من المحل بالصغيرين وعندما تمر عدة شهور
فساعتها تستطيع أن تضع الصغيرين بحضانة شعبية بسيطة تتقاضى
مبلغاً ضئيلاً.

كان العرض بالنسبة لعالية رائع فمنذ شهور تراكم على كاهلها إيجار المنزل.

رغم أنه لم يمض على المخاض أكثر من ثلاثة أسابيع إلا أنها هرعت للعمل فوراً بمجرد أن أتيحت لها الفرصة فهي تخشى أن لا تتكرر.

استلمت العمل بالمحل من صباح اليوم المتفق عليه ،
مرت أيام وعالية لا تدخر جهداً في العمل بينما زميلتها ناني لا تدخر جهداً في مضايقتها بدت بالبداية غيرة من امرأة أجمل منها ولكنها صارت صور متلاحقة من الازعاج ومحاولة تنغيص حياة عالية كانت عالية تحاول أن تتأقلم مع الأمر فكل همها طفليها ،
احتلوا القدر الأعظم من تفكيرها ومن طاقتها.

تعود بالليل لبيتها مع صغيرها وقد أنهكها التعب تحمل الصغيرين على ساعديها.

مرت الأيام والأحمال تثقل كاهلها.
في صبيحة يوم دلف رجل ضخم لداخل المحل توجه إليها ، حسبته واحداً من الزبائن سألته عن حاجته ثم لم يلبث أن دنى منها أخبرها أنه يحمل إليها تهديداً لا مزاح فيه إما أن ترحل خارج المدينة بصغيرها أو سيقتل صغيرها.

صرخت بوجهه فحدها بنظرة يملأها الوعيد والتهديد.

حاولت أن تلحق به غير أن زميلتها نانى أخبرتها أن عليها أن تعود
لداخل فالיום زبائن المحل كثيرون.

بنهاية اليوم اصطحبت صغيرها تحملهما، أحدهما على ذراعها
والآخر على حمالة تمنطقت بها إلى بطنها.

اكترت سيارة أجرة تقلها لشركة ضياء حاولت أن تدلف إلى
داخل الشركة، منعها موظفو الأمن من مقابلته أخبرتهم أنها تود أن
يرى صفاره.

أصرت أن تحدثه.

حاولت جاهدة، توسلت للموظف.

أدرك الرجل مشكلتها وتعاطف معها فطلب ضياء على الهاتف
وأخبره أن السيدة تود مقابلته.

خرج ضياء من الشركة عبر البوابة والشرر يتصاعد من عينيه

قبل أن يقف أمامها ظنت أنه قد رق قلبه إليها ولصغيرها.

دنت منه تقرب الصغير فتقول أنظر انه أحمد ولدك سميته أحمد

كما كنت تود وسميت ابنتنا مريم.

انظر كم هما جميلين.

أشاح وجهه عنها وعن الصغيرين، مد يده بجيبه يخرج لها مبلغاً من

المال ثم طلب منها أن لا تحاول أن تأتي مرة أخرى فهو لا يود رؤيتها

حاولت أن تخبره بالتهديد الذي تعرضت له فلم يأبه بكلامها ،
ظن أنها تدعى ذلك لتثير عطفه وشفقته أو تعيده إليها .
أمسكت بالمال وهى ترنو إليه ثم رفعت ذراعها تبعثر النقود
وتقذفها على أعلى ماوصلت يدها إليه ، أدارت ظهرها وغدت لا تلوى
على شئ .
تمتت وهى فى طريقها لا حاجة لى بمالك يا سيد ضياء ولا حاجة
لنا بك .
انطلقت بطريقها تغالب حزنها وعيناها يغشاها غيامة من العبرات
أما قلبها فقد اعتصرته أحزان لا حيلة لها بها .
أدارت ظهرها تحمل همها وحملها ، تنظر لصغيريها ودموعها تسيل
على وجهيهما .
كان عليها أن تعود للبيت سريعا فالصغيران يتضوران جوعاً ولا
يكفان عن البكاء ، لا أم معها لتخبرها متى يستمر الرضيع بالبكاء
دون سبب معلوم ، لم تستقِ خبرة من امرأة محنكة بكيفية التعامل مع
رضيع يتألم من معدته أو أنه يعانى عرضاً آخر .
أيام قليلة مضت بعد ذلك الحدث ، اقتتعت أن عليها أن تواجه
مصيرها وحدها .
اشتد أزيز البرد ، تتدافع زخات المطر ، تتجمع على الاماكن
المنخفضة من عتبة المحلات .

تجمع عالية وشاحين تحكم لف صغيرها بهما لعلها تفلح فى تدفئتهما.

فى تلك الليلة الباردة مكثت بالمتجر وقد وضعت صغيرها إلى ركن من المكان.

وقفت تتفقد القطع المعروضة ترتبها بعد أن أمسكت كل واحدة من النساء التي أتين للشراء ورحلن وبعضهن اشترى قطعة وبعضهن جرب الملابس دون شراء أو رمى بالقطع على الأرض. خلى المكان من الناس.

تتظر فى ساعتها وقد غادرت نانى المكان ومعها المفاتيح أخبرتها أن تبقى حتى تعود.

تتظر عالية فى الساعة كل بضعة دقائق، ترنو إلى خارج المتجر لعلها تلمح زميلتها لتغلق المكان فتعود عالية لبيتها.

البرد قارس وزخات المطر تتلاحق دون انقطاع، أدركت أن عليها الانتظار حتى يتوقف هطول المطر، لكنه كان يزداد.

فكرت فى أن ذلك الطقس ربما كان السبب فى تعطل نانى عن المجئ إليها وربما ستعود فور توقفه.

لم تلبث أن باغتها اثنان من مرده الجن فى صورة بشر حين هاجمها رجلان ضخما الجثة كشرت أنيابهما عن الشر أحدهما أمسك بصغيرها يحاول الهرب به والآخر حاول إغتصابها.

تقاوم رجلين وطاقتها أقل من قوتها لا تعرف أتتقذ نفسها أم تتقذ صغيرها.

هرعت تنتزع الولد من الخاطف فلاحقها الآخر.
صرخت ولم يجيبها أحد ، ألهمها الله أن تلحق بالطفلة تحملها تهرع إلى الخارج فيتبعها المجرم ملاحقاً.
أسرعت خطواتها.

تلبستها قوة لا تدرى من أين أتت إليها تجرى والمطر يفرقها ويفرق صغيرتها وصراخها يشق السماء بتلك الليلة المعتمة
تحاول الاختباء ، تتعطف إلى زقاق ثم تخرج منه لزقاق آخر.
لا تخطط لأي مكان ستذهب إليه قدمها تحمل ولكن لا تعرف إلى أين وجدت نفسها بمحطة قطارات والمجرم يلاحقها في جنح الظلام اختفت خلف عربات لقاطرات قديمة وأكوام القمامة تحمل طفلتها وتضع يدها على فم الصغيرة حتى لا ينكشف أمرها.

وجدت نفسها داخل القطار متحركاً ولا تعلم كنهة الرحلة
أيا كانت الرحلة لن تكون أسوأ مما تعانيه
صوت المجرم الأول يلاحقها حاملاً ولدها وهو يقول : لن ترى الطفل ثانية فهناك من ينتظره خارج البلاد ثم ضحك وهو يقول قد لا يسافر إلا إلى خارج الدنيا.

لا تفارق ذاكرتها صورة المجرم الثاني يحاول اغتصابها وقد نجت
منه بأعجوبة.

لا تعرف إلى أين ستحملها عجلات القطار ولا إلى أين تسير دنياها
ولا تدرك أين سيتوقف.

ذهولها لكل ما يحدث يسيطر عليها.

تكورت على مقعد حاملة طفلتها تحتضنها تهددها ترتجف
أوصالها تصطك أسنانها فقد زاد من إحساسها بالبرودة القارصة
ملابسها المبتلة بينما لا تكف رضيعتها عن البكاء فقد إعتادت
الصغيرة أن تأنس بأخيها الذي فارقها ولم يمض على ولادتهما سوى
شهرين.

إفترقا مبكرا قبل أن يمنحها فرصة الحياة.

أما عالية فالألم يعتصر قلبها لا حيلة لها ، تفتقد ولدها لا تعرف
مصيره لم يكن لها خيار ، كل ما أمكنها هو إنقاذ صغيرتها تحاول
النظر لخارج القطار عبر النافذة غير أنها لا تلمح شيئا في ذلك الظلام
الدامس.

تذاكر يا ابنتي

كررها الرجل

كان صوت محصل التذاكر هو ما يقطع شرودها.

نظرت إليه مضطربة، الضوء شحيح لا يستطيع الرجل أن يميز ملامحها لكن مظهرها الملطخ بالطين يشى بأن مكروها تعرضت له استشعر الرجل إضطرابها، توقع أن تكون قد فقدت مالها.
حسنا يا ابنتي لا عليك، لا حاجة لك بالتذكرة، لكن إلى أين وجهتك ؟

— لا أعلم، إلى أى مكان.
راح الرجل يتفرسها فى دهشة.
صوت بكاء الصغيرة يعتصر قلبه.
سألها عن هويتها فأخبرته عن اسمها وأخبرته أنها لا تعرف أي مكان ولكن عليها أن ترحل بعيدا.
تركها الرجل ينتقل بباقي عربات القطار ثم لم يلبث أن عاد إليها يحمل قطعة من شطيرة محشوة بالجبن كان قد بدأ بقضمها ثم تركها لها.

ناولها إياها فقد أدرك أنها لا بد أن تكون جائعة.
ثم عاد يسألها عن المكان الذي تبيت فيه، لم تجد عالية إجابة لسؤاله.

أدرك أنها لا تعرف وجهتها، تأكد له أنها هاربة من خطر ما، كلما توقف القطار بمحطة انتظر الرجل أن تنزل ولكنها لا تفعل أدرك أنها ستتزل في المحطة الأخيرة.

كان يحملق فيها يتفرس ملامحها تارة وأفعالها تارة أخرى.

يرتجف جسدها ، تصطك أسنانها ترتعد فرائصها.

ترنو بناظريها بكل صوب ، تشعر من نظراتها أنها تترقب شيئاً
تخشاه.

عندما هدأت سرعة القطار هذه المرة أخبرها المحصل أنها المحطة
الآخيرة.

وقفت تحمل صغيرتها تنزل من القطار ترنو ذات اليمين وذات
الشمال تيمم ببصرها قبالة باب المحطة ، تشرد قليلاً ، تفكر في
وجهتها القادمة وهي لا تحمل معها مالا ولا أوراق هوية ولا أهل لها في
أي مكان ولا أمل لها بالعودة لمدينتها وإلا ستقتل طفلتها يلحقها الموت
كما آل إليه مصير توأمها.

حدها الرجل بنظراته ثم دنا منها.

— يا ابنتي يبدو لي أنك لاتعلمين وجهتك ولا هدف لك تتوجهين
إليه.

هل أنا محق يا بنتي ؟

نظرت إليه في رهبة وتردد تجيبه بإيماءة رأسها موافقة على
كلامه.

— إذن يا ابنتي إتبعيني.

لمح الرجل في وجهها خوفاً منه فبادرها قائلاً : يا ابنتي أنا عمك
عبد الظاهر وبالبيت ستجدين زوجتي السيدة حسنية.
كما ترين يا بنتي رجل كبير بالسن ولا تقلقي فلن يصيبك منى
مكروه.

صمتت هنيهة تتدبر قوله برأسها المشوش ثم تناقلت قدماها تقدم
واحدة وتؤخر الأخرى ، رفعت رأسها توافقه.
- حسنا عمى عبد الظاهر.

ترجلا لبيته الذي لم يكن بعيدا عن المحطة.
اقتريا من شارع جانبي ضيق أدرك الرجل ما عليه أن يفعل فأدار
وجهه قائلاً : انتظري هنا.

سبقها للبيت وعندما فتحت له زوجته أخبرها بالأمر سريعا.
عادت معه لاصطحاب عالية من مكان وقوفها على ناصية الشارع
دنت من عالية فتفرستها عالية لتجدها سيدة كبيرة في عمر
والدتها.

ربت حسنية على كتف عالية ، تفحصتها ترنو إليها بشفقة على
حالتها ملابسها المتسخة وبكاء صغيرتها.

هدأت حسنية من روعها ثم رافقتها إلى حجرة صغيرة بنهاية الردهة
تحوى سريرا عليه فراش نظيف ودولاب صغير ونافذة.

يغطى البلاط الرخيص قطعة من كليم صغير ولكنه نظيف
أسرعت حسنية نحو خزانة ملابس تحضر منها ملابساً عالية
وبطانية للطفلة.

مدت يدها تحمل عنها الطفلة حتى تغتسل من الطين المغطى
لجسدها.

راحت تهدد الصغيرة ثم توجهت إلى ماكينة خياطة بركن من
الصالة ومعها قطعة قماش صوف فقصته بسرعة ثم خاطته على الماكينة.
عندما خرجت عالية من الحمام مرتدية ملابساً نظيفة وجدت
طفلتها قد سكنت إلى جوار حسنية وكأنها تألفها، انتهت إلى أن
حسنية تحيك قطعة من ملابس.

ابتسمت حسنية لها وهى تقول : أصنع ثوبا للصغيرة حتى يغسل
ملابسها، قطعة القماش تلك كان جارنا قدى أتى بها من الحج لعمك
عبد الظاهر لكنها صارت من نصيب الصغيرة، ما اسمها ؟
— اسمها مريم. وأنا عالية يا خالتي.

فرغت حسنية من حياكة الثوب ثم جذبت مريم تلبسها الثوب، ثم
ذهبت تعد العشاء.

حين أتت حسنية بالشاي كانت عالية قد شرعت تقص حكايتها
عندها أخبرها عبد الظاهر بأن الله سيأتي لها بحقها وأن عليها أن
لا تحزن، أخبرها أنه يعيش وحده وزوجته بهذه الشقة.

ولدهما مسافر وابنتهما متزوجه في مكان بعيد.
أخبرته عالية بأن كل ما تود فعله بالحياة أن تبحث عن وليدها
الذي لاتعرف أهو حي أم قتل.
اجتهدت حسنية في اخفاء شفقتها على عالية ومريم.
بادرها عبد الظاهر قائلاً : رب العالمين يدبر الأمر، ما أراد الله
سيكون.

حملت صغيرتها للفراش تحمل معها همها وجرحها النازف.
خلدت إلى النوم بعد ساعات من الأرق.
مر أسبوع وحسنية وزوجها يحيطان عالية ومريم بالود والرعاية
في ذلك اليوم عاد عبد الظاهر من عمله نادى عالية فجاءته بصحبة
حسنية.

قدم إليها أوراقها من بطاقتها الشخصية وشهادة ميلاد صغيرها
لمح بوجهها استفسارا ودهشة وعشرات الأسئلة تتبعث من عينيها،
دعاها للجلوس، حكى لهما أنها لما أعطته عنوانها أرسل رجالا
يعرفه فذهب لبيتها وجد قفلاً على الشقة فطرق شقة جارتها ليلي
أخبرها أنه من طرف عالية فاضطربت وأغلقت بوجهه الباب، فكرر
المحاولة وأخبرها من أمام الباب أنه لا يريد شيئاً منها إلا أن يحصل
على أوراق عالية ويريد أن يعرف أي خبر عن ولدها.

فتحت ليلي الباب مترددة تتلفت حولها أخبرته أنها مرغمة.

قالت: لا تؤاخذنى.

روت له أن بعد ما حدث لعالية أتى للبيت رجل يهددها وطلب أن تخبره إذا أتت عالية للبيت.

وأخبرها الرجل أن عالية هربت بطفلتها أما ولدها فقد قُتل.

فتحت ليلي الشقة مسرعة لتحضر أوراق هويتك وهوية طفليك ثم أغلقتها مسرعة.

ثم بادرت وهى فى حالة من الانزعاج : خذهم بسرعة وأرجوك أن لا تحاول أن تأتى مرة ثانية وأخبر عالية أن لا تحاول أن تظهر مرة ثانية بالمدينة كلها.

ثم دلفت لشقتها مسرعة تغلق الباب بوجه الرجل.

ربت حسنية على كتف عالية التي لم علا نشيجها ، ثم مدت يدها بحنو تمسح عبراتها قائلة : يا صغيرتى لك الله ، حافظى على ابنتك حتى لا تضيع هي أيضاً فيبدو أن هؤلاء الذين وقعت بين أنيابهم جبابرة فلا تعومى يا صغيرتى ضد التيار مادمت لست بقوتهم ، أفيقنى وتحملى وقاومى لأجل طفلتك بدلا من فقدانها.

اطلبى العوض من الله على ما فقدت واطلبى العون منه في قابل أيامك وتماسكى ، قفى على قدميك وإياك أن تستسلمى للحزن اسمعي يا عالية سأروى لك قصة قمر بلدنا.

انتبهت عالية للاسم تومئى مقطبة جبهتها تحديق بحسنية منتظرة أن تعرف قصة قمر.

— كان اسمها قمر وكانت أجمل فتيات بلدتنا ونحن صغار ترك لها أبوها ميراثاً عظيماً وتزوجت من أفضل شباب بلدتنا عقلاً وخلقاً ووسامة ونسباً.

تزوجته وأنجبت ثلاثة أطفال.

بعد سنوات قليلة أصيب الرجل بمرض وتوفى وترك لها الصغار والمال أصابها الحزن والألم واستسلمت لأحزانها ووهنت وتسلس المرض لجسده ينخر فيه واعتلت صحتها

أهملت صغارها وأموالها، صار صغارها يتجولون بالشوارع والطرق شعرهم أشعث، ملابسه قذرة، لم يتعلم صغارها شيئاً من أمور الحياة مات ولدها بمرض بسبب الإهمال. فقدت طفلاً من أطفالها بغمضة عين فزاد وجعها واشتد قهرها وبقي لها اثنان من الصغار فزاد إهمالها لهما، صار مالها مطمعاً للطامعين فاحتالوا ونهبوا مالها، شيئاً فشيئاً أنهموا على كل مالها.

استسلمت أكثر للألم، كان قلبها يعتصر على صغارها لكنها أدمنت الاستسلام.

صار ولداها حديث الناس بالبلدة فكلاهما يتجولان بالطرقات يأكلان من الشارع ومن الطعام القذر تفوح منهما رائحة الإهمال،

أما قمر فكانت قد فقدت قدرتها على التركيز تمام أكثر مما تستيقظ، كان الناس يحذرون بعضهم إذا أصيب أحدهم ببلاء فيقولوا: احرصوا على أن لا تكونوا مثل قمر.

أفهمت يا عالية ؟ أتودين أن تضيع صغيرتك ؟ قاطعتها عالية بإيماءة تهز معها رقبتها.

— لا يخالتي.

قامت لتصلى ثم ختمت صلاتها بالدعاء أن يساعدها الله ويؤيدها توجهت لعبد الظاهر وقد اتكأ على أريكته يحتسى الشاي مع حسنية يحملان مريم يداعبانها ويتضحكان معها. فجذبت كرسى لتجلس اليهما.

أخبرتةما بحاجتها للعمل.

فقاطعها عبد الحفيظ وقد عدل جلسته ليصغى إليها.

— وهل قصرنا معك يا عالية أو احتجت أمرا وعجزنا عنه ؟

— لا والله يا عمى فيعلم الله أنكما كأبى وأمي فأنتما نعم الأب والأم.

ولكنني أود أن أعمل، اسمح لي أن أبحث من اليوم عن عمل وافقها عبد الظاهر في رأيها فلم تتردد في الخروج للبحث عن عمل لم تترك محلاً أو مكتبة أو شركة إلا ودخلت تسأل فيها عن وظيفة.

حتى انتهت لها سيدة تقف في محل فنادتها ، أخبرتها أن بيت سكن للمغتربات يحتاج فتاة أو سيدة مقيمة بالدار للإشراف عليها هرعت عالية لتوها إلى إدارة الدار ، أخبرتهم عن استعدادها للعمل أخبرتهم أن لديها رضية فبادرتها المديرية التي عقدت حاجبيها لترقى عالية من خلف زجاج نظارتها تتفرستها بنظرات تشملها من رأسها حتى أخص قدميها .

— لا بأس طالما ستمكنين من العناية بها دون أن تسبب ضوضاء أو فوضى بالدار .

— طبعا أنا سأتحكم بها لن تؤثر على المتواجديات .

— حسنا يمكنك استلام العمل من الغد هكذا تحدثت المديرية بصرامة

ابتسمت ابتسامة متصنعة ثم حيتها وانصرفت ، هرعت لبيت عبد الظاهر ، أخبرتهم بالأمر مستبشرة وقد بدى شيء من الاطمئنان عليها . لم تلبث حسنية أن نجحت في مغالبة العبرات فقد أخبرتها أنها قد تعودت على مريم وعالية وكذلك عبد الظاهر الذي لا يرى أحفاده إلا كل سنة مرة ياتون إليه يمكثون معه أقل من شهر فيخطفون قلبه ويفادرون .

وعدتهم عالية أن تأتي كثيرا ولن تطيل الغيبة .

مرت الليلة طويلة لم تغف عالية للحظة فقد جفى النوم عينيها منذ شهور.

لم تبرح تفكراً في طبيعة العمل الجديد ، تساءلت هل سأتقلم معه؟
رن في أذنيها الصوت الحاد والصارم لمديرة الدار والغلظة التي صاحبت حديثها.

شردت بصغيرها الذي خطف منها وهو رضيع فهي على يقين أن خاطفوه ليس بقلوبهم رحمة ليتركوه حياً.
تذكرت حياتها التي انقلبت يوم مرض أبوها واضطرت للزواج من ضياء.

كيف تصورت أنه جاء لينقذها ؟ ولكن أدركت أنها عاشت بالوهم ، يعتصر قلبها ولكن هل لذلك الوجع أن يطيّب ؟
عندما هرعت عالية لبيت المغتربات وطرقت حجرة أميمة مديرة الدار وهى تلهث حدجتها أميمة بنفس النظرة الصارمة ولكنها في هذه المرة صاحبت نظرتها ابتسامة خفيفة.

— يبدو أنك أتيت إلى الدار مترجلة في سرعة ، أعنى أنى أسمع صوت أنفاسك

قبل أن تنهى أميمة جملتها أشارت إلى عالية لتجلس ثم ربت بحنو على مريم التي كانت قد شرعت تبكى.

أخفت عالية اضطرابها وهى تحاول إسكات صغيرتها خشية أن تطردها أميمة قبل أن تعمل من الأصل.

— في أغلب الوقت أستطيع أن أجعل مريم لا تبكى ولكن هي فعلت ذلك الآن ربما لأن الوجوه جديدة عليها.

بين الحجرات

.....

تطرق غرفة تلو الأخرى.

عندما تتحدث أميمة تستشعر في صوتها ونظراتها وخطوط جبينها صرامة وحزم شديدين مما جعل نبضات قلب عالية تتسارع كلما طرقت حجرة ودخلتها صادفتها وجوه لفتايات، تنوعت وجوههن بين من تنتظر لها بابتسامة من القلب وابتسامة أخرى مصطنعة وبين نظرة باردة وأخرى يملأها الفضول وأخرى حانية تربت على القلوب غير أن عالية قد التزمت بتعبير واحد يرسم على وجهها ابتسامة خفيفة.

مضى يومها الأول في الدار وهى تحاول التعرف على نزيلات الدار وتسجيل الأطعمة الواردة واستلامها وتسجيل موعد دخول وخروج كل منهن وإعطائهن التصريحات ثم الإشراف على عاملات النظافة.

كانت الدار كبيرة من خمسة طوابق وحجرات كثيرة مما جعل عالية منهكة في العمل بين احتياجات الدار وحاجة مريم طوال اليوم، فما أن أقبل الليل حتى هوت على فراشها تخذل للنوم والى جوارها مريم التي استسلمت للنوم بعد بكاء طويل فغفت دون أن تشعر بها عالية.

صوت المنبه يوقظها في الصباح ومعها مريم.

ولكن الصوت الأعلى من المنبه كان صوت أميمة تصرخ في واحدة من النزيلات، ما إن اقتربت عالية من الحجرة التي سُمع الضجيج من أمامها حتى لفت انتباهها بكاء امرأة تبدو ثلاثينية وقد غطى وجهها كم من مساحيق التجميل، رائحة عطرها نفاذة ولون الحمرة الصاخب على شففتيها متوهج، تنورتها الضيقة القصيرة وكعب حذاءها العال، ورد بخاطر عالية للوهلة الأولى أن الفتاة قد أتت متأخرة من حفل أو عرس، لكن صوت أميمة وهى تلوح بيديها إلى الفتاة مخترقاً الأسماع.

— أنا لم أعد أتحمل كل تصرفاتك هذه، تستطيعين الخروج من

الدار فلا مكان للساقطات مثلك بيننا.

دلفت الفتاة لحجرتها تتطلق نحو دولا بها تخرج ملابسها وأمتعتها مسرعة، تجمعها إلى حقيبتها والدموع تهطل متسارعة على وجنتيها.

تسمرت عالية في مكانها تنقل نظرها تارة بين أميمة وبين الفتاة تارة أخرى، أصوات تصدر مختلفة، كان البعض يعلو صراخه في وجه

الفتاة تنهرها لتخرج - هاقد مللنا من قذارتك لطخت سمعة الدار هيا اخرجى.

وبعض أصوات أخرى تستجدى أميمة لترحم الفتاة : حاجة أميمة ارحمى زيزى فلا مكان لها ولا مأوى تحتمى به ، بين التوسلات والسباب وقفت عالية تترقب ، أسرعت زيزى تجر أمتعتها نحو الباب ترنو بطرف عين نحو أميمة وكأنها تنتظر أن ترجع عن قرارها بالطرد ، غادرت البيت وابتعدت عن الأنظار.

دخلت أميمة حجرتها وأحكمت غلق الباب بعد أن صرخت فيهم بأن لا تحاول إحداهن أن تدخل عليها أو تطرق بابها أو تقلقها.

لاتدرى عالية مالذى دفع بها إلى تلك الحجرة تحديدا إذ وجدت نفسها والى جوارها تتكئ الفتيات بعضهن قد تلاحمت أجسادهن ببعضهن يتدثرن ببطانية يتجاذبنها وجلست أخريات على الأرض وأخريات على أريكة إلى جوار النافذة وقد راقبن خلالها زيزى حتى غابت عن الأنظار ، تزم احداهن شفيتها وقد بدى عليها الحزن ، تضرب كفاً بكف ثم تميل على عالية تهمس لها :

أنا سماح صاحبة هذه الحجرة وتشاركنى بها تلك النحيمة التي تجلس على الأرض أشارت إليها تناديهما ، صفاء.

بدت سماح وجهها مريح ممتلئة الجسم قليلا ، بصوت هادئ تمتمت :

عالية تبدين سمحة الوجه.

نهضت أقصرهن من مكانها تقترب من عالية أما أنا فاسمى رباب
أتعرفين ؟ ليست هذه هي المرة الأولى التي تطرد فيها الحاجة أميمة
زيزى. تلاحقت العبارات من فم رباب، زيزى جميلة وهى تعلم أن جمالها
رأس مالها لكن لا نعلم أهى تعمل في ملهى ليلى أم ؟ قبل أن تكمل
حديثها صرخت بها سماح.

مابك يارباب ألم أنك عن ذلك ؟ ألم أخبرك أنى لا أسمح بغيبه
وثرثرة بحجرتى، ثم أنه عليك أن تدعو الله لها بالهداية ونحن لانعلم
عنها شيئاً حتى نقول ذلك.

قامت إليها رباب تسترضيها ولكن سماح قد أشاحت وجهها عنها
ثم قالت : يا عالية أنت أمام ثرثرة الدار وكالة الأنباء رباب، لمحت
عالية على طرف السرير واحدة تحمل بين يديها مريم في حنو غريب لا
تكف عن النظر إليها حتى أن الصغيرة سكنت بين يديها وخلدت لنوم
عميق.

— يبدو أن مريم أحبتك، سكنت معك وغفت، عفوا لم أعرف
اسمك.

بادرتها: أنا روضة، أكبر النزيلات سناً أختهم الكبرى، ثم
أردفت مبتسمة أو أهمهم قالتها بصوت خافت.

عندما عادت عالية لحجرتها لمحت في طريقها حجرة خلت إلا من سيدة يبدو ظهرها فقط وهى تصلى.

كانت عالية قد سمعت منهن اسم صاحبة الحجرة، ثريا. ربما كانت هي المقصودة فهي كما أخبرنها لا تكف عن الصلاة والذكر والعبادة، تصوم النهار وتقوم الليل.

عادت أدراجها تجفل عيناها على ضوء يتسلل من القمر عبر زجاج نافذتها يداعب مقلتها التي أبى شعاع النوم أن يمضمض عينيها، تحملق بالسما و كأن ماتاثر بها من نجوم بعضها طمرت السحائب وبعضها يداعب ضوءه على استحياء، شردت في أحداث اليوم وفى كل تلك الشخصيات التي جمعها بيت واحد وجدران واحدة ولكن يبدو لكل منهن قصة وحياة.

زفرت أنفاسا اعتادت أن تخرج مع زخات من الألم الذي يعتصر روحها يمج معه أنفاس لويلات العمر الماضي.

تبتلع غصصها فتحفر أخاديدا في عمق روحها.

تسلل لسمعها صوت طرقة خفيفة على الباب وكأن صاحبها تردد فعاد أدراجها، همت لتفتح فحان منها التفاتة لأميمة تدلف لحجرتها، تبعثها عالية تتساءل عن ما إن كانت تحتاج منها شيئا، تلعثت أميمة ثم لم تلبث أن أجابتها:

نعم يا عالية فأنا أود أن أرسلك إلى زيزى حيث تقيم فتأتى بها ، ثم علا صوتها وقطبت حاجبيها تحاول استعادة هيبتها ووقارها وصرامتها ، لكن على شرط ، أخبريها وأخبرى سائر النزيلات أنك حاولت معي واستعطفتنى لإعادة زيزى بينما كنت أنا رافضة

تساءلت عالية ، هل تعرفين مكانها ؟

– نعم ، ليس لها مكان تقيم فيه إلا عند صديقة لها ، راقصة بملهى ليلي.

كأنما مسها جن أو صعقتها صاعقة عالية التي شهقت وهى تكتم صرختها بظهر يديها.

– نعم يا ابنتي فزينب أعنى زيزى لا مكان لها فمئذ ماتت أمها وتزوج والدها وقد كان تاجراً ثرياً وأنجب من زوجته ، كبرت زيزى وهى خادمة فى بيت أبيها ولها أخ أكبر ترك البيت تمرداً على قسوة الأب ومكر زوجته ، كتب الأب المخدوع كل ثروته لزوجته وأولاده منها ، توفى الأب فما كان من زوجته إلا أن زاد تعذيبها لزينب تلك الفتاة التي كانت تزهر بعمرها لتتصب فى قالب الأنوثة الرقراق ، يزيد حسننها فتزيد غيرة زوجة الأب.

كان لتلك المرأة أخ سيئ الخلق مدمن للخمر ، كم من المرات التي حاول الاعتداء على زينب فكانت تضربه وتقاومه وتهرب منه ، حتى طردها من البيت ، أخرجوها فى منتصف الليل ، تلقفتها أيدى

صديقتها لتعمل معها بالملهي، رفضت زيزى مراراً ومرات ولكن رضخت لصديقتها أمام احتياجها للمال، حينما عاد أخوها يسأل عنها وقد علمت أنه يعاني مرضاً شديداً فلا يملك أن ينفق على نفسه ولا زوجته وولده الصغير فاضطرت أن تعمل بالملهي مع صديقتها لتتفق على أخيها وأسرته،

أعلمُ بظروفها ولكن أحاول تعديل حالها ولا أقدرُ، زيزى لا تجيد شيئاً إلا الغناء في الملهي، أعلم أنها لا تتجاوز الغناء ولكنها أخاف عليها يا ابنتي، فالذئاب في دنيانا كثيرون مابالك في مثل ذلك المكان. لم يفاجأ أي من الفتايات بعودة زيزى مع عالية، أدركت عالية أن الجميع يعرف طبيعة أميمة.

رغم محاولات أميمة أن تشيح بوجهها بعيداً عن زيزى حتى لا يلتقيا بنظراتهما إلا أنه قد لاحظت منها التفاتات تفضحها، تترقب زيزى ورفيقاتها في محاولة العودة السريعة إلى حالها القديم من قناع الصرامة والحزم الذي اعتادت إرتدائه.

في الظهيرة تتبع عالية زيزى فتلمحها وقد جمعت ملابس ثريا وروضة تغسلها وتنشرها بالشمس ثم تعود وقد أعدت الطعام، تقدمه لكل حجرة.

كأن الأمر مثيراً لأسئلة كثيرة يستفز عالية فلم تملك إلا أن أقبلت على زيزى تسألها.

حدجتها زيزى بنظرة غير مبالية وقد نظرت منها ثم اندفعت منها كلمات، لا شأن لك وليس هناك مبرر لتدخلى انك فى أمورى ولا حتى كونك قد جئت إلى لتعيدنى للبيت، استقبلت عالية كل هذه الردود اللاذعة وقد غضت طرفها فى خجل وهى تضم شفيتها مطأطأة رأسها. انزوت مبتعدة عن زيزى.

انشغلت عالية بباقى شؤون البيت تستقبل الخضروات والخبز، تسجل الخروج والدخول، قطع انهماكها صوت زيزى تربت كتفها، تتحنث ثم شرعت فى حديثها تعتذر عن مابدر منها، تخبرها أن عليها أن تتفانى فى خدمة ثريا وروضة.

— ثريا يا عالية قصة عجيبة فهذه المرأة أصيبت بنوع من السرطان، كان لها زوج وأسرة، زوجها ابن عمها ولكنه منذ علم بمرضها تركها وأخذ أبناءه، لم يترك لها مالاً، تبرع لعلاجها بعض أهل الخير، شقتها الأخيرة كانت إيجار فلم تعد تملك ماتدفعه للإيجار أمام نفقات العلاج وخاصة أنها لم تعد تعمل، ساعدت أميمة فى علاجها ولا تتقاضى أجره الدار، نعم يا عالية فالمبلغ الذي تسجلينه بالملف تدفعه أميمة بدلاً من ثريا وهى أيضاً تدفع بدلاً عن أخريات، كلنا يعرف ما تفعله أميمة رغم محاولتها أن تظهر الحزم والقسوة والحدة.

علاج ثريا مُنهك ومُرهق ففي اليوم الذي تجرى به الجلسات أكون أنا إلى جوارها.

منذ عرفنا ثريا هي لا تكف عن العبادة، تقول أن الصلاة تشفيها؟
أحقا يا عالية الصلاة تشفى المرضى؟ أنا أعتقد أن ذلك حقيقى فحالة
ثرىا كانت مستحيلة الشفاء بينما أخبرنا الأطباء أنها تتحسن، أنا
أخدمها لأنها لاتقوى على خدمة نفسها.

— وروضة؟ أعنى ماذا عن روضة؟ أما قلت أن روضة قصة في
ذاتها أيضا؟

قاطعهما صوت أميمة متذمرة من صوت أغانى صدرت عالية من
أحد الغرف رائحة طعام محترق بالمطبخ وأرضية الحمام المبللة،
انتفضت عالية تقفز كالمسوس لتصلح الأمر لتخدم بركان الثورة.
لم تلبث أن شرعت في إمساك ممسحتها تجفف الأرض بعد إطفاء
الموقد حتى داهمها صرخ إحداهن تعنفها ظناً منها أنها هي من
أحرقت الطعام.

اعتادت في الأيام الماضية أن تمتص غضب كل واحدة بصمت
وسكون فلن تأتيا الحياة بأناس أكثر فظاظلة من كل الذين
صادفتهم.

تسرع في مهمتها لتعود أدراجها لسرير مريم التي يعلو صراخها،
رغم أنها تكون دوماً مطمئنة فهي تعرف أن روضة لن تترك صغيرتها
وحدها فكلما سمعت روضة بكاء الصغيرة هرعت إليها.

في هذه المرة انقطع الصراخ ' شيء ما في قلب عالية يجعلها غير مطمئنة.

تركت أعمالها لتعود إلى مريم، هالها مارأت.
روضة ممسكة بمريم تخنقها، ارتمت عالية على جسد مريم
تتزعها من بين يدي روضة.
أفلتت روضة يديها من حول عنق مريم، دفعتها عالية تسقطها على الأرض

حاولت عالية إفاقة مريم، تطرق على صدر الطفلة وظهرها التي
بالكاد تسمع زفرات قليلة وأنفاسا وثيدة تصدر منه.
وجه الصغيرة تضور بزرقة. جفلت عينا عالية وهى تصرخ، تجز
على شفيتها تتجمد العبرات، تلهث، لاترى أيا مما تجمعن حولها
بعد أن إشتعل البيت وعم الصخب بين بكاء وصريخ وتوتر يسيطر
على الجميع، أصوات الدعاء ممتزجة بنحيب تسمع معه ضربات قلب
عالية تتعالى وكأنها تغطى على أصوات البكاء.
لقد فقدت ابنها منذ زمن فهل تحمل لها الحياة فاجعة جديدة
بفقدان مريم ؟

بين لحظة وأخرى تحين التفاتة من كل واحدة نحو مريم تارة
وروضة تارة أخرى كأنهم يلومونها جلداً بسياط النظرات.

منذ اللحظة التي خلصت عالية ابنتها من يد روضة دافعة بها بعيدا
وهى منزوية الى ركن من الغرفة وقد تكومت في قرفصاء جمعت
ساقها الى حجرها وصدرها، ترتجف دون توقف، تنهمر عبراتها،
تحملق في كل ماحولها في دهشة، تصطك أسنانها ترسل عينيها في
كل مكان، تنتظر إجابة لما يدور بخلدها، يصدر عن حنجرتها
زمجرة وحممة مع تمتمة غير مفهومة،

لم تهدأ عالية الا بعد أن سمعت بكاء صغيرتها وهدأت زرقه
وجها، بدأ التنفس في العودة لحالته الطبيعية.
استغرق الأمر ساعة أو ساعتين.

لا أحد يدرك كم مضى من الوقت على حد الدقة فقد غاب الوعي
بالزمن.

ترامت بعض العبارات متسللة الى أذن عالية لا تعلم من منهن قالت
لا حول ولا قوة إلا بالله لقد ظننا أن روضة قد شفيت، لا نعلم أنها
عادت لحالها.

أخرى قالت :

أيعقل أن تكون الطفلة هي ضحية الست روضة ؟
مسكينة الصغيرة، مسكينة أمها، يارب نج الصغيرة.

جحيم روضة

.....

الأيام التى مضت بعد حادثة روضة كانت عالية تتجنب طوال الوقت أي احتكاك بروضة، تبارت كل النساء في البيت في إخبارها بقصة روضة.

تجمعت أحاديثهن لتغزل القصة في رأسها.

بعدما سخطت على روضة واشتد حنقها تحول الأمر صارت تشفق عليها.

منذ علمت أن السيدة كانت تحيى حياة عادية، زوجها هو ابن خالها.

تزوجا بصورة عادية وعائلية، تفانت في إسعاده، جعلت بيتها جنة، حتى تغير حال الزوج، أدمن المخدرات، يدخل بيته ينهال عليها ضربا، إمتد عدوانه الى ابنته وابنه.

حتى كان اليوم الذى خرجت فيه روضة من بيتها تركت الصغار بالبيت، تركت البيت لساعة واحدة تشتري متطلبات البيت.

كان الولد بعمر الأربع سنوات والبنت كانت رضية.

عادت لتجد زوجها قد أصابته واحدة من النوبات هي الأقوى فقد عاد يبحث عن المال دون جدوى.

قلب كل شبر بالشقة ، فتش في كل مكان ، لم يجد شيئاً بحث
عن مصوغاتها ، كانت قد أخفت ما تبقى منها .

عاد يفتش حقيبتها ، لم يجد المال .

الصغيران يبكيان هلعا ، ما كان منه الا أن أمسك بالرضيعة ،
جذبها من الفراش رفعها ثم قذف بها الى أقصى ما طالت ذراعه
انتفضت روضة ، هرعت للزوج الممسوس تمسك به تحاول إيقافه أو
تهديته لكن الوقت لم يسعفها فردة فعله كانت أسرع .

جفلت عيناها في وجوم بعد أن تجمدت لموضعها لا تتبس ببنت
شفة ، كل ما كانت تملكه هو انهمار الدمع . حاولت انقاذ الصغيرة
لكن دون جدوى فقد شهقت الصغيرة شهقتها الأخيرة تعلن بها نهاية
العمر قبل أن يبدأ .

صحيح أن الولد لم يمت غير أنه صار ولداً مضطرب النفسية لا
يكف عن البكاء ، فقد فقدت روضة كل صوابها عندما وجدت
الرجل لا يعبأ بها ولا بالصغيرة التي ماتت فاستأنف بحثه عن المال ، كل
همه أن يجمع ما تطاله يده من جهاز كهربى أو قطعة ذهبية ليهرب بها
بحثاً عن جرعة من مخدر ، . كان الولد في طريقه فدفعه أرضاً .

انهال على روضة ضرباً فما كان منها الا أن عمدت الى آنية الزهر
الضخمة أمسكتها بكل قوتها وهوت بها على رأسه .

رأته وقد تشحط في دماؤه يدرج فيها .

تحملق في ذلك الجسد المسجى، كان مارداً جباراً لا تملك قوتها أن تدفعه عنها ولكنها الآن تنظر اليه فتجده جثة هامدة لا حول لها ولا قوة. أمسكت عالية بذراع ثريا تسألها.

علمت بما حدث لروضة، استدركت، أعنى ما حدث لطفلتها، لكن كيف مر الأمر ؟

على استحياء شديد استأنفت سؤالها، تفهمين ما أعنى، كيف وصلت حالتها اللى هذا السوء ؟ كيف مر الأمر دون أن تسجن ؟ ألم يمت الرجل ؟

نعم مات، لكن المرأة كانت قد وصلت لحالة من الإنهيار العصبى، فقدت السيطرة على تصرفاتها.

عند مثولها للعدالة أسفرت التحقيقات بعد تحويلها للطب الشرعى أنها أصيبت بحالة نفسية شديدة وأنها بعد رؤية ابنتها تموت على يد الرجل ساءت حالتها.

خضعت للعلاج بالمصحة، أخذ أهل زوجها الولد ورفضوا أن تراه، كأنما يعاقبونها على موت ابنهم وحفيدتهم.

سؤال يسيطر على عقل عالية، يملكها دون مهرب.

كيف خرجت روضة من المصحة ؟ كيف جاءت للدار ؟

ترددت الأسئلة في ذهنها، ورغم أنها لم تبدها إلا أن زيزى أقبلت من المطبخ تحمل الشاي وبعض الفطائر ساخنة رائحتها شهية فنهضت

النساء يتخاطفنها ، نظرت إليها عالية وهى تخبرها أن لعبها سال على الفطائر التي شمت رائحتها منذ ساعة.

— لم أكن أعلم يازيزى أنك طبخة ماهرة لهذه الدرجة فأنت منذ أيام تبدعين في صنع الحلوى والأصناف اللذيذة.

ضحكت زيزى وهى تمسك بآخر قطعة من الفطائر تتاولها لعالية ثم استطردت : هه سبع صناعات.

ثم أكملت حديث النساء لتذكر أن روضة كانت قد مكثت بالمصححة لأعوام ، لم ترفيها ولدها فقد حُرمت منه بعدما سافر عمه به إلى خارج البلاد.

عاشت روضة بعدما تحسن حالها على أمل أن ترى ابنها. خرجت من المصححة لبيت اكرته ، تدخل الطيبون لجعلها ترى ولدها وأتوا به إليها.

استبشر وجه عالية فهذا ما كانت تتمنى سماعه وهو أن روضة قد اجتمعت بولدها.

— لكن لم تكتمل الفرحة ، قالتها زيزى وهى تعقب على الحديث ، نعم لم تكتمل فقد أتى الولد وهو في سن بداية الشباب ولكنه رفضها ورفض رؤيتها ، لا نعلم حقاً ماذا قيل للولد ليأخذ هذا الموقف من أمه.

هل يمكن أن يكره الإنسان أمه يا عالية ؟

حذر الطبيب من مكوثها وحدها فأشار عليها الجيران بأن تأتي للدار لتعيش بها.

تحسنت حالتها أصبحت الأخت الكبرى والأم للجميع.
هي أحبتك يا عالية، تعاطفت معك خاصة لما علمت بفقدك لولدك وتعلقت بابنتك.

لكن في بعض الأوقات تتملكها حالة من خيالات ترى فيها رجلاً يقتل ابنتها أو تتخيل طفلة غير موجودة وقد يحدث أن ترى الطفلة على أنها أتت لتخنق ابنتها.

وجمت عالية قليلاً لتلمح من بعيد روضة ترنو إليهم في وجل وخجل، فبادرتها عالية بابتسامة خفيفة تطيب بها خاطرها.

* * *

سنوات عالية

.....

انه عصر الجمعة اعتادت عالية أن تجلس فيه مع مريم في شرفة شقتها الصغيرة التي استأجرتها بعد حادث انهيار دار المفتربات، تنتظر ضحى.
ما إن تطرق ضحى الباب حتى تهرع اليه مريم تفتح في لهفة وهي تصيح خالتي ضحى، تتعلق برقبتها بينما تلتف ذراعاً ضحى حول الصغيرة الجميلة.

تطل ضحى بعينيها السوداوين الساحرتين وبشرتها الخمرية المشعة
ببريق البهجة، وقامت الممشوقة الهيفاء
تقدم لها ضحى الحلوى وقالب الشيكولاتة، تبادلها بالسؤال عن
أخبارها ثم تسألها أين أمك ؟
فيتناهى إلى مسامع ضحى صوت عالية يأتيتها من الداخل أنا هنا ،
ادخلى.

تجدها بالمطبخ فتجهز معها المائدة ، تنتظر ضحى حتى يأتى يوم
الجمعة لتتناول معهما الطعام وقد تأتاهم و عالية قابضة خلف ماكينة
الخيطة ، فمئذ اتخذت عالية مشروع حياكة الملابس وقد ذاع صيتها
بالحن وبالأحياء المجاورة لمسكنها ، تعلمت المهنة على يد حسنية زوجة
عبد الظاهر.

لم تكتف عالية بالخياطة حتى اشترت ماكينة تريكو واخرى
للتطريز ، كان الدخل الذى صارت تتكسبه كبير وكاف لتعيش
هي وابنتها حياة كريمة.

فرغت عالية وضحى من تناول الطعام ، ضحكات ضحى وهى
تخبر عالية بأن معدتها صارت ممتلئة فمحشى ورق العنب وورقة اللحم
أغرقتها فالتهمت دون وعى كما أنها ضعفت أمام الحاح عالية التى
تمسك بكل قطعة وتضعها أمام ضحى قائلة هذه فقط.

كان الدور على ضحى لتعد الشاى وقد أحضرت بعضا من
الفطائر والكعك.

تتظر ضحى بساعتها فهما بانتظار ضيوف.

مريم: أيمكننى ان أخذ قطعة من الفطائر ؟

صاحت عالية: واحدة فقط فالضيوف لم يصلوا بعد.

- أمي ولكنهم دائما يتأخرون كل مرة يقولون سنأتى العصر ولا
يأتون الا بعد المغرب.

ضحكت ضحى

- لا عليك يا مريم خذى ماشئت من الفطائر والحلوى فقد
أحضرت الكثير، دعيها يا عالية.

أه يا ضحى، أنت دوماً تدللين مريم.

هه جرس الباب.

لا تنتظر مريم أن يطلب منها أحد فتح الباب فهي مهمتها المفضلة
تعرف أن كل واحدة من الضيوف قد أتت ومعها الحلوى والألعاب،
تستقبل عالية وضحى الضيفات

- حاجة أميمة اشتقت اليك، مرحبا ثريا، ها هى زيزى وروضة
ومن هناك أيضا؟ الحمد لله كل الجماعة قد أتوا دون أن يعتذر أحد
تعالت الضحكات وصيحات الترحيب.

تأخذ كل واحدة من السيدات مكانها على المقعد المفضل لها ،
البعض يفترش الأرض ليجلسن على السجادة وقد مدت كل واحدة
منهن ساقها فى راحة.

يتشمن رائحة الطعام والبطاطا المشوية تأثر أنوفهن

* * *

بعض البشر تذوب فيهم وكأنهم بعض روحك ، في برد الحياة
القارس يملئون قلبك دفاء
وكان أرواحهم خلقت لتدفئ أيامك ، تؤنسك في وحشة الحياة

* * *

ظلت لأميمة هيبتها ووقارها ، تتحدث فتصمت الحاضرات كما
كن يفعلن وهن بالدار
مكثت مريم الى جوارها في هذه المرة فمريم تنتظرها لتصفف لها
شعرها ضفيرة السنبله التى تجيد أميمة صنعها.
تضحك عالية آه يا حاجة أميمة فكلما حاولت ان أصفف لها
الضفيرة لا أعلم لم لا تعجبها ؟ ، تقول : خالتي أميمة تصنعها أفضل
منك ، دائما تقول أننى لا أضبطها
تضحك السيدات الجالسات وهن يقلن: فرق الخبرة.

ترنو زيزى الى مريم زافرة أنفاساً وهى تتمتم : ياه على العمر
كيف يمر، أتيت الينا بمريم وهى صغيرة محمولة على ذراعيك،
نشأت بيننا، كلنا اعتبرها ابنته، ظلت هي الضحكة التى تسعد
أيامنا ثم صمتت زيزى وهى تطأطئ رأسها فى مرارة مستأنفة عبارتها :
حتى كان ماكان.

بادرتها مريم جاذبة ذقتها نحوها.

— احك لي خالتي زيزى ما حدث بالدار فقد سمعت أمي تحكيه
لكن لم أفهم ولا أتذكر ما حدث.

زفرت زيزى أنفاسها: كنت أصغر من ذلك قليلا يا مريومة.
عادت بشريط الذكريات تتذكر اليوم الذى جاء المستثمر الذى
اشترى الأرض والمباني حول دار المغتريات، علا صوته من داخل
مكتب أميمة يتوعدها، فالمبنى الذى أقيم به الدار طمع به المستثمر
وقرر أن يخليه لكى ينشئ المول الذى أعده وشارك به كبار
المستثمرين.

كان العائق الوحيد أمامه هو بيت أميمة، ورثته عن أبيها ومنذ
توفى زوجها وقد اعتبرت الدار هي مكانها وملاذها الأمن، تأنس الى
السيدات وتعتبرهن أهلها، تعتبر الصغيرة منهن ابنتها وتعتبر الكبيرة
أختها.

عندما توعددها المستثمر بأن يهدم المبنى على رأسها وأنها إن لم تستسلم وتترك الدار وترضى بالمبلغ الذى يعرضه عليها كتعويض فستتدم.

كان الرجل مستندا على نفوذه وسلطته وثروته ، علاقاته بكبار المسؤولين ، كل ذلك جعله يهدد بقوة.

لم تستسلم أميمة ، صرخت بوجهه ، افعل ما بدى لك فهذا المكان هو بيتى ودارى ولن أتركه ولن أسمح بتشريد سيدات أصبحن أمانة برقبتى لن أتخلى عن الدار ولا عن المكان.

تستأنف زيزى حديثها قائلة : لن أنسى وجهه وهو يصرخ ، وجهه المقفهر ، وجنتيه المدججة باحمرار شديد ، أوداجه المنتفخة ، صورته وهو يدفع الباب ، لا يلتفت أمامه.

لم تمض أسابيع حتى استصدر أمرا بإزالة المبنى ، زور بالأوراق تمكن من استصدار أوراق تدعى أن حالة العقار سيئة وتوجب الإزالة.

لم تملك أميمة أن تصنع شيئا أمام كل هذا الظلم والجبروت فى اليوم الذى تم هدم المبنى به كان الجميع ينظر اليه عن بُعد ، يقف متفرسا رجالا يكسرون عقارا.

يتعامل كل منهم مع العقار على انه لبنات من حجارة بينما ترنو كل واحدة منهم الى البيت على أنه واحدة من الأمان وجدارا تستند اليه وركن ذكريات لا يمكن نسيانه.

كان البكاء ممزوجاً بعويل، بعضهن تجمدت العبرات في عيونهن، الفكرة المسيطرة على عقولهن ماذا سنفعل ؟ كيف سنكمل حياتنا ؟

ربتت أميمة على كتف زيزى مقاطعة : تعلمين يا ابنتي ان الله عنده التدبير فهو لا يترك عبده.

فما حدث بعد رحيلنا من الدار كان دليلاً على عوض الله فضحى تلك الفتاة الطيبة التي تجلس الى جوارك كان أول يوم لها بالمدينة، أتت للتدريس بالجامعة، فتاة جميلة صغيرة السن حديثة التخرج ولكنها الأولى على جامعتها، انتدبتها الجامعة للعمل بسلك التدريس، في ذلك اليوم كانت قد صادفت مرورها بالحى تبحث عن سكن بصورة مؤقتة، علمت بقصة الدار وقد كانت تعلم من قبل أنه أفضل مكان لتسكن به، صدمها وهالها ما حدث للدار.

ساعدت الجميع في حمل الحوائب التي خرجنا بها من الدار، دفعت للجميع مصاريف الإقامة بفندق لعدة ليال حتى نتمكن من تدبر أمرنا لفترة.

كانت ضحى تتدبر أمرنا مع خالها، طلبت منه أن تبيعه نصيبها من الأرض التي ورثتها عن أهلها، حصلت على الأموال واشترت بجزء منها منزلاً وطلبت منى أن أكمل به المسيرة التي ابتدأها.

استأنفت عالية: نعم حاجة أميمة ولكن ما حدث جعلنا نعيد النظر في حياتنا، جعلنا نفكر في أنه لا يجب أن نظل هكذا ريشة في مهب الريح، بحثت كل واحدة منا على ما تجد فيه قدراتها ومهاراتها لتكسب وتعيش، ساعدتني ضحى في إيجاد مسكن وماكينة خياطة، حاولت واجتهدت حتى عُرِفَت بين الناس.

منا من وجدت نفسها في صناعة الأطعمة واعداد الوجبات والحلويات فاتخذت حجرة من الدار الجديدة لتتطلق بها نحو سوق العمل ومنا من اتخذت من قدراتها على التعليم وتدريس المواد الدراسية للصغار.

عندما قررت ضحى أن تقيم حضانة صغيرة على طراز تحلم به استعانت بكل السيدات لتقوم كل واحدة بدور، حتى أنا كان عملي صناعة وحيافة زى الحضانة للأطفال فكانت صفقة مربحة بالنسبة لي.

لمعت عينا ضحى وهى تتذكر الأحداث فما عانته ليس قليلاً وقد كانت قصتها تثير الشجون.

تذكرت تلك الفترة التى قدمت بها للمدينة، فتاة في مقتبل العمر حديثة التخرج تطمح لمستقبل رائع، زهرة تتفتح على الحياة ترنو لمستقبل مبهج.

ظنوا أنها هي ملاذهم ومنقذهم بينما هي من وجدت فيهم طريقها
لنسيان ما عانت.

شابة صغيرة متفوقة ثرية فما الذى يمكن أن تعانيه أو يؤلمها ؟ لا
تعانى عوزا من مال ولا فقر، ساعدها تفوقها للتعيين بالجامعة.

لا بد أنها محظوظة بكل ما منحته الحياة من هبات، لكن يبدو
أن البعض قد ترى حياته من الخارج فتحسده أو تتمنى أن تكون
مكانه ثم ما تلبث أن تقترب منه لتتأمل حياته فتتألم لما يعانيه.

انزوت قليلاً فى ركن من الحجرة بمنأى عن العيون وعن جلستهم
الدافئة، أخبرتهم أنها ستحضر من المطبخ أطباقا وملاعق للتحلية

أرادت أن تختلى بنفسها فقد ذكرها حديثهم بكل ما واجهته
شردت في أيام مضت، فتاة نشأت بالاسكندرية، حياتها ميسورة،
فقدت والديها بعمر صغير اعتنى بها خالها وأخوها الأكبر، حُطبت
لجارها الذى أحبه كثيرا منذ الطفولة فقد كان أبوه صديق والدها
وتناديه عمى، كان أسعد أيامها ذلك اليوم الذى تمت به الخطبة فقد
انتظرا ذلك اليوم لسنوات، أتمت دراستها الجامعية وأصبح هو بوضع
أفضل في عمله، حافظ لها خالها وأخوها على ميراثها من والديها
أخبرها خطيبها يوما أنه يحتاج لمبلغ ليدخل بشراكة مع صديقه
وأن صفقة رابحة بانتظاره.

لم تتردد، أعطته كل ما طلبه من المال.

تكرر الأمر مرة ثانية وثالثة، اعتاد سحب المبالغ الطائلة منها
لم تكن تخبر أحدا بأنه يستنزف ثروتها، كانت لا ترى عيوبه
وكان الحب يعمى العيون، ثم أنها لم تتصور يوما أن حبيب العمر
يمكن أن يكون سبب تعاستها.

عانت بعض المتاعب، كان قد مضى شهور قليلة على تخرجها،
اصطحبتها زوجة أخيها للطبيب، فحصها، ارتابت لتعابير وجهه،
تشى ملامحه ونظراته بأن الأمر ليس على مايرام.
طلب بعض التحاليل والأشعة والفحوصات.
دراستها بكلية العلوم جعلتها تفهم جيدا مخاوفه.

– ورم خبيث ؟ كان سؤالها لطبيبها مفاجئاً، جعل زوجة أخيها
تشهق للخبر الذى صعقها.

دمعت عيناها وصوتها يتهدج بكلمات متقطعة : أنا مريضة
سرطان ؟ أخبرنى كم سأعيش ؟

خرجت من عيادته الى طبيب آخر وثانى وثالث فقد أصر أخوها
على أن يعرض الأمر على كبار الأطباء.

أكد الجميع اصابتها بسرطان.

استسلمت للحزن لأيام، ظل أخوها وزوجته الى جوارها، كانا
داعمين لها، بدأت رحلة العلاج.

ذات ليلة جلس اخوها حازم الى جوارها فور خروجها من العمليات
وبعد افاقتها من التخدير.

— أتذكرين يا ضحى عندما كان أبى يخبرك بأنه أسماك ضحى
ليكون لك نصيب من الاسم ؟

تذكرين عندما كان يقول يا بنتى تذكرى دوماً قوله تعالى
ولسوف يعطيك ربك فترضى.

هل نسيت يا ضحى وعد الله ؟ سوف يعطيك ، سوف يرضيك.
تساءلت عن مراد ، أول من كانت تظن أنه سيكون بجوارها بعد
الجراحة.

هرب حازم من سؤالها المتكرر عن مراد.
عندما خرجت من المستشفى بدأت بالخضوع للعلاج الكيميائى ،
كانت جلسات الكيمياء تحرق جسدها.

لكن هناك ما كان يحرق روحها أكثر من تلك الجلسات.
ففى ذلك اليوم دخلت عليها والدته مراد ، ظنت ضحى أنها جاءت
لزيارتها ، لمحت بحديثها رسائل كثيرة ،

— ضحى يا ابنتى أنا محرجة من الحديث اليك لكن الحق لا
يغضب ، ابنى شاب فى مقتبل عمره ، لن يستطيع أن يقضى حياته مع
زوجة يمرضها ، شعرك الذى تساقط وبشرك الذابلة ، تلك البقع

السوداء تحت عينيك، أنا أدعو لك بالشفاء، لكن أردت أن لا تتعلقى بأمل خادع.

صدمتها فيه لم تكن هينة، خسرت الكثير من المال.
مرت أسابيع كثيرة تحاول فيها الخروج من آلامها، تعلم جيداً أنها لم تخسر فقط حبيبها بل خسرت ثروتها وميراثها.
قبل أيام من علمها بمرضها كان قد احتال عليها ليجعلها تسحب آخر ملهم لها من البنك، شعر بالنصر وأنه قد حقق ما كان يطمح اليه فقد استولى على كل أموالها.

بكت وهى تخبر خالها وأخاها أنها خرجت خالية الوفاض وأنها أصبحت بلا أي أموال، تنهد خالها وهو يتبادل نظرات غير مفهومة مع أخيها.

جفلت عيناه وهو يضرب بيديه على الطاولة بجواره.

– أرايتَ يا حازم أنى كنت محق ؟

– نعم يا خالي فما توقعته أنت قد حدث بالضبط ولكن الحمد لله أن الله ألهمك ما فعلت.

عندها انتهت لحديثهما فتفرست ملامح خالها الصارمة بلحظات والحانية بلحظات أخرى.

– أخبرنى يا خالي ما تعنيه بكلامك، أخبرنى يا حازم ماذا يقصد خالنا ؟

– اسمعى يا ضحى خالى كان يعلم بحقيقة مراد.

كان يخبرنى دوماً أنه مرتاب فيه ولايثق به ، كان دوما يراه
ثعباناً ، استطاع ادراك أنه يحيك لعبته ليستولى على أموالك ولذلك
جعل الجزء الأكبر من ميراثك متجمد بصورة أرض وعقارات ولم
يخبرك حتى لا تخبرى هذا الجبان.

أخبر خالنا يوماً مراد بأن جميع مخصصاتك من الميراث قد نفذت
تماماً ، عندها ادرك مراد أنه قد استولى على كل ميراثك ولن تأتية
أي منفعة منك أبداً.

لم يرغب مراد في أن يضيع وقته بعد أن ظن أن ما حصل عليه من
أموالك هو كل ما تمتلكينه.

تملكتها الدهشة ، لا تدرى أتحنن لما حدث لها وما ألم بها أم تفرح
لأنها لم تفقد من ثروتها الا قشور.

– ماذا تعنى يا حازم ؟ أحقاً ما يقوله ياخالى ؟ أنا لم أفقد كل
مالى؟

– نعم حقا يا ضحى فما استولى عليه هذا النذل نذر ضئيل من
أموالك واعلمى يا حبية خالك انك عندما تطلبين ميراثك سأقدمه لك
في الحال لكن المهم الآن هو أن تعودى لحياتك ، وتعودى لضحككتك
فتحن جميعنا بحاجة لضحى التى تثير حياتنا.

قطع شرودها صوت الصديقات ينادينها وصوت عالية فقد تأخرت عليهن، مسحت دموعها لتعود إليهن تحمل الأطباق وقطع الحلوى الشرقية، ترنو اليهن بنظرات ود، تفر أنفاسها وهى تستعيد معهن مشاعر الأمان ودفء العائلة الذى أمدوها به على مدى عدة سنوات اعتبروا أنها أعطتهم بينما بالحقيقة هي شعرت أن ما أمدوها به أكثر وأعظم مما أعطتهم هي.

توطدت علاقة عالية بضحي بصورة أكبر من الباقين فقد وجدت بها شيئاً يشبه روحها، وقفت عالية الى جوارها في فترات انتكاستها المرضية، فمنذ أصرت ضحي على العمل بجامعة بعيدة عن مدينتها لتبتعد عن كل ماسبب آلاما لها، خشى أخوها أن تتعب وهى بعيدة عنهم، ولكن ما جعل أهلها يطمئنون ويهدأ بالهم وجود المخلصين الى جوارها مثل عالية، تصحبها عالية الى الجلسات، تمكث الى جوارها تخدمها وترعاها بعد الجلسة، تدعمها حتى تتعافى، تجد ضحي في مريم ابنة لها فهي تعلم أن فرصتها بالزواج وإنشاء أسرة فرصة ضعيفة فقد قلت لديها فرصة الانجاب، لظالما أحجم الكثير من الخاطبين وعدلوا عن رأيهم عندما علموا بأن فرصة الإنجاب لديها قليلة وذلك رغم تعافيتها من السرطان.

ربت مريم مع أمها فما أروع حظ الصغيرة التى لها أمان وليس واحدة.

تلك السنوات التى مضت حاول ضياء البحث عن عالية التى لم تترك خلفها سبيلاً واحداً ليسهل عليه ايجادها ، كانت تخشى إذا عرف أحدهم طريقها أن يكون مصير ابنتها يشبه مصير توأمها المخطوف الذى لا تعلم ان كان حياً أم ميتاً ، لطالما أرسلت من يبحث ويأتيها بأخبار عن عائلة ضياء وفريد لعله يعود بخبر يريح صدرها لطالما تساءلت صغيرتها عن أبيها فما كان من عالية الا أن تخبرها بأن أباهما تركهم لحياته المختلفة عنهم ولن تستطيع العودة اليه. صعب على طفلة صغيرة ان تفهم ذلك، تفتحت مداركها على أنها مختلفة عن باقى رفاقها الصغار اللذين تلعب معهم. أدركت منذ صغرها أن أسرتها صغيرة ليس لها إلا عالية وضحى، لا يوجد أب ولا جد ولا عم. ضحكاتها تأخذ بالألباب، ملاحه وجهها ورقتها وعذوبة كلماتها وخفة ظلها ، كل ذلك جعل الجميع يحبها. ماضى من سنوات كفاح عالية لتعيش حياة جيدة هي وابنتها بذلت كل جهدها لتحقيق حياة طيبة. يومها مترع بأعمال كثيرة ، فمنذ شجعتهما ضحى على اتمام دراستها الجامعية وجدت عالية ضالتها في الدراسة ، شعرت أن شيئاً ما فقدته ثم أصبح بيديها ، أقبلت على دراستها لتُعوّضَ ما مضى من العمر،

أنا وأبى

.....

رغم ما مر من زمن على حادث السيارة لكن العلاقة بين ضياء وأبيه كانت تسوء أكثر فأكثر وكأنما كانت هناك نيران تحت رماد الزمن وأظهرتها تلك الحادثة.

في ذلك اليوم عندما مالت الشمس للمغيب لتبتعد عن صفحة الكون تتسلل في هدوء، تسحب معها أشعتها الذهبية لتسمح بعودة الليل يأخذ مكانه من الأفق ويسدل غلائله كان الجميع في القصر يحكى عن ليلة الأمس بما فيها فقد تجاوز الصراخ بين ضياء وأبيه كل الحدود.

هدده فريد بأن يحرمه من الثروة، أخبره أنه لن يسمح له بإكمال أي مشروعات تجمعهما.

تصاعدت نغمة التهديدات من قبل ضياء فهو أيضا يهدد بأن يستقل بعمله بعيداً عن أبيه.

عندما دخل ضياء في هذه اللية على هند لم يكن ككل يوم، فعلى غير عادته أقبل يحكيها ويبثها أحداث النهار المنصرم، بدى عليه كما لو كان متعطشاً لمن يسمعه.

لم ينتظر سؤالا المعتاد ماذا فعلت الليلة مع أبيك ؟ لم ينتظر تحقيقاتها حول سير العمل ولا فضولها لمعرفة كيف كان اليوم.

بادرها يحكى، ما إن إتخذ مقعده قبالتها إلى جوار مصباح خافت
يلقى بضوء شحيح على الطاولة المجاورة وبضوء أشد شحاً على
ذكرياته يستخرج من قبوها المظلم جراحاً ظن يوماً أنها قد اندملت
حتى بدأ يزفر أنفاساً يتهددها مرتعاً بنيران لم يكن يبيدها من قبل.
أعدت هند له القهوة فماكاد يمسك بها يرتشف أول الرشقات
حتى استطرد.

— لم أكن ذلك الطفل المترف السعيد. لم يعاملنى أبداً كما
يعامل الأب ابنه، أعلمين ؟ كنت متأخراً بالنطق وعندما بدأت بالنطق
كان التلعثم يطفئ على كلماتي، طفل غير ذكي قدراتي العقلية
قليلة لست الطفل اللامع، الأطفال يضحكون ويسخرون بمجرد نطق
كلمة لي.

المعلمات كنّ يخبرن أمي بأننى طفل ضعيف التعلم، أبى يقارن
دوماً بيني وبين باقي الصغار في العائلة.

دوماً يخبرني بأنهم أذكى وأفضل، لطالما سمعته يتشاجر مع أمي،
يُقرعُها بأنها لم تتجب ولداً يفتخر به بل أنجبت الطفل الأغبي.
كنت أحاول طوال الوقت أن أجعله يحبني.

أراه يحمل أختي ويلثمها لا يكف عن تدليلها بينما يوبخني، يرمى
على كل ألوان اللوم لا يناديني إلا بالغبي المتخلف، المرات التي ابتسم
لي فيها قليلة.

رسبتُ مرات ومرات، لم تجعلنى ثروته متفوقاً، لم تجعلنى محبوباً.

عشت منبوذاً.

لكننى أيقنت أنى لست الأغبى بل أنا أشبهه، تاجر ومستثمر بارع أثبتُ له أنه يمكن أن يعتمد على.

أنا رائع يا هند فى التجارة واستغلال الفرص، أدهشته فى الصفقات التى جعلته يربح بها الملايين ثم المليارات.

لم اختر لنفسى شيئاً، هو دوما يختار لى.

لم أنتقم منه رغم أنه كان السبب فيما أصاب ذراعى.

استدرك وهو ينظر لذرعه اليسرى التى تتحرك بصعوبة، أقصر من اليمنى.

لأول مرة يتأمل العيب فى ذراعه لقد كان يتجاهلها.

هو السبب ياهند، ذات مرة كنا نلعب أنا ونور تشاجرنا كما يتشاجر الصغار.

صرخت نور، هرع إلينا ليخطفها من أمامى أقبلت نحوه أخبره أنى

لم أسئ لنور، لم ينصت إلى، ألقى بي بعيداً، وقعت على رقبتى.

تأثر أحد الأعصاب ليؤثر على حركة الذراع.

كرهت نور لفترة لكن لا لا لم أكرهها، هي أختي أحبها،

أحبها أكثر منه.

أحببتها لأنها كانت تعطف على، حاولت كثيراً تعويضى عن قسوة أبى.

أنا كنت أحب نور أحبها ياهند، نور كانت البقعة المضيئة بحياتى كلها.

قطع ذلك الشجون صوت هاتفه، تناوله بلهفة، تتحى بعيداً نحو الشرفة، بصوت هامس أجاب نعم يا خالد، لم تعرف أي معلومات حتى الآن ؟ حاول أن تأتى بالأخبار أنا معتمد عليك.

لاحظت هند محاولته اخفاء هوية المتحدث وطبيعة المكالمة منذ أتى خالد كموظف جديد أصبح الذراع الأيمن لضياء وكاتم أسرار.

لا يعلم أحد ما يدور بينهما.

أمر طبيعي بالنسبة لها اعتادت تعامله مع مساعديه كبئر أسرار طرقت الباب نعمة تحمل فنجاناً آخر من القهوة.

تناولتها هند بلهفة، غمزت لها باستحسان.

انصرفت.

— من الواضح أن خادمك الجديدة لاقت استحسانك، أصبحت أقرب الناس إليك.

ضحكت هند، تجيبه : نعم وأدمنتُ قهوتها كما أدمنتُها أنت أيضاً.

- ويحك لقد صرت أحتسى أكثر من ست مرات قهوة باليوم،
لم أعد أنم وصار الأرق رفيقى.

* * *

مضت شهور تسوء فيها العلاقة بين ضياء ووالده.
حاولت والدته أن تصلح العلاقة بينهما لكن دون جدوى، كان
الحدث الفاصل في ذلك اليوم الذي علم فيه ضياء أن والده قد استولى
على صفقة كان من المفترض أنهما شركاء بها.
استبعده والده تماما منها.
استشاط ضياء غضبا.

تحول إلى بركان ثائر لا يخمد، هشم ودمر كل ما طالت يده
كان ملتزماً بقروض وكان في حساباته أن يقوم بسدادها من
أرباح الصفقة.

يجمعهما قصر فسيح لا يتحدث أي منهما للآخر لا تجمعهما
مائدة، يتحاشى كل منهما أن يلقي الآخر.
رغم ما مضى من شهور إلا أن محادثات سرية تسفر عن أن البحث
الذي يجريه خالد يسفر عن لاشيء.
ودت هند لو تعرف ما يدور بين ضياء وخالد أرادت أن تسبر غورهما
فتكشف ما يخفيه ضياء.

لكن لا بأس سأعرف ما أود أن أعرفه، لن يطول ماتخفيه يا ضياء
كان هذا ما تهدئ به هند روع نفسها.

* * *

في الساعة الخامسة هرعت هند تدلف إلى سيارتها، رفضت أن
يصحبها السائق.

كعادتها لاتخبر أحداً عن وجهتها، ترتدي نظارة شمسية كبيرة
غامقة اللون.

— دكتور من فضلك يجب أن تجد لي موعداً اليوم.

— أنا في انتظارك.

— عفا دكتور هل العيادة مزدحمة ؟ أعنى أنك تعلم أنى لا أود أن
يعلم أحد بترددى عليك.

— لا تقلقي فبمجرد وصولك ستسمح لك المساعدة بالدخول عندي
دون أن تنتظري بصالة الانتظار.

— أشكرك.

مجرد إنهاؤها المكالمة أغلقت هاتفها.

— أهلا سيدة هند، ظننت أنك لن تأتى ثانية فمئذ شهور لم أرك
من آخر زيارة.

— نعم يا دكتور أنا أيضا ظننت أنى لن أقترب من عيادتك مرة
أخرى، كنت قاسياً معي بآخر جلسة، وبختتى، قلت أنى مجرمة

ولست مجرد مريضة نفسية، أعلم أنى أقدمت على الانتحار؟ نعم أنا شارفت على الموت.

لكن أنا لا يمكن أن أموت وأترك مسؤولياتى.
استطردت، يختلط كلامها بالنشيج المكتوم: أنت تعلم جيداً ما يجب على أن أفعله.

أخبرتك أن منار كانت أهم صديقاتى، صديقة عمري وأختى لم يكن هناك أعز منها على قلبي.

منذ كنا صغاراً درجنا في صبانا وشبابنا سوياً.

جمعتنا الآمال والأحلام، تفتح عمرنا سوياً، حتى انجرفت وقتها للإدمان، كنت صغيرة حينئذ ولم يفلح أحد في انقاذى أو تخليصى من براثن المخدرات، سحبتها معي لذلك الطريق المدمر.

استجابت، دمرتها معي، نعم أنا التى استدرجتها لذلك الطريق، لم أكن قاصدة تدميرها، كنا نتعاطى سوياً.

غفل عني والدي فقد كانت رحلاتهما للعمل خارج البلاد تتجاوز الشهور وعندما يعودا كان ههما حفلات الاستقبال والسهرات والمدعوين.

كل ههم ماذا أرتدى، أناقتى ومظهري أمام الأصدقاء.

في تلك المرة غاب والدي ووالدتي لفترة أطول من كل مرة فقد كانت الصفقات أكبر وكان أبى يؤسس شركات ومصانع في دول كثيرة ويجرى أهم الاستثمارات.

معه أمي فقد كانت تذهب للإستمتاع بحياتها.

لم تكن تتحمل أن تظل في مصر أو إلى جوارى فهي تمل ولا صبر لها ولا تتحمل دور الأم فهو دور غريب عليها.

— مدام هند أنت في كل مرة تروى لي نفس القصة فهل هناك جديد؟

— نعم دكتور ماجد أخبرتك القصة ، أعلم لكن هل أخبرتك ذات مرة أن المرة التي توفيت فيها منار بسبب جرعة زائدة من المخدر ولفظت أنفاسها أمام عيني هل أخبرتك أنى لا زلت أستشعر المראה ؟ هل أخبرتك أن صوتها لازال في أذنى ؟ هل أخبرتك أن طفلها الذي أوصتني به لا نعلم أين فر أبوه هارباً ؟ هل أخبرتك أن أهلها لا يعلمون شيئاً عن الطفل ؟ وأنه بعد مضي فترة على موتها رفض أهلها استلام الصغير أو معرفته.

أتعلم أنى كلما ذهبت للطفل وضممته يسألني عن أمه ؟ دائماً أخبره أنى خالته ولا أحد لنا وأنه منذ توفيت والدته وأنا أقوم بدورها. في كل مرة تكون الحقيقة على لسانى ولكن أراجع.

كنت سأتورط في مصيبة موت منار ، أنقذني منها أبي بدى دوره يومها كأب ، أخرجني من تلك الورطة ، يومها استطاع اثبات أنى لم أكن متواجدة في نفس الشقة التي كنا نتعاطى فيها مع أصدقائنا.

يومها ، يومها فقط انتبه أبى أنى مدمنة.

خضعتُ للعلاج بالمصحة ، تعرفت عليك هناك حين كنت تتولى
علاجى ، وهناك أيضاً أخبرتك بسر منار وسر ابنها وطلبتُ منك أن
ترعاه حتى أخرج. فضلك على كبير ، عالجتنى وحفظت سرى.

– عالجتك ؟ أشك ، عالجتك من الإدمان لكن مشاكلك النفسية
فشلتُ في علاجها

– يكفى أنك ساعدتنى ، كنتَ أنت من ترعى الطفل حتى
خرجت ، لا أحد يعلم شيئاً عنه ولكنى أشعر كما لو كان ابني ،
تمنيت أن أكون أمه حقاً.

أمرك غريب ياهند دائماً أتحير في حالك أقف مشدوهاً فلا أعلم
أنت صورة للخير أم للشر ؟ أنت ضحية أم جاني ؟ تعيشين حياتك لأجل
وليد بينما تسمحين لنفسك بقتل ابن عالية بل والتخلص منها.

انتفضت هند من الأريكة. كانت كمن لدغه عقرب ، علا صوتها
لا لا أنا تضررت من زواجى بضياء ، هو تزوج بعالية ، لم أكن أود أن
أجهضها ولا قتل طفلها ، أقسم لك ، فقط وددت لو تخرج من حياته.
أنا ظلمت بزيجتى هذه من ضياء.

سأخبرك بسر.

عندما أنهيت دراستى الثانوية ، كنت فتاة جذابة ذكية ، أعيش
مع جدتى شهوراً حتى يعود والدي ووالدتي.

كنت سوية ، لطيفة ، هادئة ، استمتعتُ بحياتي ببيت جدتي
كنت أعود إليها من المدرسة في غاية السعادة أتسم رائحة طعامها
الساخن يفوح عبر الهواء يخترق قلبي قبل أنفى ، تتسلل رائحته الى
حواسي قبل أن أدلف للبيت ، وصوتها يتهادى الى أذنى عبر الشرفة
تناديني.

كانت حنونة ، طيبة ، عوضتني عن حنان أبي وأمي.
تروى لي كل يوم حكاياتها ، لا تكف عن الحكى والضحك ،
أنسى معها وحشة الحياة ، كانت هي كل أهلي وكل حياتي.
أجلس إلى جوارها في وقت العصر أتكى على نفس الأريكة إلى
جوار الشرفة ' يتسلل عبرها ضوء هادئ حينما تشرف الشمس على
الرحيل ، تكون قد جهزت كعكاً وشاي بالنعناع وتارة بطاطا مشوية
أجلس ملاصقة لها أستمتع برائحتها ، استسلم ليديها تدلننى وترتب
شعري ، تصففه ، تصنع جديلة طويلة.

وتارة تشغل بصنع مفرش من الكروشيه بألوان الخيوط ، حياتي
معها جميلة ، لم يكن أبى ابناً باراً بها. كانت أُمي تكرها وكانت
تسى إليها.

بن عمتي كان يحبني ، تمنى الزواج منى ، لطالما أخبرتني جدتي
أنها ستجعل أبى يوافق على خطبتي منه ، فاتح جدتي.

لطالما تساءلت لماذا تعيش جدتي حياة بسيطة بينما أبى واحد من
الأثرياء ؟

بيتها في حي شعبي، شرفة المنزل متشققة الجدران، بعض
التشققات في حجرة المعيشة، أثاث البيت بسيط.
تسلل صوت أبى ذات مرة يعاتبها على أنها لاتقبل منه أي مال،
ترفض مساعداته ' تعتمد على ذلك المعاش الذي تتقاضاه بعد وفاة
جدى.

استرقتُ السمع ذات مرة لعلى أجد إجابة عن سؤالى، علا صوتها
عليه، وجدتها تشيح بوجهها عنه، لازلت أذكر حديثها له توبخه،
تقول : أظن أنى ذات يوم سأقبل مالك الحرام ؟ لقد مات أبوك وهو
غير راض عنك ويبدو أنى سأموت أنا أيضا غاضبة عليك.

ثروتك التي تكسبتها من أعمالك غير النظيفة مال حرام لن أربى
ابنتك منه، أختك التي قاطعتها ولا تزورها لفقرها لن أسامحك على
صنيعك معها أنت ولد عاق وقاطع لرحمه.

ذات مرة جلست إلى أمي، سألتها عن موقف جدتي فأخبرتني أن
جدتي وعمتي يحبان الفقر.

عندما تقدم ابن عمتي لخطبتي وتوسطت جدتي لفتاح أبى بشأنه
لعله يوافق رفض رفضاً قاطعاً وأخذنى من بيت جدتي وأودعنى بقصر
عشت فيه مع خادمات.

عندما توفيت جدتي كانت قد طلبت رؤيته لكنه رفض، ورفض أن أزورها.

انسابت العبرات من هند باكية بكاء هستيري، انقطع صوتها وهى تروى له كيف كانت تتمنى أن ترى جدتها قبل الوفاة.

ربما كان دخولها في أزمة وفاة الجدة ورفض ابن العمه وغياب الوالدين والوحدة كان ذلك كله سبب دخولها في الإدمان والحياة غير السوية.

لم يكن رفض الأب لابن عمته المحب رفضاً عادياً، لقد أهانه ووبخه، أساء إليه إليه وتدخل ليفصل الشاب من عمله ويرسل به الى مدينة بعيدة.

شردت هند في تلك الأيام التي تقدم فيها ضياء من بين المتقدمين، أثرياء وأبناء رجال الأعمال ورجال المجتمع.

- أمر طبيعي ومتوقع، غنى يتقدم لخطبة غنية، مشروعات مشتركة، ثروات تتشارك وصفقات تتم.

بدى الأمر جلياً فوالد ضياء يختار له هند التي تضمن لهم الصفقات والمصالح المشتركة والوالدى يفعل ذلك.

حاولت أن أجبر نفسي على الرضا، استسلاماً للامر الواقع.
لا أستطيع أن أصف لك شعورى عند خطبتى لضياء، لم أكن سعيدة ولم أكن متدمرة.

لا أشعر بشيء.

لم يكن لدى طموح أي فتاة من أترابى ورفيقاتى بارتداء ثوب العرس الأبيض ولا أن يكون لدى بيت خاص بي.

لم أشعر بما كانت تحدثنى به الصديقات بالبهجة، بتسارع دقات القلب، باللهفة على تجهيز بيت العرس
لم أشعر بشيء من كل ذلك.

كانت مقابلاتى لضيء وزياراته لنا رسمية جدا، أدرك جيدا أن ما جمعتنى به هي المصالح والثروة، لا يحببنى ولا يبدي حتى أنه يرغب بالزواج منى.

عرفت يوما من نور أخته أنه هو أيضا قد أجبر على تلك الزيجة وأنه لا يحببنى ولا حتى يشعر أنى أنا التي يصبو إلى الزواج منها.
هكذا أخبرتنى نور، وقعت بلسانها دون أن تقصد.

حاولت نور أن تقرب بيننا، سارت الحياة روتينية مملة لا لون لها ولا طعم.

لم أحاول أنا أيضا أن أحسن العلاقة بيني وبين ضياء، لكن، لكن استطردت قائلة : لكن لا أدري لماذا كانت تتملكنى الغيرة كلما علمت بعلاقته بغيرى ؟ لا أعرف.

قاطعها ماجد : أيهمك أن تعرفى السبب ؟

– أحيانا أود تفسير هذا الشعور.

– أعتقد أن سبب حنقك ربما ليس غيرةً عليه ولا حب له ولكن لأنك كنت تشعرين بجرح لكرامتك وكبرياءك وكأن أحدا اعتدى على ممتلكاتك.

– لكن أنا أحيانا أخاف على ضياء، أحزن لحزنه، أحيانا أشتاق إليه، أفتقده، أشعر أنى أتمنى لو كانت علاقتنا أفضل مما هي عليه. تمنيت لو تعارفنا في ظروف غير الظروف وفي عائلات غير عائلاتنا ذات مرة مرض ضياء وشك الطبيب بورم سرطاني وأخذت له العينة، بكيت، حزنت، خفت عليه، تذكرت له كل كلمة حلوة وكل نظرة وكل ابتسامة.

دعوت الله كثيرا، صليت الليل كله.

كنت أقترّب من فراشه أحيطه بذراعى أغمره بنظراتي، جافى الوسن عيناى، تقرح جفنى من بكائى طوال الليل، لم أطمئن ولم يهدأ لي بال حتى تحسن واطمئنتنا وأجريت الجراحة وأخبرنا الأطباء أنه في حالة جيدة.

كم من المرات التي وددت لو صارحته ب أمر وليد، وددت لو أخذته للقصر لأربيه مع ضياء بدلاً من تسلى إليه كاللصوص، كان سيحبه فضياء حنون مع الصفار.

كلما جاءت خادمة للعمل لدينا كان ضياء يحسن إليها ويكرمها ويكرم صغارها إذا علم أن لديها أطفال، كم من المرات التي لمحتة فيها ناسياً نفسه، يتصرف بطبيعته يلهو ويلعب مع أبناء الخادومات ويغدق عليهم من العطف والحنان، يضحك كما لم أره يفعل في غير تلك الاوقات، يضحك حتى يبكيه الضحك.

عندما أكون إلى جواره بالسيارة ويمر طفل بائع أو ماسح للسيارة كان ضياء يمازح الصغير ويلطفه ويغدق عليه بالمال.

اعتدلت في جلستها وتغيرت لهجتها تمد يدها لتحمل حقيبتها، تجفف عبراتها بظهر يديها قائلة دكتور ماجد لست بحاجة لتذكيرك بأنه لا يجب أن يعلم أحد بترددى عليك ولا بأي شيء من حياتي. طأطا رأسه إيجاباً ملوحاً بيديه شرفت يا هند أنا في خدمتك في أى وقت.

حيته وانصرفت.

* * *

حياة جديدة بالقصر

.....

في صباح يوم جديد كانت الشمس قد ملأت بأشعتها الذهبية صفحة السماء، داعبت زجاج الشرفات لتوقظ أهل القصر.

بدى ضياءً نشيطاً مشرق الوجه، طلب القهوة مسرعاً، ارتشفها،
قبل أن يزرد باقي قدحه كان خالد قد استأذن للدخول على ضياء
ظهر على ضياء أنه منتظر لخالد في لهفة لما لديه من خبر.
أشار إلى خالد ليجلس قبالة.
تأكد من اغلاق الباب، ثم انصرف الخادمة بعدما قدمت
ضيافته.

أشاح إليها لتسرع بمغادرة غرفة المكتب.
شرعاً يتحدثان بصوت خافت.

— هل من أخبار يا خالد

طأطأ خالد رأسه في امتعاض، للأسف ياسيدى فكل ما علمته أن
السيدة عالية بعد إنجابها طفلين قد عملت بمتجر ثم غادرت، وأنها
غادرت المدينة ولا أحد يعرف مكانها.
أخبرتني جارتها أنها تعرضت لحادث بل لأكثر من حادث وأنها
فقدت ابنها.

— فقدته ؟ كيف ؟ كيف يا خالد ؟ أكان لي ولد وضاع ؟
انتفخت أوداجه واحمرت عيناه كأن شرراً قد تطاير منهما
انتفض من مقعده كالمسوس.

يزفر أنفاسه عالية متلاحقة، طرق بيمينه مكتبه طرقات عديدة،
يستدعى الكلام من على لسان خالد.

- كيف ضاع ولدى وما ذا حدث لعالية وولدها ؟ ، لقد طلقتهما غيايبا ، هي علمت بأنى تخلت عنها .

أنا الجانى وأنا الذى أضعت ولدى وابنتي وزوجتى ، يجب أن أجدها ، ابحث عنها في كل مكان .

صمت خالد هنيهة ليكمل حديثه في موضوع آخر أتى لأجله وهو بشأن الصفقات والعمل فأخذ يتحدث لكن ضياء بدى منهمكا بالتفكير في مشكلته الأولى .

شرد ذهنه بعالية ، وصغيريه بينما كان خالد يخبره بأن الوالد قد أحكم سيطرته على بعض المستثمرين وأن عليه أن يجد سوفاً جديدة لينتشروا بها لتعويض الخسائر .

شرد ضياء دون أن ينتبه لكلمة من تلك الكلمات التى خرجت من خالد .

اعتصره ألم يمزق أحشاءه ، يدمى قلبه ، ربما شعور بندم وحسرة ، يتساءل ماذا فعلت في نفسي ؟ مالذى جررته على تلك المسكينة ؟ رزقت منها بطفلين وأضعتهما وها أنا خسرت ذرية صرت محروماً منها . تتوق نفسي وروحي لأن يكون لي طفل يناديني أبى ، يدرج في الصبى أمامى ، أعوضه ما حرمت منه ، أحنو عليه ، انصعت خلف هند وأوامرها وتسلطها ، لم أكن أتصور أن أجنى على نفسي بهذا الشكل ، فرطت في الشيء الوحيد الذي اخترته بإرادتى ، لم أترك الفتاة تعيش حياتها في سلام ولم أستطع حمايتها .

تتهدد بعمق زفرة خرجت ساخنة، تسوره شك في هند، يمكن فعلا
أن تكون هند خلف اختفاء عالية.

أكون هددتها أو تسببت في أذى لها ؟ لا أظن أنها ستعترف حين
أواجهها فلن تجدى معها أي محاولة لتعترف

رجفة هزت جسده فسرى به خدر تسلل إلى كل أوصاله، شعر
ببرودة تتبعث من داخله، أشعل مدفأته تسمر أمامها، زاد إصطكاك
أسنانه، أفلتت عيناه دمعاً سخياً لم يخبره منذ سنوات طوال.

مايشعر به الآن لم يشعر به من قبل.

أدرك أن ذلك النوع من البرودة لن يجدى معه كل المدافئ، شيء
ما بداخله يجعله بارد من الأعماق.

ما أشد أن تجمع بين نيران روحك المحترقة وثلوج وحدتك

لم يشعر بخالد يستأذنه للإنصراف.

تلك الأيام التي مضت عاشها ضياء يتأمل حاله، يعاتب نفسه،

يشعر بالذنب، حديثه مع الناس شحيح، لا يتحدث إلا نادرا.

تمضى الأيام وعيناه كلما تقابلت مع عيني هند حمل لها ألف

سؤال لا يجد له جواب.

تحير في أمر أبيه، تكالبت عليه الهموم كجبال رواس، كان

أقلها تلك الحالة السيئة التي وصلت لها شركاته.

ما إن رن هاتف هند أثناء جلوسها بحديقة القصر حتى انتبهت
مسرعة فالمكالمة من والدها.

– هند ما أخبار الشركة أعلمت أن أكثر الصفقات ستصير إلى
فريد ؟ يجب أن نستغل الموقف جيدا لصالحنا فضيء الآن سيضطر
لمشاركتنا في كل الصفقات التي كان سيستأثر بها لنفسه، هي
فرصتنا العظيمة.

نعم يا أبى أعلم، لا تقلق فقد اتفقت مع ضياء وأتممت العقود
الخاصة بآخر عملية استيراد، لقد أصبحت شريكة له في أغلب
المشروعات، لا تقلق قد أخذت كافة احتياطاتي.

فاجأها بضحكة عالية، صدمت مسامعها.

لم يكف عن الضحك حتى قطع الضحكة بقوله صرت تشبيهن
أباك يا حبيبة أبيك.

زفرت هند أنفاساً تَمَتَّت معها بكلمات خافضة صوتها بسخرية،
حقاً يا أبى صرت أشبهك، لكن لا أعلم متى صرت أشبهك إلى هذا
الحد.

* * *

استيقظ ضياء وهند على صوت الخادمة تدعوها لمائدة الإفطار،
انتابتهما الدهشة فمنذ شهور وفريد لا يجتمع بعائلته على مائدة واحدة
هرعا إلى حجرة المائدة.

الطعام معد بعناية ، تراصت اطباق لم تكن متواجدة منذ سنوات
بدى الاهتمام جليا بالاجتماع في ذلك اليوم.

استفتح فريد الحديث والجميع ملتف حول الطعام كل شخص
ينتظر من سيبادر بالحديث ، إلى أن بادرهم فريد بالحديث فما لبث أن
بدأ كلماته حتى ترك الجميع أطباقهم وأقداح القهوة جانبا منتبهين
لهم فريد تشوقاً لما سيصدر عنه.

– تعلمون ما تعرضت له شركاتنا ومصانعنا بالآونة الأخيرة ،
وتعلمون أيضاً أن جزء كبير من أعمالنا قد انفصل حيث استقل ضياء
بجزء كبير من الصفقات.

قاطعته ضياء ، لم أكن في خيرة لأفعل ذلك لكن أجبرتني على
ذلك.

قبل أن يستأنف ضياء حديثه قاطعه فريد ' ليس هذا موضوعنا
لقد أصبح هناك شريك لنا في كل الصفقات وكل الأعمال ونحن
مضطرون لقبول الشراكة.

– من ؟ أهو مستثمر عربي أم رجل أعمال أعرفه أم ؟
لم يكمل ضياء العبارة حتى رن جرس الباب فاندفعت الخادمة
تفتح الباب.

بدى على فريد أنه ينتظر ضيفاً وأنه يعرف هوية الزائر.

ألقى محمود التحية، صافحه فريد.

اضطرب ضياء وهو يلتفت إلى أمه تارة وإلى هند تارة، أذهلته المفاجأة، لقد نسى عائلة طارق ونسى محمود، فمنذ فترة طويلة قد علم أن محمود يرفض أن يكمل أعمال أخيه، فما الذى تغير؟ على كل حال فعليه أن يتقبل متغيرات العمل والسوق العالمى ثم إنه لم يكن هناك أي مشكلات أو خلافات بينه وبين محمود ولم يحتك به من قبل.

منذ معرفتهم بعائلة طارق ومحمود كان مسافراً بالولايات المتحدة الأمريكية لم يجتمعوا به إلا مرات قليلة، درس الدكتوراه وعمل بالجامعة يدرس الاقتصاد.

تعلقت أنظار الجميع بمحمود حتى دخل المكتب بصحبة فريد، يشبه طارق إلى حد كبير، وسيم، نفس طول القامة ولياقة طارق وجاذبية العينين الملونتين، انحسر شعر رأسه قليلاً عن الجانبين، نظارته الأنيقة وعطره الفرنسى الأنيق وملابسه المواكبة لأحدث صيحة كل ذلك ملفت للانتباه.

خفضوا أصواتهم يتهيئون للترحيب بالضيف.

لم يتحدث ضياء طوال الجلسة، اكتفى بمتابعة أبيه يبرم الاتفاقات، حانت من محمود التفاتة إلى ضياء، وجده يحملق فيه

بتركيز شديد ، يتفرسه وكأنما يحاول إيجاد الفروق بينه وبين أخيه طارق، رغم أن الفروق واضحة.

رن هاتف محمود لمرات حاول جعل الهاتف صامتا ثم استأذن للرد.
رد بصوت خافت غير مسموع.

نعم، فعلاً، حدث، اطمئنى، تم كل ما اتفقنا عليه، لا داع للقلق
فالأمر على ما يرام.

عاد محمود أدراجه يوقع على أوراق الاتفاقات والعقود التي أسفرت
على أن محمود أصبح شريكا بستين بالمائة من الشركات والمصانع،
كما أنه تعهد بسداد جميع الديون والقروض والالتزامات بدلاً من
ضياء وفريد.

لم يكن هناك بديل ولا حل آخر فلولا هذا الحل لأفلس ضياء
وفريد وذلك لأن الآونة الأخيرة جعلت موقف فريد وشركاته سيئاً
جداً.

أثار الأمر قلق هند فذلك سيقوض سلطتها في الشركات وهى
التي تعشمت أن تكون شريكة في كل الأرباح، أم أن عليها أن
ترضى بالأسهم التي صارت لها خلال الأيام الماضية. وهى التي ظنت أن
خيوط اللعبة صارت لها.

مضت الشهور التالية للاتفاق مستقرة فلا جديد يحدث في بيت
فريد،

كل فرد في قصر فريد يتعامل مع الآخر وفي نفسه أشياء كثيرة
لا يبيدها،

عودة

.....

في الفترة التي أصبح فيها محمود على مقربة من عائلة فريد كثيرا
ما تتبادر أسئلة لمحمود عن حياته.

هل أنت متزوج ؟ وأحوال أسرتك، لديك أطفال ؟

كثيرا ما يجيبهم بابتسامة تخفى خلفها الكثير من الإجابات
بدى لهم انه شاب يعيش حياته كما يريد ، لا يود أن يربط نفسه
بقيود الزواج والأسرة والأولاد.

تداعبه أم ضياء بمزحة خفيفة حينما تقول والله يا محمود لو
تركنتي اختر لك عروس فسوف اختر لك أجمل فتيات البلد ، عندي
البيضاء والسمرء والخمرية وعندي الطويلة والقصيرة والممتلئة والعود
الفرنسي.

تضحك ضحكة مأكرة وهي تطأطي رأسها نحوه هامسة في أذنه
يبدو أن في القلب هناك واحدة تشغله ولا تدع فرصة لاي واحدة غيرها
يضحك قائلا لا لا ولا واحدة ولا اثنتان.

كلماته قليلة ، ترتسم على وجهه ابتسامة هادئة مهما حدث من
توتر للأجواء حوله ، تدور عيناه تتفرس الوجوه والأماكن ، ذاع صيته
بأنه خَلَفَ لأخيه في المهارة والحنكة التجارية والاستثمارية.

عندا يتحدث تلمح في لهجته كثيرا من الاطراء اللطيف
والمجاملات الودودة الذكية ،

يأسر بحديثه كل الحاضرين ، تمكن في فترة وجيزة أن يكسب
حب وثقة عائلة فريد بأسرها.

في السنوات التالية التي مضت أصبح محمود مسيطرأً على النسبة
الأكبر من الشركات وآلت إليه أغلب الاستثمارات وتقوضت خلالها
سلطات ضياء وأبيه.

اعتلت صحة ضياء بعدما زار أشهر الأطباء ولا أحد يعرف سبب
مرضه ، القلب معتل وقدراته العضلية تتضاءل ، أصبح قليل الحركة
زاد من انكساره شعور هند باعتلال زوجها وانه أصبح لا كلمة له
تُسمع ولا رأى ولا مشورة.

مضت سنوات

.....

طالت الفترات التي تتغيب فيها هند عن المنزل لتكون بصحبة
وليد ، كبر قليلاً أصبح صبياً جميلاً يخطو نحو الشباب أعوام عمره

تتفتح للصبى، تجلس هند إلى جواره وهو يستذكر دروسه، تنفرس ملامح وجهه، يشبه أمه والغريب أنه صار يشبهها هي ذاتها. أصبح ضياء دائم التوتر، شديد العصبية، يراقب ثروته التي تتضاءل وصحته التي تتدهور وسلطاته التي تقوض. صار يستيقظ في كل صباح يسأل عن هند أين ذهبت؟ يلح على خادمتها في السؤال فتأتيه بقهوته يحتسيها وهي تلقى على مسامعه أنها خرجت للتسوق ومقابلة رفيقاتها وزيارة أهلها يستشيط غضباً عندما يطلب هند عبر الهاتف فلا تجيب ثم تخبره أنها كانت مشغولة. لا أحد في هذا القصر الضخم يسأل عنه أو يعبأ به، لا أحد يهتم لحاله..

* * *

في ذلك اليوم
انتصف النهار، أسرة فريد كلها تنتظر بشغف ضيفها محمود وأسرته على طاولة الغذاء.
لم يتأخر عن تلك الوليمة التي أشرفت أم ضياء على اعدادها، كان الاتفاق أنه سيحضر بصحبة عائلته.
دق جرس الباب فهرعت عائدة الخادمة للباب تفتحه، صرخت فجأة ثم توقف صوتها.

اتجهت الأنظار للباب.

تسمروا بأماكنهم، جفلت العيون وتوقفت الأنفاس.

تكاد تسمع صوت خفقان قلوبهم، تُسمع شهقتهم عن بعد.

ما إن ولج محمود عتبة الباب حتى لمحوا جميعهم بصحبته ابنتهم نور.

يفركون عيونهم يتفرسونها، أيعقل أن تكون هي نور ابنتهم ؟

أهي شبيهة لها ؟ هل يمكن أن يكون الشبه لهذا الحد ؟

أغمر علي أم ضياء، أما فريد فقد صمت في محاولة استجماع وعيه، أيعكون مايراه حقاً ؟

ذرف عبرات انهمرت. انقطع صوته وهو يردد اسمها.

نور ؟

كأن زلزالا قد هز المكان، ارتجفت معه القلوب، وقفوا

واجمين، يتفرسون ضيفتهم.

انحبست الأنفاس وتصاعد وجيب القلب، تجمدت النظرات.

أ هي ميتة وعادت للحياة أم أنهم أمام معجزة خيالية ؟

كم من السنوات مضى على حادث ظنوها بسببه قد صارت تراباً.

كأنهم ينتظرون أن تنطق فتخبرهم أنها هي ولكن الصمت قد

سيطر عليها، رد فعلها كان بارداً لم تنهمر دموعها، لم تُقبل على

والدتها تلثمها ، اختفت اللفه من عينيها ، لا تلمح الحرقه التي سيطرت على أمها وأبيها.

أقبل ضياء يعانقها كما أقبلت أمها وأبوها ، تسمع صياح الخادما ت يهتفن باسمها.

كلمات ترحيب قليلة خرجت من فمها ، انتبه الجميع للصغير المسك بيدها بدى يشبه العائلة فنفس الأنف قد ورثها ، عندما تفرسته أمها قالت يالهي أيعقل نفس جبين خاله ضياء وله العينان ذاتهما . ارتسمت ابتسامه خفيفة على شفاة نور وهى تداعب شعر الصغير أمر طبيعي أن يشبه الولد خاله.

- عمر ، عمر طارق

قالتها بصوت هادئ وهى ترنو لصغيرها بابتسامه حانية أقبلت جدته تختطفه وترفعه إلى صدرها تقبله ، أقبل فريد يتنافس تقبيله ، خطفت نظراته قلب ضياء ، لم يشعر من قبل بمثل تلك الأحاسيس ، لم يخبر مثل تلك النظرات ، ربما لأنه لأول مرة يشعر أنه خال لطفل أو أن كائناً صغير من دمه يتعلق به قلبه لأول مرة يتشمم طفلاً ، يطيل النظر إليه ، يتحسسه.

اتخذت نور مقعدها إلى جوار والديها وقباله ضياء الذي التصق بعمر يتسمع نبضات قلبه ، يحادثه مداعباً.

انتبه لحديث نور تجيب على أسئلتهم وترضى فضولهم.

يوم الحادث لم يكن في نيتي ولا في نية طارق أن يصحبني في سفره، حاول أن يتركني بالبيت لأحظى بقسط من الراحة فقد كان الحمل متعباً جداً بالنسبة لي. كان الملل قد تمكن منى وسيطر علي فاستجاب طارق لرغبتى والحاحى لأصعبه في سفره.

سالت دموعها وانقطع صوتها لتخرج بعض كلمات قليلة، لم أكن أعلم أنى لن أراه ثانية.

انقلبت سيارتنا، كانت حالتى خطيرة، فقدت الوعي لفترة طويلة بينما فارق طارق الحياة.

لا أنسى نظراته الأخيرة، حشجة أنفاسه. غبتُ عن الوعي لأجد نفسي في فراش بالمشفى، أدركت حينها أنى قد قذفت لبعيد وأنهم لم يتعرفوا على.

طلبت منهم عدم اخبار أحد عنى، استجابوا لرغبتى ظللت لشهور أعانى كسورا خطيرة، تضرر الحمل واضطروا لتوليدى قبل الموعد، أخبرونى أن الجنين ستكون احتمالية نجاته ضئيلة.

تمت الولادة وكانت معجزة. وُضع الصغير بالحضانة.

أجريت اتصالاتى بمحمود الذي أتى لاصطحابى، طلبت منه ألا يخبركم عنى بأي شيء فقد كنت مصابة باكتئاب شديد.

سنوات أجرى فيها علاج طبيعى وجراحات ومحمود يعتنى بي وبعمر، رفض أن يتزوج، كرس حياته لنا.

أقمنا في بيت العائلة الكبير الذي ورثه محمود عن أبيه وعن طارق.
لم يعرف عمر أباه غير عمه محمود ، كنت أتابع صفقاته
وشراكته معكم ، كتب أكثر من ثلثى الشركات باسمي وباسم
عمر حتى صرت أنا الآن أمتلك أكثر من ثلاثة أرباع مؤسستكم
العملية.

قررت العودة ومعى عمر.

أعلم أنكم تتساءلون كيف لي أن أغيب سنوات وأظل متخفية
وأترككم تظنون أنى مية.

أعلم ذلك ، لكننى كنت بحالة نفسية وجسدية سيئة ، لم تكن
لدى القوة للعودة للحياة ولا للظهور ، عشت لسنوات بحالة صحية
ونفسية تمنعنى من أخاطب البشر.

بين الحين والآخر تصدر منها التفاتة إلى أخيها ضياء الذي كان
مندمجا مع عمر يلصقه إلى صدره ، قطع الحديث صوت هند التي
أسرعت بالعودة للبيت فور اخبار خادمتها لها بالأمر.

عندما أقبلت هند لتقف قبالة نور تحلق بها وتتفرسها ، تجول
الأسئلة بعقلها ، بينما بادرتها نور بابتسامة خافتة تشى بأنها تدرك
مكنون نفس هند وتدرى مايجول بعقلها.

صافحتها ثم عادت تروى ذكرياتها وأخبارها.

بدى الجميع مُصغيا يود السماع متشوقا للحديث غير أنها أنهت
الحديث وهمت بالوقوف تعتذر لأن الليل قد انتصف منذ ساعات
واقترب الفجر ويجب العودة للبيت فعمر لم يعتد مبيتاً خارج المنزل ولا
سهراً لوقت متأخر من الليل.

ما إن خرجت نور من بيت أبيها وانطلقت نحو السيارة التي يقودها
محمود حتى ابتسمت ابتسامة مأكرة لمحمود وهى تتنهد يبدو عزيزى
محمود أن الحصاد قد أوشك وأنا أراه قريباً.
سيشفى كلانا ما بنفسه يا هند قالها محمود وهو يزفر أنفاساً
طويلة.

كان عمر مستغرقاً في نومه بالمقعد الخلفى.

* * *

القلب ينبض

.....

مماضى من سنوات كفاح عالية لتعيش حياة جيدة هي وابنتها
بذلت كل جهدها لتحقيق حياة مريحة
يوم عالية مترع بأعمال كثيرة، فمنذ شجعته ضحى على اتمام
دراستها الجامعية.
وجدت عالية ضالتها في الدراسة، شعرت أن شيئاً ما فقدته ثم
أصبح بيديها، أقبلت على دراستها تعوض ما مضى من العمر.

يومها مشحون بالمهام.

حلمها بالالتحاق بكلية الحقوق لم يكن لمجرد دراسة بكلية عادية ولكنها تدرك أنها ستصبح بارعة في دراسة الحقوق، لطالما حلمت في الطفولة بأن ترتدى ثوب المرافعة، ترفع الظلم عن أصحاب المظالم.

دائماً ترى أن تحقيق العدالة أهم من الطعام والشراب. نظراً لكونها دراسة نظرية فهي تستطيع أن تجمع بين العمل والبيت والدراسة وتربية مريم.

يوماً ما وعدت أميمة أن تأتي لها بحقها كاملاً. شعورها بأن هناك تحدى عظيم تواجهه يجعلها أقوى وأكثر اصراراً على تحمل المتاعب والمشقات.

تفوقها يبهر أساتذتها بالجامعة فلطالما أخبرها أستاذها دكتور عبد العزيز بأنه يتنبأ لها بمستقبل عظيم فسيكون لها شأن في الدراسات العليا.

لم تمض الا فترة قصيرة حتى صارت عالية محور حياة ضحى، تعرف عنها أكثر ما تعرف هي عن نفسها، أهل ضحى يأتون لزيارتها فيحضرون معهم الهدايا لعالية والألعاب لمريم.

* * *

في ذلك الصباح تلاحقت طرقات ضحى على الباب، كانت عالية بانتظار بعض من زبائننا لتسلم ثيابهن، غير أنها وجدت أمامها الطارق هي ضحى.

ليس الوقت المعتاد لتأتى ضحى فهي الآن يجب أن تكون بالجامعة، لم تنتظر ضحى حتى تكمل عالية واجب الترحيب فانطلقت تدفعها لحجرتها هيا هيا ارتدى ملابسك، أسرعى أسرعى وكأن ضحى لم تستمع لأسئلة عالية الى أين ؟ وكيف ؟ ولم ؟

– مريم بالمدرسة. لا بأس حتى لو تأخرنا بالخارج لكن هيا اندفعت ضحى بصحبته عالية، ثم ما إن تحركت السيارة وتلاحقت عجالاتها حتى بدأت ضحى بالحديث.

– أما كنا نتحدث يا عالية عن أنك تحتاجين للتدريب لدى محامى جيد وأنت ترغبين في العمل بمكتب أحد المحامين الجيدين ؟
– نعم قلنا ذلك ولكن ..

– ليس هناك كلمة لكن فنحن الآن سنذهب لمحامى أثق به فهو صديق مقرب لأخى، شخص مهذب وعلى خلق يندر أن يتواجد مثله في زماننا، أتعلمين يا عالية ؟ هذا الرجل يتراجع عن الفقراء والمحتاجين دون أن يتقاضى جنيهاً واحداً، لا يتولى أي قضية لشخص يدرك أنه ظالم أو أنه مجرم.

فوق كل ذلك فقد فرقته الحياة عن فتاة أحبها فأبى أن يتزوج بعدها، هكذا حكى لى أخى قصته، بدرت من عالية ابتسامة ساخرة قائلة وهل لا زال بالحياة مثل هؤلاء الرجال ؟

قاطعتها ضحى تخبرها أنهما قد وصلا، أمسكت ضحى بيديها تصعد بها درجات سلم البناية، السرعة التى تجرى بها ضحى مصطحبة بها عالية لم تسمح لها بأن تلمح اسم المحامى على لافتة أمام المكتب.

دلفت مسرعة نحو حجرة أشارت إليها السكرتيرة تخبرها أنه بانتظارها.

الهادئة، رفع رأسه ليبادلها التحية ثم صمت محملاً في عالية، حين وقف متفاجئاً بها.

— عالية ؟ قالها في دهشة.

تسارعت نبضات قلبها، لم تُخف اتساع حدقتى عينيها وهى تتمتم بحسام ؟ عفوا أقصد أستاذ حسام.

حانت من ضحى التفاتة دهشة لكليهما تتساءل أتعرفان بعضكما ؟

لم تسمع أي إجابة، كلاهما وقف صامتاً.

تجمدت الكلمات على لسانه، لم يرفع عينيه عن عالية، عيناه تتلألأ خلالها العبرات.

اندفعت عالية نحو الباب تلوذ بالفرار، لم يمنعها محاولة ضحى أن تستبقها أو تفهم منها أو محاولة حسام أن يتحدث معها. خرجت لتلوح بيدها للتاكسى دون أن تنتظر ضحى التى أسرع فى اللحاق بها.

تركت الباب مفتوحاً لتدلف ضحى خلفها. حاولت ضحى أن تعرف سبب كل ما حدث، استسلمت عالية للبكاء المتواصل الذى حاولت اخفاءه فلم تفلح. دفنت رأسها فى صدر ضحى، لطالما احتاجت للصراخ والبكاء وكانت تمنع نفسها عن ذلك حتى لا تضعف أما مريم. استغرقت فى الحديث دون توقف.

— هو يا ضحى ذلك الرجل الذى تمنيت لو كان معى، تمنيت أن يتمسك بي ولا يتركنى، هو ذلك الذى نبض له قلبي وتمنيت أن أكمل حياتى معه، ربما لو تركنى بصورة عادية كان الأمر سيمر ببساطة فكم من الناس تمت خطبة لهم وفسخت أو حتى طلاق، لكن حسام تركنى فجأة دون ذكر أسباب، فقط تركنى بل إنه اختفى من المدينة تماماً ولم يترك خلفه أي أثر. هرب وابتعد.

تتابعت رنات هاتف ضحى لترد على حسام، طلب منها العنوان، لم يتأخر، ما إن طرق الباب وفتحته ضحى حتى صرخت بوجهه عالية، تشير اليه تشيح بوجهها تطرده.

أصر أن تجلس قبالة لتسمعه، أجلستها ضحى.

– علينا أن نسمع ما يود إخبارنا به اهدئى يا عالية أرجوك، ولنستمع ما يود أن يقوله.

صمتت هنيهة، ربما كانت تود أن يضغط عليها أحد لتستمع لحديثه.

زفرأنفاسه، جفلت عيناه قليلا ليذهب بخياله لتلك الليلة حين أتاه ضياء ورجاله، اختطفت أخته وتم تهديده بضياعها للأبد، تم اختراق مكتبه الصغير، تسلل أحدهم اليه، وضعوا كيساً صغيراً به مخدرات وقد تم القاء القبض عليه واتهامه بأنه يتجر بالمخدرات، كان السبيل الوحيد لنجاته هو استجابته لضياء حين أخبره أنه كما وضعه في تلك الورطة يستطيع أن يخرج منه، فأرسل ضياء واحداً من رجاله، اعترف على نفسه وبالطبع كان المقابل الذى تلقاه ذلك الرجل ضخماً ذلك الذى سيؤمن به مستقبل عائلته.

أمثال ضياء لديهم رجال كل مهمتهم أن يخرجوا البعض من تلك الورطات مقابل الأموال الضخمة.

– لم يكن الأمر هكذا فحسب يا عالية فقد أتى والدك الى في صبيحة اليوم التالى يبكى مر البكاء يذرف العبرات يرجونى أن أبعد عنك وأن سعادتك ليست معى وأن حياتك سوف تكون مهددة إذا اخترت الزواج منك.

أخبرنى ابوك أن مصيرك ومصيره صار مرتبطاً بضياء وأنتى لا
اصلح لك خاصة بعد تهديد ضياء له بأننى لو تزوجتك فسوف يكون
مصيرك القتل.

أتانى بخطاب منك تطلبين فيه منى أن أتركك لأنك لن تستطيعى
الحياة مع فقير مثلى وأنتك وجدت فى ثروة ضياء ضالتك التى تحلمين بها.
ناقشت والدك وأصررت أن أقابلك لأستمع اليك بنفسى فرفض،
أتيت اليك وما إن وصلت لناصية الشارع حتى وجدت رجال ضياء وأبيه
بانتظارى ليصدمونى بسيارة مسرعة ألقت بي على الطريق، عشتُ
بعدها فى حالة حرجة بين الحياة والموت، تلقيتُ العلاج بعدها وعانيت
من كسور شديدة ومضاعفات خطيرة.

كدتُ أموت، عندما أفقت وتحسنت حالتى بعد فقدان للذاكرة
تمنيت أن أراك كنت أنت قد تزوجت ورحلت من الحى، لم أتمكن
من الوصول اليك.

رحتُ أبحتُ عنك لسنوات طويلة دون جدوى، عرفت بعد فترة أن
ضياء قد طلقك وأنتك رحلت عن كل المدينة، دون أن تتركى أى سبيل
للوصول اليك.

أقسم لك ان هذه هي الحقيقة أقسم أنى عانيت أضعاف معاناتك،
ألا يكفيك من دليل على صدق مشاعرى أنه لم تدخل حياتى أي امرأة
بعدك ؟

أبحث عنك في وجوه البشر وفي صفحة السماء أبحث في عيني
الفجر وفي البدر، لا أعرف كيف أصف معاناتي ولا كيف أصف
الأيام والسنوات التي مضت من عمري أبحث فيها عن أي خبر يأتيني
عنك.

عالية أنا الذي ارتبطت حياته بخيوط ذكراك دون سبيل للراحة
ولا هداة للكرى.

عالية ارو لي ما حدث لك كيف تعيشين ؟ كيف مضت بك الأيام
والسنوات ؟

رفع وجهه ليلمح وجهها قد أغرقته العبرات، نشيج صوتها يعلو.
- أنا هربت وسافرت، استأنفت حديثها بكلمات مترددة،
تدافعت الأحرف غير مرتبة ابنتى اسمها مريم كبرت قليلاً، تنهدت
تمسح وجهها بظهر كفها، ابني فقدته أتعرف ؟ أنا فقدته ولا أعرف
كيف ولا أعرف أهو حي أم ميت.

انا أدرس، أشارت لضحي وكأنها تريد من ضحي ان تروى له
قصة حياتها بصورة مرتبة قليلاً أو تحمل عنها هم الحديث.
لم تأل ضحي جهداً في أن تروى لحسام كل ماتعرفه عن حياة
عالية.

* * *

مضت الأيام وعالية تعمل بالمكتب مع حسام الذى كان قد علا شأنه ولع نجمه في سماء المحاماه، يعلمها حسام كل صغيرة وكبيرة، أخبرها أنه يتمنى لو يجعل منها محامية مخضمة، يسقيها عصارة خبرته. تتعامل معه عالية بالكيفية التى قررت أن تضع حدودها فهي قد وضعت صخراً على باب القلب تمنع معه أي محاولة لاختراقه

أخبرته أنها تعيش لابنتها لتجعل منها الفتاة التى يفخر بها كل شخص، تكرر على مسامعه أنها تحلم لنفسها أن تحقق آملاً تمنته وتمناه أبوها في اكمال تعليمها لتصبح أعظم محامية، تحلم بأن تحصل لكل مظلوم على حقه أن يقوى بها الضعفاء، لكن كيف ؟ لا تعلم السبيل لحملها

في أكثر من مرة طلب أن يتزوجها، أخبرها أنه يتمنى أن يكون أباً لمريم، يحميها، يساندها يقف في ظهرها امام كل مصاعب الحياة رغم تعلق مريم بحسام الذى جعلها تشعر لأول مرة أن لها أب يحبها ويحميها يدلها يلاعبها، يأتيها بكل ماتتمناه، ورغم أن مريم نادته أبى الا أن عالية لم تتزحزح عن موقفها بل أخبرته أنها لن تسمح بدخول رجل بحياتها.

لم يغير حسام من موقفه تجاهها ولم يتوقف عن مساندتها. أخبرها أنه سيأتى لها بحقها، اعتبرت عالية كلامه مجرد وعد من باب التعاطف إذ كيف سيأتيها بحقها ؟ كيف سيأتى بسنوات

بدلاً من سنوات المرار والشقاء وكيف سيأتى بولدها ، وإن كان مات
هل سيشق المقبرة ويبيع فيه الروح ؟ هل سيدير عجلة الزمن للوراء ؟
ربما يكفيها الآن تلك السعادة التى تعيشها مريم وشعور الأبوة
الذى لم ييخل به عليها.

كان اليوم الجمعة تجمعت النساء ليقضين الوقت الذى يلوذون به
من عناء الحياة.

الجميع قد قرر أن يكون اللقاء قبل سفر ضحى للعمرة ، كان
السؤال الأهم الذى جرى على لسان ضحى : لتخبرنى كل واحدة
منكن بالدعوة التى أدعوها لها بالحرم.

تسمع ضحى الضحكات تملأ المكان فكل واحدة قد كتبت
لها ورقة كتبت عليها قائمة بالدعوات ، لم تخل القوائم من طلبات من
مكة والمدينة قهوة عربى وتمر ، ماء زمزم ، زيت هندى للشعر ، مسك
وعنبر من نوع أصلى.

في لحظة من لحظات المرح قاطعتهم أميمة توجه حديثها لضحى
ضحى أنت سألت الجميع عن ما يطلبه كل منا ولكن ما أول
دعواتك التى ستطلبينها من الله عند وقوفك امام الكعبة للمرة
الأولى؟

صمت ضحى هنيهة ، تنهدت تنهيدة كادت تشق صدرها.

- تعلمين يا خالتي أميمة أنى سأتضرع الى الله ليزيل أوجاع قلبي،
لازلت أتجرع مرارة الخذلان، عاقبنى المجتمع لمرضى، أتعلمين أن ما
من عريس أتى ليتقدم لي الا وجاءت أمه تارة أو أخته تارة لتخبرنى أن
فتاة مثلى كبر سنها وجعل المرض فرصتها بالانجاب قليلة لا يجب أن
تطمح بالزواج، قد جعلتُ حبي لمريم تعويضاً لي عن شعور الأمومة الذى
حرمتُ منه لكن بعض كلمات والدته مراد لازالت تحرق قلبي وأذنى
هيه يا خالتي أنا سأدعو بأن يعوضنى وأن أتقدم بعملى، سأدعو
لأولاد أخى

* * *

فى رحاب الطهر والنقاء

.....

ارتدت ضحى ثياب العمرة بصحبة أخيها الذى صاحبها محرماً لها،
شعرت بمشاعر لم تخبرها من قبل، أدت عمرتها، زرفت دموعاً لم
تعرف سببها، شعرت وكأن قلبها قد خرج من بين ضلوعها ليحل
محله قلب جديد، أقبلت على الصلاة تستشعر لذتها، عندما طافت
حول الكعبة وجدت العبرات تنهمر، قلبها يخرج من بين الضلوع محللاً
فى السماء السابعة.

فى ذلك اليوم كانت ليلة وترية من رمضان، الناس تصلى والإمام
يدعو، أنهت صلاة القيام وأقبلت على المصحف والمسبحة، التفتت

يمينا لتجد امرأة مسنة تمسح على كتفها، شعرت بألفة عجيبة نحوها.

سألته السيدة ما اسمك يا ابنتي ؟ واضح أنك مصرية.

— اسمى ضحى. نعم مصرية.

— آه أحسن ناس، أنا فلسطينية من الأرض المحتلة. اسمى أم نضال

ابتسمت : والله يا ابنتى أنا ما أعرف أهو اسمى أم لقبى.

زفقت للجنة ثلاثة شهداء، أدعوربى يمد بعمرى أرى بلادنا تحررت، كنت أدعو الآن ربى أن يجمعنى بأولادى بالجنة، ناولتها زجاجة، هذا ماء زمزم ادع ربك واملئى جوفك منها، والله يا بنيتى سيحقق كل ماتمنين، ادعيه حبيبتي واشربى والله سيزول كل داء. عندها أمسكت ضحى بالماء تقربه من فمها، تضع يدها على جنبها، تتذكر أنها منذ جاءت للحرم لم تأخذ أي مسكن ولم تشعر بألم.

ربت أم نضال على كتفها قائلة انت يا غاليتى اسمك ضحى، والله جعل في سورة الضحى وعد لنبيه أن يعطيه ويرضيه والله يا بنيتى سيرضيك ويعطيك والله سيرضيك.

انفجرت ضحى بالبكاء لم تعرف كيف تتوقف، شعرت بأن قدراً حانياً يقترب منها.

أكملت مناسك العمرة، اتفقت مع أم نضال أن تقابلها بالتهجد،
صلت قياماً وركعات كثيرة.

أقبل أخوها ليصحبها للفندق.

منذ جاءت لمكة اعتادت أن تؤجل الطعام حتى تفرغ من صلاة
القيام، يكفيها حتى ذلك الوقت ماتجرح به صيامها من تمرات وماء
زمزم، تشعر أن روحها خفيفة، تحلق حول الكعبة.
في ذلك اليوم اصطحبها أخوها لتناول الطعام.

ما إن جلست على الطاولة حتى سمعت أخوها تتعالى ضحكاته
مهلاً، التفتت لتجده يصافح رجلاً.

— أيعقل أن أقابلك هنا ؟ أهلاً أسامة كم مضى من سنوات. أشار
الى صديقه بالجلوس، تجاذبا اطراف الحديث لفت انتباهه ضحى،
روحها الهادئة، براءتها الشديدة، شدة نقائها.

— أنت ضحى، حبيبة أخيها، كان دوما يحكى لنا عنك منذ
كنا طلاباً بالثانوى وأنا أسامة، مؤكد أنك قد سمعت اسمى على
لسان أخيك من قبل.

— نعم كان أسامة صديقى المقرب يا ضحى، لكن تفرقنا، كان
شديد التفوق دخل كلية الطب، لكن انقطعت أخبارك عنى منذ
فترة، كيف حالك أسامة ؟ طبعاً تزوجت ولديك أطفال، هيا أخبرنى
عن أحداث حياتك.

- منذ سنوات طويلة اضطررت لخدمة والدي ووالدتي، عندما كبرا اعتلت صحتهما أصبحت أشعر أنهما بحاجة لي، حاولت رد بعض من فضليهما، كنت آنذاك أجهز للماجستير ثم الدكتوراه، لم أتركهما، كنت أنهي عملي لأعود مسرعاً إليهما، لجأت لخدمة ترعاهما فترة غيابي لكن لم أكن أعتمد عليها طوال الوقت.

بعد وفاة أبي شعرت بحاجة أمي لي أكثر من ذي قبل كنت أراها ابنتي الصغيرة، كطفلة تحتاج لمن يرعاها، لم يكن من السهل أن أتزوج، فمن تلك التي تتحمل رعاية أمي كما لو كانت أمها، ثم أننى وددت أن أفعل كل ماتحتاجه منى بنفسى.

رغم المشقة التي عانيتها في خدمتها الا أنها منذ توفيت وأنا أشعر أنى فقدت جداراً من روحى، لقد اصطحبتها معى الى السعودية حين جئت للعمل بها، وعدت بها لأستقر بمصر، وبعد وفاتها أصبحت حياتى فارغة الا من العمل والمرضى، ومستشفى الخاص.

كان حديثاً طويلاً وجلسة ودودة كما لو كانوا جميعاً يتحدث كل واحد منهم لنفسه.

كانت رحلة أسامة لمصر للعودة قبيل رحلة ضحى وأخيها بيومين استيقظت ضحى في صباح ذلك اليوم تعد ملابسها لتلتحق بمحاضرتها فطلابها بانتظارها، دق جرس الباب، هرعت لتفتح.

ما أجمل الصباح الذى تحتسى به القهوة مع أخيها وزوجته، زيارة مفاجئة فهي لم تلبث أن تركته منذ يومين.

قلقت، سألته عن سبب الزيارة، أدرك قلقها فابتسم يطمئنها - أتذكرين اسامة ؟ صديقى.

بدت الدهشة والفضول على وجهها.

- نعم ماذا به ؟

- اتصل بي يريد خطبتك.

- خطبتى ؟ هو لا يعرفنى، لا يعرف ظروفى وهو.

قاطعها قائلاً أصبح يعرف عنك كل شيء، أخبرنى أنك الإنسانية الوحيدة التى فتح لها قلبه.

لم تمض أيام حتى تحدد موعد لتجلس الى أسامة، ودت أن تخبره كل شيء عن حياتها.

ارتاحت للحديث معه، لم تجد حرجاً وهى تخبره بمرضها الذى قد يعاودها بأوقات لا تعلمها والذى يضطرها لأن تؤلى صحتها رعاية خاصة.

أخبرته أن فرصتها للإنجاب قد تكون قليلة.

- حسناً ضحى، تركتك لتتحدثى بكل مايجول بخاطرك، أنا طبيب وأعرف كل مضاعفات المرض وتبعاته، أما الإنجاب فهو بيد الله، إذا أراد أن يرزقنا فسوف يرزقنا.

أنا أريدك أنت وكفى.

تحدد موعد الخطبة ثم عقد القران، مشاعرها نحوه تنمو وحبه في قلبها يزيد ورغم كل مايقدمه لها من محاولات لطمأنتها الا أنها تخاف أن تُصدم فيه أو يكون مثل من كان قبله.

كلما سيطر عليها الخوف والقلق تذكرت حديثها مع أم نضال، تذكرت سورة الضحى، ثم ما إن تلبث أن ترتسم ابتسامة على وجهها، لتهدأ نبضات قلبها.

لم يكن يخل بيتها من أي من صديقاتها، من عالية وصديقاتها، كل منهن لم تدخر جهدا في مساعدة ضحى في شراء احتياجاتها وتجهيزها.

لقد استجاب لها أسامة في أن يجعل مسكنهما على مقربة من عالية، ليس فقط في نفس المدينة.

أخبرته كثيرا أنها لا تقوى على حياة بدون مريم.
لقد أحب مريم هو أيضاً.

أصبح صديق لحسام.

مضت الأيام بعد عرسها وانتقالها للبيت الذي جهزه أسامه لها، مضت شهور تشعر في كل لحظة أن الله عوضها بذلك الرجل.
في أيام تالية تجد نفسها منهمكة في عملها بالجامعة.

تخشى أن تكون مقصرة مع أسامة فتحاول تعويضه، تخصص أياماً تجلس إليه لا يشاركه فيها شيء، في أمسيات كثيرة يحرص على لم شملها مع أخيها وأسرته ومع خالها، لطالما حرص على أن تدعو صديقاتها للعشاء، حتى بالأيام التي يضطر للتأخير بمستشفاه، يفاجئها بأنه قد طلب صنوفاً من الحلوى والفظائر من مطعمها الذي تفضله، حفاوة بصديقاتها، تهمس إحداهن بين الفينة والأخرى في أذن ضحى لقد عوضك الله يا ضحى فهذا الرجل نعم الزوج ونعم الرفيق لم يكن يؤلمها في كل حياتها مع أسامة إلا أنها تشعر في كل يوم أن زوجها ستكمل سعادته معها بطفل يبثه حنان الأبوة، لكن هي الحياة لا تعطى سعادة كاملة وعلينا أن نرضى.

تذكر كلمات العجوز الفلسطينية يا ضحى يا ذات الضحى في سورة كانت على اسمك قال ربك ولسوف يعطيك ربك فترضى.

تذكر كلماتها عندما ودعتها عند الحرم.

تربط على يديها قائلة من رضى فله الرضا.

تزفر أنفاسها لتعود الى حياتها بقلب ملاء حب ورضا.

* * *

شيئ من العوض

.....

في السنوات التي مضت اعتادت عالية بين الحين والآخر زيارة عم عبد الظاهر وزوجته حسنية فهي لاتتسى معروفهما ، خاصة وأنها لو غابت عن الزيارة ومضى شهر دون رؤية مريم كانت تسمع منهما توبيخاً ، تحاول ارضاءهما حتى لا يفضبا فتعلقهما بمريم شديد.

بين الفينة والأخرى تذهب عالية لاصطحاب عم عبد الظاهر والسيدة حسنية للدكتور أسامة ، صحة عم عبد الظاهر معتلة ، الضغط يرتفع ، السكر يزيد أما حسنية فهناك واحد من شرايين القلب قد اشتكى.

— انه كبر السن يا ابنتى لن نأخذ زماننا وزمن غيرنا ، بهذه الكلمات المعتادة ترد دائما حسنية على قلق عالية.

كلما حاولت عالية أن تطلب منهما الاهتمام بصحتيهما ، تنهى حسنية عبارتها بالضحك والابتسامة التي تغير حياة من حولها ، تنزل على قلب عالية كتلك الربيثات الحانية ، كبرت ولم تخفت ضحكتها ولم يقل بهاؤها ، رغم أن لهاثها الحمراء من شدقها صارت تبدو مع كل ضحكة ومعها تظهر بضعة أسنان قلائل تبقت فى فمها.

أصبح أسامة صديقا لعم عبد الظاهر ، يسأل عليه ويطمئن على أحواله في كل وقت ، يحتفى به وبزوجته كلما جاء لزيارته.

كانت عالية قد تخرجت من الكلية، اجتمع الجميع للتهنئة، أتت أميمة وثرثريا وروضة وزيزى وكل رفيقات الدار، كن موجودات من الصباح الباكر يرتبن البيت ويطهين الطعام، عم عبد الظاهر وحسنية يجلسان يتسامران مع مريم التى تحتفى بهما.

أقبلت ضحى ومعها أسامة للتهنئة وفى يديهما الحلوى والعصائر الجميع يضحك، كلهم سعيد بما حققتة عالية.

تتحدث بصوت هادئ وكأنما تحدث نفسها، لم تمر سنوات الكلية ببساطة ويسر فبعض الأعوام كان العام بعامين، أنت تتذكرين يا ضحى المرات التى اضطررت لتأجيل الامتحان مرة لمرض مريم ومرة لنفاذ النقود حيث كنت أفضل فى بعض الأوقات شراء متطلبات مريم أو تجهيز غرفة الخياطة وشراء ماكينة جديدة لتغطية طلبات زبوناتى.

ضحكت مريم وهى تقترب من أمها قائلة ها أنت تخرجت يا أستاذة عالية فى الوقت الذى أخرج فيه أنا من المدرسة الابتدائى لأصبح الأنسة مريم.

تعالى الضحكات تغمر المكان، تكررت دقات جرس الباب فهرعت مريم لتفتح. صوتها وهى ترحب بضيفها الذى تنتظره عمو حسام.

كنت سأغضب لو أنك لم تأت.

– كيف لا آت يا مريومة ؟ كيف أترك الفرصة ولا أقدم لك هدية النجاح والتفوق ؟

دلف معها الى غرفة الجلوس للترحيب بالجميع، كانت نظراته نحو عالية تعاتبها فهي لم تدعه للحضور، تتعامل معه بنفس الحرج الذى لا ينتهى، أما هو فذلك الحب في قلبه لم يخب وهجه يوماً.

كان ينتظر اليوم الذى تتخرج فيه عالية ليعرض عليها مشاركتها بالمكتب والعمل معه رسمياً، ربما يود أن يزيد فرصة القرب منها، في الفترة الماضية قللت من التدريب في مكتبه ولكنه لم يكف عن السؤال عنها وعن مريم، طوال الوقت يهتم بأمرها وأمر مريم.

ظل حسام يسعى ليعوض مريم عن الأب الذى لم تراه.

كل محاولات أصدقائه لإيجاد العروس المناسب له قد باءت بالفشل، ظل يحدوه الأمل دوماً أن يجد سبيله الى قلب عالية ذات يوم استقبلت عالية في ذلك اليوم طلبه بالعمل معه بأسلوب لا يتوقعه

حسناً أستاذ حسام فأنا قد تعلمت المحاماه على يديك والفضل لك لو أصبحت محامية جيدة تنافسك، ابتسمت على استحياء ثم أردفت، لكن أنا سأجهز حجرة من المنزل هنا وقد استأذنت مالك الشقة، تعلم أنه يجب أن أكون على مقربة من مريم فأنا أحب دائماً متابعتها بالدراسة ولا أستطيع ان أبعد عنها.

وهذا بالطبع لن يمنع أن أظل بحاجة دوماً لمساعدتك واستشارتك طوال الوقت والرجوع اليك.

— حسناً عالية، متى سنبداً بمزاولة العمل بمكتبك ؟ فأنا سوف أعهد اليك بعدد من القضايا الى سأتركها لك وأنا على ثقة بأنك ستريحين القضايا.

ضحك حسام وهو يستأنف حديثه ليعلو صوته : تلميذتى النجيبية طبعاً.

في جانب من الشقة اتخذت ضحى مكاناً قصياً عن الحاضرين فقد بدت شاحبة قليلاً وقد أصابها الغثيان، ، لحقت بها عالية في غاية القلق.

— مابك يا ضحى ؟

بدت في غاية الخوف والقلق فقد عانت كثيراً من أوقات القلق التي كان يعاود ضحى فيه المرض.

بصوت خافت وعينين زائفتين أجابتها: لا أعلم يا عالية أخشى أن يكون المرض قد عاودنى فموعد اجراء الفحص والتحليل قد اقترب لم تكمل حديثها حتى هرعت للحمام تنقيئى كل ما دخل فمها من طعام.

اشتد قلق أسامة على ضحى فقد غابت، دلف خلفها صوب طريقة ضيقة فوجد عالية تسندها ممسكة بذراعها، أصابه الهلع، في لحظة نسى الطب ونسى أنها مهنته وقف مفزوعاً ،

— ما بها؟ ماذا أصابها يا عالية؟

يضرب الحائط بيديه، امتنع لونه، يلهث خائفاً فزعاً، يضع كفه على جبينه، ترتجف يداها.

يمم بوجهه صوب السماء داعياً ربه أن ينجيها، يخشى أن يكون عاودها المرض، خائنه العبرات.

سبقتها نحو السيارة يجesh بالبكاء كالطفل ثم حاول أن يمسك نفسه حتى لا يضعف تحملها ثم عاد ليصحبها للسيارة، مخفياً كل آثار الحزن متظاهراً بالابتسامة

عندما استقل السيارة أسرع بضحي نحو مركز التحليلات، أخبرها أنه سوف يخرج من مركز التحليلات الى طبييها المعالج استعجل أسامة نتائج التحليل، طبيبات وأطباء المركز يعرفونه يجلس مع ضحي على مقعد بصالة الاستقبال وضربات قلبه متسارعة من القلق، سمع من بعيد زميلته طبيبة التحاليل تتأدى، مقبلة عليه بابتسامة تملأ وجهها.

— دكتور أسامة.

أقبلت مسرعة تقبل ضحي، ثم همست إليها : أنت حامل أستاذة ضحي ألف مبروك.

— ماذا؟ اتسعت حدقة عينيها، تنظُر إليها ضحي، تسمرت مكانها لا تتطق، غمرت الدموع عينيها، تسارعت ضربات قلبها، في

لحظة شعرت أن الكلمات قد توقفت وأنها قد نسييت الكلام، لا تملك الادموعها المنهمرة، لا تستطيع إيقافها، زردت ريقها وهى تلتفت الى أسامة الذى ظل يسأل الطبيبة: أحقا ؟ أنت متأكدة ؟

نعم يا دكتور ففى اللحظة التى أتيت تطلب تحاليل الأورام شككت أن ربما كان هناك حمل، أخذت جزء من عينة الدم لتحليل الحمل ونويت ألا اخبرك الا إذا كنت متأكدة.

سجد لله لتبلى العبرات وجهه وتتساب على الأرض، سجدت ضحى التى اختلط البكاء بصوتها وكلامها.

أمسك يدها الى طبيبيها دكتور حسين ليتأكد ويطمئن على صحتها.

أكد الطبيب أنها حامل.

ابتسامة الطبيب خلف زجاج نظارته الطبية، يرنو الى ضحى وزوجها، يعرف التاريخ المرضى لضحى، يعرف مايجوب بعقلها ويسكن خاطرها.

يذهب بذاكرته وأفكاره لكم الحالات التى كانت حالتهم مع الإنجاب أملاً مفقوداً، كم من المرات التى كان الطبيب يخبر مريضته أن نسبة الأمل في الإنجاب معدومة أو ضعيفة.

يتحدث الطبيب برأى العلم، قوانين البشر.

لكن كثيرا ما كان للخالق إرادة تخالف رأى البشر، كم من القصص التى يقف عندها الطب صامتا لا يملك الا أن يتأمل قوانين الله وكلمته التى تعلو كل كلمة.

ما إن مضت دقائق الدهشة والصدمة على ضحى وأسامة حتى بدا الطبيب يلفت نظر أسامة لنقاط مهمة.

— اسمح لي دكتور أسامة فهناك أمور يجب توضيحها خاصة بحالة ضحى
التفت أسامة.

— تفضل دكتور حسين أنا منصت اليك.

— بالطبع أنا في غاية السعادة لهذا الحمل وأحمد الله على فضله،
لكن.

كان صمته بعد كلمة لكن قد استمر لدقائق تخللتها نظراته المتردة الى الزوجين الفرحين بالخبر.

— تحدث يادكتور أرجوك، هل حملى بخطر؟ تدافعت كلمات ضحى تتعلق بشفتى حسين تنتظر أن تلتقط منها الكلمات.

— في الحقيقة يا ضحى في حالتك، أعلم أنك تعافيت من السرطان بفضل الله، وتحليلاتك وفحوصاتك جيدة نعم هذا حقيقى، لكن في حالتك قد يحدث أن تقوم هرمونات الحمل بدور معاكس ومضاد للعلاج أي أنه يعمل كمضاد للعلاج، قد يتسبب في عودة ظهور الورم

انتبه أسامه لحديث دكتور حسين، هو يعلم هذه المعلومات لكنه في غمار الفرحة والمفاجأة نسي كل شيء، لقد نسي الطب.

قاطع أسامة حديث دكتور حسين، اعلم بذلك لكن أعتقد ان هذا الأمر ليس بالضرورة أن يحدث، أي أنه في حالات كثيرة لا يحدث انتكاسة للمرض، أليس كذلك ؟

- بلى فما تقوله صحيح لكن أنا أحاول أن أضع أمامي كل الافتراضات والتوقعات.

كانت ضحى تشعر أنها أمام خيارين، حياتها وإكمال الحمل.
فما عساها أن تختار ؟

صمت حسين وأسامه، قطع ذلك الصمت صوت ضحى التى كانت قد وضعت جبينها تسنده الى يديها، بدى صوتها هادئاً مطمئناً، ان شاء الله سيكتمل حملى على خير، لا تقلقا.

لن أجهض الحمل، هذا قرار نهائى.

لم يتوقع أسامة رد فعلها الهادئ المطمئن وهى التى تطمئنه بدلاً من أن يطمئنتها هو.

مرت شهور الحمل، يكبر الجنين في أحشاء ضحى، تتضرع لربها، تحظى برعاية زوجها وأهلها ورعاية عالية التى رافقتها ولازمتها، تهتم بطعامها وراحتها وكل أمورها، ترافقها في متابعة الطبيب والتحليلات الطبية

أنا عمر

.....

استتب الأمر في الشركات لنور ومحمود، أصبحت نور هي المالك لأكثر الأسهم لمجموعة الشركات، تسيطر على كل المشروعات وتؤول إليها كل الأرباح.

الأعوام التي مضت جعلتها تتمكن من التوغل في كل شيء، تسيطر على الصفقات، تتوطد صلاتها وعلاقاتها بكل المستثمرين. في ذلك اليوم الذي عادت به للفيلا مبكراً عن مواعدها بدت متوترة، عصبية، في حالة من الثورة والغضب، يسيطر عليها الضيق، تصرخ وهي تنادي عمر، تبحث عنه بكل مكان بالفيلا، تستقبلها الخادمة تخبرها أن عمر خرج منذ الصباح ولم يعد حتى الآن.

ليس غريباً عليه، يأتي للبيت على أنه فندق، هاتفه مغلق كالعادة، قالت كلماتها الغاضبة وهي تصرخ وترمي بكل ماحولها، لا تكثر بأى أحد، تستشيط غضباً، احمرت عيناها وانتفخت أوداجها، تكاد تحرق نيرانها كل شيء.

طفقت الى حجرتها تتطلق نحو علبة المهدئ، ابتلعت أقراصاً دون وعى، في الفترة الماضية أكثرت من تناول العقاقير المهدئة. تناولت هاتفها تطلب دكتورة خلود.

— أرجوك يجب ان آخذ موعد اليوم، يجب أن أراك ضرورى، أنا بحاجة لجلسة معك.

راحت ترجو الدكتوراة، لكن رد خلود بأنها في مؤتمر، ستعود منه بعد يومين،

— نور لا تقلقيني أرجوك، هل حدث جديد ؟ هل غيرت شيء من الأدوية ؟

طفقت نور تبكى بكاء هستيرى.

— لا أعلم يادكتوراة خلود، لا أعلم، سوف أجن. أنا متعبة جدا، النار تحرق قلبي.

اسمعى يا نور، سأرسل لك أسماء بعض الأدوية، ابتعدى عن التوتر، لاتكثرى من المنوم، سوف ألقاك فور انتهاء المؤتمر.

عندما أنهت نور المكالمة، عاودت الاتصال بعمر، كالمعتاد، هاتفه مغلق مرات، كم من محاولات بائسة ليرد عليها وكم من مرات يرن الهاتف دون رد، صارت علاقته بها منحصرة في الأموال الطائلة التى تتفقها عليه ببذخ شديد، تقف نور عاجزة لفترات طويلة أمام هذا الشاب لا تستطيع التعامل معه، لا تقوى على أن تعامله بشدة وهو الذى تشفق عليه لأنه لم ير أباه، كما أنها لا تستطيع ترك حباله على غاربها.

صار يتعامل معها بعصبية وتوتر، تعاني عناده الشديد، في عامه الثانى من الجامعة، كان لزاما عليها أن تدفع مصروفات ونفقات جامعتها الخاصة فقد كان طالباً مستهتراً لا يهتم بدراسته، يدرك أن نور ستدفع نفقات الجامعة الخاصة.

لم يكن اهماله دراسته واستهتاره هو السبب الوحيد لضيق نور وتوترها فهي تعاني من شخصيته العنيدة وسلوكه المضطرب وأصدقاءه غير الأسوياء.

يجلس عمر بالنادى مع أصدقائه، يتبادلون أطراف الحديث، كان حديثهم لساعات حول الطلاب الذين وفدوا من جامعاتهم الحكومية وتم الحاقهم بالجامعة الخاصة الفخمة رغم أنهم ليسوا من الأثرياء، السبب الذى جلبهم لجامعتنا هو أنهم أوائل على جامعاتهم، يضحك نادر وهو يضرب الطاولة يكاد يغشى عليه من الضحك

— ألم تشاهدوهم ؟ كل واحد منهم يبدو كمن بهرته أضواء المدينة.

يقاطعه عمر نعم فالحق أن ملابسهم مضحكة، لقد قررت أن نتسلى عليهم فى الغد.

ضحكاتهم تملأ المكان، يخرج كل من نادر وشادى هاتفه ليحدث فتاته التى يضحك معها، يمازحها، تبدو لكل منهما فتاة تشبهه في استهتارها.

يميل شادى الى عمر، يمزح ساخراً يبدو أن انجى غاضبة عليك أو
أنك تشاجرت معها فلم تعد تتحدث اليها بالساعات.
يقاطعه عمر مشيراً بيده : لا لا أيها الأحق فالفتاة لا تكف عن
محادثتى أما أنا فقد سئمت منها ، مللتها.
صرخ نادر: يا شباب أنا أيضا مللت الفتيات الى أعرفهن، لم لا
نبحث عن جديد ؟
انطلقت ضحكاتهم، سيارتهم المسرعة ، تارة يقفون وتارة ينطلقون
في سرعة شديدة.

* * *

مريم

.....

منذ ودعت عالية مريم في ذلك الصباح تذهب فيه للجامعة
وهى تشعر أنها لا تقوى على تركها وحدها، منذ ولادتها لم تسافر
أي منهما وتترك الأخرى، خلى البيت من مريم لتجلس عالية
تجتر الذكريات، تؤنب نفسها، تعيد الحسابات، منذ أيام دار نقاش
حاد بينها وبين مريم، لم تكن المرة الأولى التى تؤنبها فيها مريم،
لطالما عاتبته على مواقف حياتها. يرن في رأسها صوت مريم تتحدث
غاضبة.

– لم يا أمي ؟ لم وافقت على الزواج من رجل تكرهينه ؟ تعلمين أنه سيخذلك ، رجل ثرى وزوجته ثرية وبديهي جدا أن يرميك ويرمى ابنتك.

طمعت يا أمي في ماله ، ظننت أنه سيساعدك ويحسن حياتك ، لا تهربي من الحقيقة ، لا تتعلى بأنك أردت انقاذ أبيك.

ثم ما فعلته عندما أخذوا ولدك ، ماذا فعلت ؟ لقد هربت ، لماذا لم تفضحيهم لماذا تتركي دماء ولدك تضيع هباء ؟

أنت كنت تبحثين عن الطريق السهل.

تتذكر عالية كيف تأملت لكلام مريم.

كان حديثها مؤلماً.

منذ كبرت مريم وهى ترى الحياة بصورة مختلفة ، ترى عالية ضعيفة مستسلمة.

ليس هذا ما يؤلم عالية فما يؤلمها هو سفر مريم رغم أنه لمنحة الدراسة بالجامعة الخاصة كمكافأة لتفوقها وأنها في الترتيب الأول على جامعتها ، سافرت وهى مغاضبة أمها.

شردت عالية ، خانتها العبرات تحرق وجنتيها ، قطع شرودها صوت الهاتف. رناته ترسم ابتسامة على شفيتها فمريم هي من طلبتها.

– أمي.

كأن عالية تقبل الهاتف تحتضته.

— مريم كيف حالك يا حبيبتي.

الجامعة هل أعجبتك ؟ كيف تأكلين ؟ والنوم ؟ مريح ؟
والحجرات يا مريم أهى نظيفة ؟ المواد الدراسية هل ؟
قاطعتها مريم : حسبك ياست عالية مهلاً علي أتريدين معرفة كل
شيء في مكالمة واحدة ؟

ضحكت عالية وهى تثرثر مع ابنتها تتباريان في سرد تفاصيل الحياة.
مضت أكثر من ساعة تحكيان فيها عن كل مامر بالأيام
الماضية، تروى عالية عن العمل بمكتبها الذى أصبح حديث الناس،
فقد صارت من أهم الناس في عالم المحاماه.

استطردت عالية لتخبر مريم عن ضحى التى اشتاقت اليها كثيرا
آه يا أمي لقد اشتقت كثيرا لخالتي ضحى، تضحك مريم وهى
تتمتم كيف حال محمد وهاجر ؟ أبناء الحبيبة ضحى ؟ لا أنسى يا
أمي منذ سنوات عندما حملت خالتي ضحى وكنت أنتظر صغيرها،
أذكر عندما أخفى عنها الطبيب أنها حامل في توأم، كان حملها
ضعيف الصحة، عندما وضعت صغيرها أخبرها الطبيب أنه توأم

كنا في قمة السعادة، كنا نشعر أنها معجزة، لعبت مع صغيرها
واعتبرتهما أخوای الصغيرين، تعلمين أن متعتى بالحياة هي اللعب بشعر
هاجر، فكما كانت أمها تمشط شعرى وتجدل ضفائره وتزينه فعلتُ
أنا مع ابنتها.

تضحك عالية التي لا تكف عن أسئلتها لمريم.
لا يتوقف قلقها عليها لا تدرى كيف وافقت على ابتعاد قرة عينها
عنها، كأن روحها قد غادرتها.

عندما أغلقت الهاتف وانتهت المكالمة، شردت مريم، ظلت تفكر
في حياتها الجديدة، لم تخبر أمها بما تعانیه في تلك الجامعة، لو
أخبرتها بحياتها المتعبة وبهؤلاء المتتمرين وبالعالم الجديد والغريب عنها
لجاءت فوراً عالية مستقلة أول قطار أو حافلة، لن تتحمل عالية أن
تعرف أن هناك فتيات لم تعرف أي منهن شكلاً من صور التربية
يفلقن الحمام على مريم، حتى تتعطل عن المحاضرة، يسخرن من
هدوءها، واهتمامها بدراستها، لا تضيق ساعات اليوم في المطاعم
واللعب، لا تحدث كل شباب الجامعة كما يفعلن، اشتدت غيرتهن
منها عقب ثناء أساتذتها عليها، علماً وخلقاً، جمالها الهادئ وتشابها
مع عالية في صغرها، حياؤها ورقتها، ذكاؤها وأقبالها على دراستها،
كل ذلك جعلها حديث الجميع.

وجعلها أيضاً موضع الغيرة والحقد، اختلافها أيضاً جعل العداوة
تضطرم نيرانها في قلوبهن.

مجموعة الشباب بالجامعة أبناء الأثرياء، ليست المشكلة في الثراء
ولكن المشكلة في أولئك الآباء الذين ظنوا أن دورهم الوحيد بالحياة
نحو أبنائهم هو التمويل المالى لنفقاتهم، لا تجد فيهم من يعلم أو يرى

أو يكون قدوة بل الكارثة الأكبر أن بعضهم سيكون وجودهم في حياة أبنائهم كارثة فهو مثال سيئ، لا يراه أبؤه الا مثالا لا يمكن احترامه، كان نادر وشادى ومعهما عمر أمثلة لأولئك الشباب الذين جعلوا مريم تكره حياة تلك الجامعة، يتعقبونها خاصة وأن من زميلاتنا نهى وسالى وجنى هن مجموعة الصديقات لأولئك الشباب، لا يختلفن عنهم في فسادهم، استهتارهم، لا يهمهم أن يتفوقوا فلاتوجد مشكلة من إعادة السنة الدراسية، لا طموح ولا حلم يسعون له فالأموال الطائلة تتفق ببذخ.

في تلك الليلة كانت السهرة ببيت شادى، تغيب عمر عن بيته، أغلق هاتفه فلا تزعجه نور باتصالها، انزعجت كثيرا عليه، انهارت، تناولت عقاقيرها المهدئة، التقت هاتفا تحكى لطبيبها خلود. كانت خلود دائما ترى أنه يجب أن يتدخل عم الولد في تربيته وكذلك خاله، الا أن نور كانت ترفض بشدة.

كلما كانت تحكى نور عن الأحلام والكوابيس التى تراها كانت خلود تخبرها أنها تشعر أن نور تخفى عنها شيئا لم تحكه. ترى خلود دوما أن هناك سر تخفيه نور ولا تخبر به وربما كان هذا السر هو ما ينخر روحها ويعتصر قلبها، كانت مكالمات نور مع محمود تشي بخلافات شديدة بينهما ربما دبت الخلافات نتيجة لمشكلات بالتجارة أو الصفقات، لكن أكثر شيء أصبح يضايقها

هو تلك الكراهية التى صارت تلاحظها فى علاقة محمود بعمر، لهجة التهديد من محمود أصبحت تسيطر على أسلوبه فى الحديث معها، تخشى أن يدمر حياتها.

لم تنقض السهرة بل طالت حتى بعد أن انبلج الصبح وعمر وأصدقائه فى ضحك وصياح وشرب، ظلوا يروون مغامراتهم، فى السهرة كانت تلك الفتيات يضحكن، يخططن للانتقام من تلك المتعجرفة التى قدمت الى جامعة الأثرياء رغم أنها لا تملك مثقال ذرة من مصروفات شهر واحد من تلك الجامعة، ترفض مشاركتهم فى أنشطتهم غير السوية، تبدى رفضها لكل مايصدر منهم، صارت مريم حديث الشباب والفتيات.

أزعجهم اقبالها على دراستها، وعدم استجابتها لمحاولتهم لاستمالتها نحو عالمهم ومجتمعهم.

لم تكن مريم على وتيرة واحدة من ردود أفعالها، فهي الهادئة الناعمة أحيانا وهى أيضاً الشرسة الحادة المتبرمة من كل ماحولها.

لطالما تناقشت عالية مع ضحى حول أمرها فهما تريان فيها تسامحاً وطيبةً وعذوبةً، لا تلبث أن تنقلب الى ثورة وانفعال وتذوب معها رقتها وطيبتها للتحول إلى اعصار دامى، خاصة فى اللحظات التى تفكر فيها فى ذلك المصير الذى عاشته بسبب سوء اختيارات أمها.

لا تمض الأيام على عالية دون بكاء بسبب مريم التى كثيرا ما تشعر بأنها لا تقدر تضحياتها، تشعرها بأنها ضحية سوء تعاملها مع الأحداث، لم تتردد مريم فى اخبار عالية بأنها لو قابلت أباهـا يوما ربما قتلتـه أو تشاجرت معه، ستفضحه، ستصرخ فى وجهه تخبره أنها لن تسامحه. تدرك عالية أنها انفعالات صبية غاضبة، ناقمة على أب لم يتحمل مسؤولية زوجته وابنته، بل وتسبب فى ضياع ابنه.

تتعجب عالية من الفتاة التى لا تتحمل أن ترى أمها متعبة، تطلب منها أن تخلد للراحة وأنها ستقوم بكل شيء بدلا منها، تأتيها بالعصير والليمون وقد أضافت اليه العسل، تجهز الطعام بدلا منها، لو اشتكت عالية تعبـا لا تتركها مريم تقوم بأعباء البيت ولا تتظفه، تضحك عالية من تدليلها لها، تمازح مريم قائلة سأعود على ذلك التدليل، ولن أستطيع أن أعود للحياة الشاقة.

عندما تضحك مريم تلمح فى عينيها اللامعتين العسليتين الواسعتين عبرات لطالما حاولت اخفاءها، تبسم فتظهر غمـازة خفيفة فى خديها، تختلط الحمرة ببشرتها الخمرية الساحرة.

تدلى ياست الكل فأنت أميرتى، كلمات مريم هذه لا تفارق أذن عالية طوال الوقت.

عندما أتى حسام لمكتب عالية يحمل صحيفة يومية، وضعها على مكتبها، أشار بيديها لعناوين الأخبار، أمسكت عالية بالجريدة

تتفحصها وقد توقعت أن يكون حسام قاصداً أخبار بعض القضايا والحوادث التى تتعلق بمؤكليها.

أشار حسام على العناوين المكتوبة بخطوط عريضة لمحت بها صورة ضياء.

كان على المكتب عدد كبير من الصحف والمجلات، والغريب أن عائلة ضياء هي المتصدرة للأخبار، بادرها حسام بسؤالها هل قرأت أيا من الأخبار عن العائلة في وقت قريب ؟

هزت رأسها بالنفى وهى تمسك بالصحف تتفحصها بحرص، تنتقل بين الأخبار بشغف.

العائلة صارت حديث الصحف، تناقلت الصحف أخبارهم بين خبر عن الأزمة الصحية لضياء فريد ، خبر آخر عن بيع عدد من شركاته لأخته.

خلافات دبت بين ضياء وهند زوجته ، صور لعمر بن نور تفضح استهتار الشاب ، وحادثه له وأصدقائه في ليلة كان فيها مخموراً لكن لحسن حظه أن الرجل الذى صدم بسيارتهم كانت اصابته غير مميتة وقد نجى منها وتنازل عن بلاغه ضدهم بعدما أعطته نور مبلغاً كبيراً. شركات نور أصبحت تتصدر مجموعة أهم وأكبر الشركات وقد صارت نور واحدة من أهم المستثمرين.

غابت صور هند عن الساحة وهذا أمر غريب فقد كانت تهوى الظهور بالمشهد دائما.

لم تكن هذه أول مرة يتابع حسام مع عالية أخبار العائلة، لذلك ارتسمت على وجه عالية ابتسامة ساخرة وهى تتمتم : أخبار العائلة المالكة لم تعد تهمنى، أنت تعلم ذلك.

— أعلم عزيزتى ولكن الأمر اليوم أصبح مهما بالنسبة لي ولك، لقد اتصل بي أحد مديرى مجموعة الشركات الخاصة بنور يطلب منى العمل كممثل قانونى لمجموعة الشركات وقد اختار أيضا اسمك لتكونى بالفريق القانونى للشركات، كم أصبحنا مشهورين. لقد أصبح اسمك أيضا رناناً، يتألق نجمك بعالم الحماماء.

بدت عشرات الأسئلة تجول بخاطرهما، شردت ويدى جبينها متقطبا، يقطع حسام صمتها قائلاً أعلم ما يجول بعقلك، مؤكداً أن نور وأسرة ضياء كلهم ليس لديهم علم بالأشخاص الذين أرادوا ان يكونوا ممثلين قانونيين لهم.

أمر مسلم به يا عالية، إنهم لا يتصورون أن المحامى والممثل القانونى الذى أرادوا أن ينضم لشركاتهم هي ذاتها عالية، عالية السيدة التى تزوجها ضياء، ثم ما إن أنجبت له أطفاله ضحى بها وبأبنائه، بل وتسبب في ضياع ابنه.

أمسكت عالية بالصحف ترمى بها على المكتب، رفعت عن عينيها نظارة القراءة وقد عقد حاجبيها تسأله.

- ما رأيك أنت يا حسام ؟ طبعاً سنرفض عرضهم ؟
- أعتقد ذلك ، مؤكداً طبعاً لن يكون لنا عمل معهم.
- لا
- كانت إجابتها مفاجئة له ، ماذا قلت يا عالية ؟ قلت لا ؟
- مثل ما سمعت ، ما سمعته صحيح فأنا سأقبل العرض وأوقع على العقد ، سأعمل معهم.
- لأفهمك يا عالية ، لأول مرة أشعر أنى عاجز عن فهمك
- أتعرف يا حسام ، منذ كبرت مريم وصارت صبية وهى دائماً تلومنى على اختياراتى وعلى ما فعلته بها ، دائماً كنت أتمنى لو عاد الزمن بى لأغير كثيراً من أمور حياتى ، ربما تكون الفرصة قد جاءتنى لأعيد لابنتى ثقتها فى نفسها ، ربما يجب أن أتمسك بالفرصة
- أتعنين أنك ستقابلين ضياء وعائلته ؟
- لا إطلاقاً ، لن يكون الأمر كذلك ، ستساعدنى ، أليس كذلك ؟
- أتسألين ؟ أم أنك تعرفين الإجابة مسبقاً ؟
- ابتسمت ابتسامة هادئة جاهدت فى إخفائها ثم تمتمت : إذن لنبدأ
- كانت رحلتها بسيارة حسام قد استغرقت ساعة ونصف ، عندما توقفت عجلات السيارة أمام المقر الرئيسى لمجموعة الشركات ترجلا

الى بهو طويل ينتهى الى مكتب رئيس مجلس الإدارة، لمحت عالية في نهاية المر نور وقد كانت مسرعة، تدلف الى مكتبها، لم تحاول عالية أن تظهر أمامها، أومأت بطرف عينها الى حسام تشير الى نور، فهم حسام ما تشير اليه عالية، فاتجه بها الى مكتب محمود.

عندما قدم محمود أوراق التعاقد حرصت عالية أن يقدمها حسام قائلاً أستاذة علياء عبد الله.

عرفت عالية لدى الكثيرين باسم علياء، اسم عبد الله موجود باسمها قبل اللقب النهائي، وقد عرفت بهذا الاسم لدى الناس في العمل، لا أحد من أسرة ضياء يتوقع أن تكون عالية سالم هي الأستاذة علياء عبد الله، شكلها قد تغير كثيرا، ربما لمرور الزمن وكذلك لنحافتها فقد نقص من وزنها الكثير، طريقة ملبسها تغيرت، ما ودت فعله هو أن تكون الوهلة الأولى لمقابلتها مختلفة.

في يومها الأول بالشركة في مكتبها الذي أعد لها والذي يبعد عن مكتب حسام بأمطار قليلة، طلبت قهوتها، تكومت أمامها تلة من ملفات طلبت الاطلاع عليها، مكثت ساعات خلف نظارتها، تتناول ملفاً تفحصه وتنتهى منه الى ملف آخر، مضى الوقت، لم تشعر أنها قد أمضت كل تلك الساعات دون أن تحدث مريم، أخبرتها بالأمس أنها في عمل جديد ولكنها لم تخبرها بأنها شركات عمته خاصة وأن مجموعة المؤسسات لاتحمل اسم العائلة ولكنها تحمل اسم

مؤسسة ومجموعة نوريان للاستثمارات، صارت المسافة بين مريم وعالية بالكيلومترات نصف المسافة، وعدتها عالية أن تكون معها بعد أسبوع، يقضيا أياما سويا.

وصفت عالية لمريم شكل المكتب الفخم، مبنى الشركة الهائل، كومة الملفات المجمعة على مكتبها، ضحكت وهى تخبرها أنها منذ الصباح لم تتناول الا القهوة التى احتست منها أربعة فناجين كبيرة. كان على مريم أن تعود مسرعة لحجرتها تجهز نفسها لامتحان صغير للشهر.

اصطحبتها رفيقتها لبنى، منذ تعارفا وهى تشعر أنها أفضل صديقاتها، تراها دائما الأقرب اليها من بين كل تلك الفتيات، حاولت لبنى أكثر من مرة أن تنتهى نهى وجنى وسالى عن كل أفعالهم ضد مريم.

كلما غابت مريم قليلاً عن لبنى تتفقدوها، تلتفت حولها تدور عينا لبنى في كل مكان، تيمم كل الأنحاء والزوايا، لا تطمئن حتى تجدها.

تتجول لبنى المرحه بالمكان، فتاة تتحرك طوال الوقت، تضحك من قلبها حتى تنهمر دموع الضحك من عينيها، تتحدث فتشعر أن الجماد سيضحك لحديثها، يلمع الذكاء بعينيها، يمتزج الذكاء وحدة التفكير مع قوة الشخصية، تشعر للحظات أنها فراشة تتحرك

بالمكان تطير الى كل جهة، وأوقات تجدها تناقش إحدى الزميلات فيعلو صوتها، لا تنتهى من حديث أو حوار حتى تخرج منتصرة.

اكتسبت لبنى قوتها من طبيعتها التى تربت عليها منذ صغرها، ومن أمها دكتورة آمال واحدة من أهم أساتذة الطب ووالدها الدكتور يوسف رمضان أحد الأساتذة بالجامعة وهو أيضا أحد المشاركين والمستثمرين بالجامعة.

لبنى ابنتهم المحبوبة التى حظيت بحب والديها وحب أخيها سيف الذى يعد أهم شخص بحياتها وهى أيضا أهم انसानه فى حياته، يكبرها بأعوام، هو معيد بنفس الجامعة.

لم يصل لمرتبه الجامعية من خلال منصب والديه ولا أموالهما، ولكن وصل لكل ذلك بجهده وتفوقه، سافر لسنوات لألمانيا لاكمال دراسته ثم عاد لمصر يحظى بمنصبه الفريد، لم يبخل يوما على أخته بالرعاية والنصح، يحمل أوراقه مسرعا الى قاعة المحاضرات، ملابسه الرسمية ونظاراته الأنيقة تتناسب مع ملامحه الجادة، كلماته القليلة وعباراته المختصرة، يبدو حازما تعلو الحدة صوته، حركاته سريعة توحى اليك أنه دوما يحاول اللحاق بطائرة.

قليل الضحك، تضحك لبنى وهى تمازحه، ألن يأتي اليوم ياسيف الذى أقول فيه أن أخى شخص عادى له أخطاء ؟ أو أنه شاب يعيش سنه يلهو ؟

يجيبها بجدية كما لو كانت تسأله بجدية، اعتدت أن وقتى ثمين، أصبحت حياتى جادة، ربما لم أعرف أصدقاء ولم أعرف اللهو، حتى هواياتى كانت القراءة، ربما لم تكن هناك فرصة لدى لأضيع وقتى. يبدو أنك أخذت سؤالى بجدية، عموماً أتيت أبحث معك أمر واجبك كأخى الحبيب نحو هدية عيد ميلادى.

ضحك وهو يشير إليها ثم يدعك ذقنه، هات ما عندك من طلبات فأنا لم أنس أعظم مناسبة، لست مستغنيا عن راحتى وسلامى النفسى إذا سولت لي نفسى أن أغفل عن هديتك، أكتبى لي كل طلباتك واعتبرها مجابة مسبقاً.

حملت قهوتها وتركت له قهوته يحتسيها وجمعت معها أوراقها وهاتفها تشير إليه تتركه خلف أوراقه يدرسها. ناداها يستوقفها، سألها عن تلك الفتاة التى تروح معها وتجيئ وكأنها صارت محور حياتها.

اعتادت منه دوماً أن يسأل عن صديقاتها، يُقيم سلوكهم، لا يعجبه أبداً أي واحدة فدوماً له تعليقات حولهن، يعترض عن سلوك واحدة أو ملبس الأخرى أو طريقة الحديث، حتى أنها صارت تصف سيف بأنه شاب لا يعجبه شيء.

— هي مريم صديقتى، أعلم أنه من المؤكد أن لديك اعتراضات عليها، فهات ما عندك أخى العزيز.

أوماً ايماءة غير المكترث يزعم شفتيه يجيبها. لا شيء، لا يوجد لدى تعليق عليها فقط أسألك.

— حسناً، عموماً ستكون في عيد ميلادى من أول المدعوات، اعتادت عدم اكترائه بأى فتاة فهو دائماً لا يسأل عن صديقاتها الا فقط لأجل الاطمئنان على رفقتها لمن تناسبها، حيثه تشير اليه بيديها وانصرفت.

تأكد سيف من انصراف لبنى، ترك قلمه وأوراقه جانباً لترتسم على شفتيه ابتسامة، على عقله مرت بالذاكرة مواقف رغماً عنه رسمت الابتسامة على ثغره، في المرة التى ذهب للبنى يصطحبها الى المنزل، مر عليها بعد أن فرغت من محاضراتها في ذلك اليوم جلست لبنى على طاولة الطعام تنتظره، تلتهم طعاماً طلبته وقدم القهوة بالحليب الذى تدمنه، وقد استقرت قبالتها مريم تسرع في نقل الأجزاء المفقودة من المحاضرة الأخيرة، ممسكة بهاتفها تقف مجموعة الفتيات سالى ورفيقاتها يسخرن من هاتف قديم تمسكه مريم، طرازه قديم، تسخر احداهن من ملابسها فقطع ملابسها محدودة تبدل بينها، تترجل حتى مكان الإقامة الجامعية، تمزج مع لبنى قائلة المكان قريب والمشى رياضة فليس لدى بطاقة عضوية لنادى من تلك النوادي.

تقابل مريم سخريتهم بسخرية توحى بقوة شخصيتها فبدلاً من أن تهتز لذمهم لها تجدها ترد برد نارى على سخرية من هاتفها قائلة،

حقاً؟ هاتفى قديم ؟ أتعلمين، لم أكن أعلم، لكن أرى أن إحداهن قيمتها عبارة عن مجموع الهاتف والسيارة والملابس وغير ذلك لا تستحق ملين.

كان الجميع يضحك عندما تحترق سالى من الغضب، تنفث هواء ساخنا تشتعل غيظا وحنقا، ثم ترحل بسرعة تاركة الجميع يقفز من الضحك مخلفة وراءها كمية من المواقف التى تنقلب بدلا من سخرية ضد مريم فينقلب الموقف ضد فريق سالى، في ذلك الموقف كان سيف يقف من بعيد يشاهد الموقف فيضحك، تارة تقلب مريم الموقف فتجدها تجعل الجميع يسخر من هيئة البنت التى تضايقها، ، يبدو أن مريم برعت في تلك اللعبة، تسألها لبنى متعجبة، منذ متى يامريم تحولت الى تلك الشراسة والخبائة اللذيذة ؟ لازلت أذكر أيامك الأولى بالجامعة، كنت أجرى خلفك لأخفف عنك حزنك، بعد كل مرة كنت تنهارين فيها بعد مضايقتهن وتتمرهن عليك، ثم أنت الآن أصبحت ماكورة وكأنك تعدين الإجابة لكل موقف.

— أعلم اننى قد تغيرت، لا أعلم يالبنى أهو للأحسن أم الأسوء ؟ لكنى تعودت التكيف الذى يجعلنى قوية، كنت في صغرى أصادف مواقف نتيجة اختلافى عن زميلاتى اللاتى يحظين بأباء بينما أنا محرومة من الأب، الجميع حولى لهن أسرة وعائلة كبيرة وأنا وحيدة، عانيت لفترات من ضيق الحال فأمى تعمل لتتفق على.

كنت أحول المواقف حولى فأغير نظرك الجميع بدلاً من أن تتحدث
إحداهن عن فقرى ووجدتى كن دوماً يتحدثن عن شكلى وتفوقى،
برعت فى الطهى لهدف أن أساعد أمى بوجبات نعدّها من البيت فحولت
الأمر لمهارة كان الجميع يتحدث عنها، ذات مرة كان بعض البنات
يكرهننى ويسخرن منى، كان موقف التحول فى حياتى أن صنعت
كعكاً وحلوى وكانت المفاجأة أن جمعت الكل حولى فرحين
بالطعام فتحولت العلاقة بينى وبينهن الى علاقة طيبة ولطيفة.

تستطيعين القول أنها حيل دفاعية أو وسائل تكيف.

تضحك لبنى، وهى تعقب، الطريف يا مريم أنتى بت أراك
متصالحة مع التتمر والسخرية ومع كل محاولات ازعاجك فقد صرت
تضحكين وتمزحين وتردين على بعض المحاولات بطريقة تجعل من
يحاول مضايقتك يفتاظ ويتحرق هو كمدا بدلاً من مضايقتك، يتابع
سيف المواقف مندهشاً لمريم وخفة دمها.

أدهشه تصالحها مع نفسها وتناولها للأمور ببساطة عجيبة.

منذ أيام دعاها للركوب حينما ذهب لاصطحاب أخته للبيت،
شكرته ورفضت ثم انصرفت مسرعة، لم تكثر كثيراً بوجوده.
تعجب عندما أخبرته لبنى أن مريم لاتقبل أى عزومة فحينما تحاول
لبنى أن تدعوها لطعام أو تقدم لها هدية فتقابلها مريم بالرفض.

عندما سألتها لبنى عن السبب متعجبة ألسنت صديقتك المقربة ،
الست بمثابة أختك ؟ اذن فلماذا دائما ترفضين هداياى ودعوتى
للطعام؟

تكررت اجابتها ، أعلم بمكانتى عندك يالبنى ولكن اعتدت أن
أنفق بقدر ما أملك وليس بقدر ما أتواجد بمكان فلايعنى تواجدى
بمجتمع ينفق ببذخ أن أنفق وأطلب طعام أو استهلك من ملابس وغيرها
لمجارة المجتمع ، ولا أقبل هدايا أعلم انى لن أسطيع ردها بمثلها ، لا
أجد حرجا في أن أتناول شطيرة جبن أبيض في جلسة يتناول الجميع
فيها أغلى صنوف الطعام.

عالم هند

.....

في السنوات الأخيرة كانت هند تلاحق باستمرار كل الصفقات
التي أصبحت نور تتنافس عليها منافسة شرسة.

في آخر صفقة استطاعت هند تغيير الموازين بمفاجأة هائلة ، كل
الموشرات تشير الى أن الصفقة ستؤل كل أرباحها الى نور.
استطاعت هند عبر عيونها التي بثتها في شركات نور أن تدرك
خطة نور.

في الفترة الماضية بعد وفاة والد هند آلت اليها ثروته.

استجمعت أسهم شركات وعقارات وأراض لتستخدمها لتريح الصفقة، هذه الصفقة تحديدا هي حياة أو موت بالنسبة لها.

استخدمت هند كل أسلحتها، عندما آلت اليها الصفقة هرعت الى ضياء تخبره بذلك الانتصار العظيم.

لم تعد الأخبار السارة تبهج ضياء، شيء ما مكسور بداخله، يخيم الحزن على قلبه.

اشارات كثيرة الى تصرفات هند الغريبة، كل خروجها وغيابها، تدخلها في الصفقات، النيران المحتمدة بين نور وهند، مطامعها واضحة، يشعر أن كل منهما تخفى أسراراً.

يؤلمه أنه قد طال بحثه عن عالية وأولاده، يعيش محروماً من الأولاد وعنده ولد وبنت.

يخلو الى نفسه لتعصره الأفكار، جدار بالقلب صار متصدعاً، حياته لا معنى لها كم من المرات التى طال تفكيره في ولديه كم صار عمرهما ؟ لو رأى أيا منهما تراه يعرفه أو أنه سينكره ؟

ترك السباق المحموم الذى تتصارع به هند ونور، يؤلمه نظرات نور وتصرفاتها، تلك التى كانت أقرب الناس اليه أصبحت كل أفعالها وأقوالها تفيض بالكراه والعداوة، ما أقسى تلك المشاعر التى ترى فيها تحول القلوب من أقرب الناس اليك ليصير عدواً بدلاً أن يكون سندك بهذه الحياة.

يؤله ويعتصر قلبه محاولة نور أن تبعده عن عمر، رغم أنه أصبح أقرب الكائنات الى قلبه، يرتجف قلبه اذا رآه.

يشعر أن عمر يبادل ذلك الحب، يرى بعينه صورة الولد يحب خاله، لكنه يراه منجرافاً نحو حياة غريبة صعبة. جيل مختلف لا يقدر على مجاراته، يرى نور تجتهد في ابعاده عنه، تعاقبه بحرمانه من ابنها كما عاقبته بحيلها في التجارة والاستثمارات.

لطالما أراد أن يواجهها بصراحة. يسألها يقول لها ليتك تخبريني بطبيعة الحرب، ماذا علمت يانور ؟ على أي شيء تعاقبينى ؟ حريك يانور أشد إيلاماً على القلب من أي حرب أخرى، ليتنى أفتح عقلك وقلبك لأسبر غور خفاياك، النار تحرق قلب ضياء وعقله دون أن يفهم كيف يطفئها.

طوال عمره كان يقوى على أي حرب الا الحرب مع نور.

* * *

البهجة التي تشعر بها هند بفوزها بالصفقة التي ستقذ الشركات وسترفع أسهمها اجتمعت معها سعادتها بوليد، منذ أرسلته لإكمال دراسة الطب بلندن وعودته يفتح مستشفى الخاص، وهي تمده بالمال اللازم للمستشفى، تساعد وتسانده، تشجعه باستمرار، وهو يسعدها بمودته الدائمة، أخلاقه التي صارت حديث الناس،

لا زال يؤلمه أنه لا يعرف أحداً من أهله الا هند ، هي بمثابة الأم لا ينكر، ولا ينسى صنيعها ، لكن يؤلمه أنه يشبه الشجرة المقطوعة من جذعها.

لا ينسى ذلك اليوم الذى انقلبت الدنيا ، يقرع بابه جمع من رجال ضياء ، وخلفهم ضياء.

يصرخ في وجه هند ، أهانها بأفطع الألفاظ ، كانت الأخبار تصله بأن لها ابنا ، عمره يسبق زواجه منها.

كيف ؟ وماسر هذا الولد ؟

يوم دخل ضياء يصرخ في وجهها أمام وليد ، لم يحتمل وليد إهانة هند أمامه ، بادره وليد مهيناً له لا أسمح لك باهانة أمي أمامي ، الزم حدودك أو أخرج من هنا.

استشاط ضياء غضباً وزادت حدته.

أي انه ابنك ؟ هذا تأكيد ؟ لكن أود أن أفهم.

زادت اهاناته وهند على غير طبيعتها وعلى خلاف عاداتها ، تسمرت مكانها تبكى.

— نعم هي ابني ولكن ليس ابني ، أعنى ،

تلعثمت وتجمدت الحروف على شفيتها ، هو بمثابة ابني ، ابن قلبي وروحي ، نعم أخفيته لكي أستطيع رعايته.

هو ابن صديقتى واختى، لو كنت أطمئن لرد فعل أي منكم أنت
أو أبى أو حتى أهلك لما أخفيتـه.

لم أكن سعيدة وأنا أراعاه خائفة أن يعلم أحد بأمره.
دائما مهددة، خائفة، شكلى ووضعى وصورتى أمام المجتمع،
علية القوم، الناس، نعم هو كابن لي.
دلفت الى حجرة بالداخل، غابت دقيقة، عادت بأوراق ميلاده، الأم
منار، الأب اسمه أحمد عبد الله.

هند لا تعلم أهو اسم الأب فعلا أم أنه اسم اضطرت منار أن
تعطيها إياه قبل وفاتها، الا ان هند لم تكن تملك طوال السنوات الا
أن تخبر وليد بأن أمه وأباه قد ماتا بحادث وأن أهله مفقودون لا يعرف
عنهم شيء، أخبرته أنه كانت له جدة عجوز وعم وماتا.

ذات مرة ذهبت هند لأهل منار تخبرهم عن وليد، تحكى لهم
قصته، لكنهم اهانوها، ما كان منهم الا ان قالوا لم يكن لنا ابنة
وليس لنا حفيد.

شعروا أن عارها قد لحق بهم.

هاهو وليد الآن قد درج مدرج الشباب ليصبح فخرًا لهند.
كان الوقت الذى انتهت فيه آخر محاضرة في ذلك اليوم متأخرًا
اضطرت مريم للبقاء بالمكتبة لفترة ثم، اضطرت للتوجه الى المتجر
الذى تبتاع منه سلعها الغذائية واحتياجاتها بالمسكن.

كانت قد غادرتها لبنى منذ ساعات.

منذ تحركت من المتجر كان يتبعها شادى وعمر ورفقاؤهما، صدرت من سالى ونهى اشارة الى شادى، يخبرانه بأنه حان موعد البدء بتنفيذ المهمة.

ظهرت سالى ونهى أمام مريم وتظاهرا بأنها مصادفة، أبدت نهي أنها تود انتهاء تلك الخلافات التى حدثت بالسابق، تظاهرت سالى بأنها أدركت أخطاءها وأنها تشعر بتأنيب الضمير.

كان رد فعل مريم بأنها قد نسيت كل ما حدث، وأنه لا بأس من فتح صفحة جديدة.

استأذنت مريم للانصراف فوجدت نهي وقد ارتسمت مظاهر الحزن على وجهها وقد بدت قلقة، تسألها لا أدري يامريم ماسوف أفعله في امتحان الغد فقد بدأنا بالاستذكار للتو، تأخرنا عن تحصيل مافات لكن لا أدري كيف سندرس كل ما فاتنا، قاطعتها سالى يبدو أنه لا مفر من الرسوب، هيه قدرنا، تأخرنا، لو يتطوع أحد بمساعدتنا في تحصيل مافات، لكن لا أظن أننا سنجد ذلك.

ما إن سمعت مريم بحديثهما حتى انطلقت تبادر باستعدادها لمساعدتهما، تهلل وجه سالى.

- إذن فعلينا أن ننطلق فورا للبيت نراجع مافاتنا وندرس ما يجب دراسته، ترددت مريم لتبدي اعتراضها على المكان فما كان من نهي

الا أن حاولت اقناعها بأنهما ستعيدانها لمسكنها فور انتهاء الاستذكار.

تحت الضغط والإلحاح استسلمت لطلبهما فلحقت بهما بسيارة سالى، بدت نهى وسالى لطيفتين، ترحبان يميم.

كان البيت خاليا من الخدم ومن أهلها فتعلت سالى بأن والديها سافرا وأن الخادمة عند ابنتها بقريتها لأنها وضعت مولودها منذ أيام. - اذن علينا اعداد الشاى والقهوة، وهامو العصير بالثلاجة، فقط علينا أن نحضر من المطبخ الكيك.

ضحكت نهى تتادى سالى، احضرى كل شيء بالمطبخ. ابتسمت مريم التى بدأت باعداد أوراقها لتشرح لهما، طرقت جنى الباب ففتحوها لها، استقبلنها بالترحيب، استأنفن الدراسة. أكملن الدرس، لم تتصرف مريم الا بعد أن أخبرنها أنهن قد استوعبن كل شيء، شكرنها، اصطحبنها لمسكنها لاعادتها لبيتها، أشرن اليها بالتحية. في الأيام التالية كانت الفتيات يتخطين الامتحان بصورة جيدة، فقد تكررت مساعدة مريم لهن.

تكرر لقاءها بهن، انتبهت لبنى لتغير العلاقة، نبهت مريم الى أن تلك الفتيات ربما يحاولن خداعها، لكن مريم اعترضت على كلامها

فقد شعرت أن البنات قد تغيرن وأنهن يدرسن للامتحان وهى تساعدهن.

كان امتحان آخر مادة فاجتزن جميعاً الامتحان.

عندما غادرن القاعة تبعوا مريم ليلحقن بها وقد ترجلت الى مكان شراء احتياجاتها.

تظاهرن بأنهن قابلنها بالمصادفة، شكرنها على أنها ساعدتهن في دراسة مافاتهن.

في لحظة صرخت نهى سقطت من الألم وقد أمسكت بجانبها، تمتعت جنى وهى تحاول مساعدتها، أهى أزمة الكلى عاودتك ؟ حاولن حملها للسيارة، لابد من اعطائها الحقنة، لكنها بالبيت، اذن لنسرع للبيت ولنحاول البحث عن أي أحد يساعدنا، كانت تصرخ جنى في فزع وهى تحمل صديقتها، كان من مريم أن أخبرتهن أنها يمكنها اعطائها الحقنة.

رافقتهن لبيت نهى، صعدت معهن لحجرتها، بدى عليها القلق والخوف، تخشى أن يكون قد أصاب الفتاة مكروه.

ما إن دلفت معهن للحجرة حتى طفقت الفتيات الثلاث يجذبن مريم ويقيدن، دبت الحيوية في نهى التى كانت تتظاهر بالمرض، أوقعنها واختطفن هاتقها، طفقت تصرخ وتستغيث، ظهر الشباب شادى وعمر ونادر، بدى الثلاثة في حالة ترقب للفريسة التى أوقعوها في شباك الصياد.

انصرفت الفتيات تاركات مريم بين براثن الذئاب، يتهمون عليها حاولت المقاومة، تصرخ فلا مجيب.

في اللحظة التي دفعوها بعنف، لطموها بشدة، ضربوها حينما اشتدت مقاومتها.

تراجع عمر للخلف ثم اعترض طريق شادى ونادر، يصرخ فيهم قائلاً: كان هدفنا مضايقة الفتاة وارضاء نهى وسالى وجنى، لكن لم أتصور أن يصل الأمر لذلك، راح يدفع زميليه يبعدهما عن مريم مجتهداً فى فك قيدها الذى بقى منه القليل.

ضربه شادى بقوة حتى سال الدم من أنفه، ارتطم بالحائط فاستقبله نادر يوجعه ضرباً، شجار عمر مع الولدين أعطى الفرصة لمريم أن تنهض قليلاً لتقاوم، استمر الشجار لساعة من الكر والفر، تناول نادر مديته ليضرب عمر فخر مسجى في دمائه يتشطح فيها بعد صرخة استغاثة فقد الوعى بعدها.

خر مغشياً عليه، فرغ كلا الشابين لمريم فقد أحكما اغلاق الباب، قاومت الا أن قوتها أكبر من قوتها، عاودت الصراخ دون مجيب.

اشتدت المهاجمة فأفرغوا عليها ضرباً عنيفاً.

شعرت بدوار كانت تقاومه إلا أن قوتها قد خارت وهى تلهث.

اقترب شادى وقد أحكم قيدها مرة أخرى وظهر أنه قد تملك منها ، في تلك اللحظة انهالت الطرقات على الباب ، تعجب الشابان ، نظر كلاهما للآخر ، لم يفتحا الباب ، لحظات قليلة وانكسر زجاج الشرفة ليتفاجأ بسيف ، دبت الروح في مريم التى كانت المفاجأة بالنسبة لها كمركب الانقاذ للغريق.

استجمعت نفسها وجمعت ملابسها حول جسدها لا تتمم الا بالحمد لله. زفرت أنفاسها ، في الوقت الذى كان سيف يتبادل الضربات مع شادى ونادر ، نشبت المعركة في صولات وجولات ، يضربانه ويسددان اليه ركلات ولكمات ثم يتبعها ضربات قوية يوجهها سيف الى الشابين.

تبكى مريم وتصرخ فقد رأَت سيف الذى أتى لانقاذها وقد تمزقت ملابسها وسالت الدماء من وجهه ، ارتطمت رأسه بالأرض تارة وبالجدار تارة.

أتى رجال الشرطة وبصحبتهم لبنى ، التى هرعت لصديقتها تطمئن عليها.

تغطيها بمعطفها ووشاح كان ملتفاً حول رقبتها بدلا من ملابسها التى تمزقت. اطمأنت أنها بخير.

كان وجهها متوشحاً بدماء وجروح وسحجات على إثر مقاومتها ، تمزقت ملابسها ، نزلت الدماء من اللثة والأنف.

أقبلت عليها لبنى تمسح وجهها ، تعانقها بينما دخلت مريم في
بكاء هستيرى دون توقف.

ترتعد أوصالها تصطك أسنانها ، ترتجف دون أن تسكن أو تهدأ
تنظر مع لبنى الى عمر الملقى على الارض مضرجا بدمائه ، بدى وقد
سكن جسده ، هالهما المنظر ، أياكون الشاب قد مات ؟
دقائق قليلة مضت قبل أن تأتى الإسعاف تحمل عمر.

هرعت مريم الى رجال الاسعاف ، تسأل أحدهم وهى في قمة
الانهيار ، هل مات ؟ أهو حى ؟ أرجوك طمأننى.

انتبه فريق الاسعاف الى قلقها والى حالتها. فطمأنوها ، اطمأنى
فهو لا يزال حياً ، قالها وهى يضع أصابعه يتفحص وريدا برقبة عمر ،
ثم هرع الى أجهزة وأنايب يوصلها بجسده ، ثم تحركت به سيارة
الاسعاف.

بينما جاء رجال الشرطة ليصحبوا معهم شادى ونادر.
طلبوا من مريم وسيف أن يلحقا بهم الى الشرطة للإدلاء بأقوالهما.
لم يستطع شادى أن يهرب هو ولا صديقه قبل مداهمة الشرطة
كانت الساعات التى قضوها جميعا بالقسم طويلة ومرعبة.
اكتظت الردهة بقسم الشرطة بمحامى المتهمين وذويهم.

أقبلت عالية ارتمت على مريم ، تتشممها ، تتفحصها ، ذرفت
عبراتها تفرق مريم.

طمأنتها مريم ، كادت عالية تموت من القلق والهلع على ابنتها.
عرفت عالية بالقصة ، ترنو الى سيف تشكره وكلماتها مبعثرة
على لسانها ، اقتربت منه تقبل رأسه ودموعها تزرف بينما هو أمسك
بيدها يقول استغفر الله يا أمي استغفر الله ، اطمئنى ، اهدئى.

لمحت عالية الشابين وقد أتيا بصحبة عساكر يغللون أيدي
المجرمين ، فنهضت نحوهما عالية تنهال على الشابين بالضرب
واللكمات ، بينما العساكر كانوا يحاولون أن يخلصوا الشابين من
بين أيديها ، تكاد تميز من الغيظ ، تراها وكأن بركاناً أخرج
صهارته ، فار ليفرق ماحوله بحمم الغضب ، كادت تقتل الولدين لولا
أن تدخل الجميع لابعادها وتهدئتها ، بصقت في وجهيهما ، يسمع
صراخها وهى تتأديهم لن أدعكم والله لأجعلنكم في غياهب السجن
ليضيع مستقبلكما . كان أباء الشباب وأمهااتهم قد حضروا ، صرخت
في وجه الجميع .

لم تربوا أولادكم ، تركتموهم يعيشوا في الأرض فسادا والله
لأجعلنكم تدفعون الثمن .

دنى منها والد شادى لينهرها وقد اقترب منها كما لو كان على
شفا حفرة من أن يصفعها ، أبعد حسام وأشاح بيده بعيدا ، تدخل
محامو الأولاد لمحاولة فض الاشتباكات ، وتهدة الأجواء .

أدلت مريم بشهادتها، روت ما حدث، كيف اقتادتها الفتيات بعد خداعها.

كيف أشفقت على نهى التى تظاهرت بالتمب لخداعها، روت كيف قاومت أولئك المجرمين وكادت تضيع لولا أن أرسل الله اليها سيف ولبنى، كان همها الثانى هو تبرئة عمر، ذلك الشاب الذى تحول موقفه فجأة ليتلقى طعنة خطيرة، بكت وهى لا تعلم عن حالته شيء أياكون في حالة خطيرة ؟ دعت عالية أن يتحسن عمر الذى سمعت بموقفه ولم تره بعد.

دار بعقلها سؤال، من أين عرف سيف ولبنى ما جرى لمريم، كانت شهادة سيف ولبنى فيها الاجابة الشافية لمريم.

عندما استدعى سيف للشهادة روى ما حدث.

— هرعت الي لبنى أختى تصرخ، انقذنا يا سيف وانقذ مريم صديقتى، جاءتتى مكالة من رقم مجهول تخبرنى أنه يجب أن ألحق بمريم لأنقذها، لم أنتبه للصوت فقد بدى أن صاحبة الصوت تحاول التمويه على صوتها.

تساءلت مريم. من تكون تلك التى تحاول انقاذها ؟ من تلك التى صرت مدينة لها ؟

جميعهم هرعوا الى المستشفى التى يرقد بها عمر مصاباً، كان هم عالية ان تطمئن على عمر وتشكره على صنيعه، مريم التى

كانت تكره ذلك الشاب وتراه مستهتراً ، فاسداً ، بنفس القدر الذى كانت تكرهه سارت تشعر أنها أسيرة معروفة ، بكّت وهى تدعو الله أن ينجيه.

طفقت نحو الممرضات تسألن عن حالته.

أخبرنها أنه قد تمت السيطرة على النزيف ، الطعنات التى تلقاها كانت إحداهن بالقرب من الكبد.

مازال فاقدا للوعى ، خضع لجراحة وهو الآن فى غرفة العناية المركزة.

لاتزال أمام عينيها صورته يضحى بنفسه لينقذها ، كيف تحول شخص فجأة لينتقل من خانة الذئب الذى تخشاه الى قطك الأليف الذى تعتنى به.

الجميع أمام الغرفة ، يفصل بينهم وبين ذلك الجسد المسجى على فراشه نوافذ زجاجية ، يترقبون افاقته ، تعلقت به العيون ، تتبع تلك الأنابيب المتصلة بكل جسده ، يقارنون دون قصد بين تلك الحالة التى كان عليها منذ أيام من نشاط ومرح ولهو لا يلقى لكل ما الدنيا من بال وبين حالته الحالية لا حول له ولا قوة.

شيطان الأمس هو اليوم ملاك يدعون ربهم لانقاذه.

فى اللحظات التى استغرقت فيها نور فى بكائها أمام غرفته ، تكاد تسمع ضربات قلبها ، ذلك القلب الذى كاد يقفز من قفصه الصدرى.

ارتجفت أوصالها ، ارتعد جسدها ، تتلعثم الكلمات على شفيتها
عندما جاءها خبر إصابة عمر كانت كعادتها تنتظره بالبيت ،
هرعت للمستشفى دون اكتراث بملابسها التى جمعتها عليها ، وشاح
طويل فوق سروال وبلوزة متوسطة الطول.

لم تتبه لما انتعلته في قدمها.

حتى شعرها غير المرتب ، تحولت عيناها الى كتلتين حمراوين
منتفختين.

تسولت الاجابة عن أخبار عمر وحالته من الاطباء والممرضات ،
رغم أن المشفى الفخم والثرى الذى نقلته اليه للجراحة يحظى فيه
المريض بالرعاية التامة والمكثفة ، الا أن المرض هو المرض والقلق هو
القلق لا يغيره مستوى ثراء المشفى.

تجمع بالمشفى العاملون بشركات نور ، وكان الى جوارها
محمود ، بعض من زملاء عمر.

سمع صوت صياحها وهى تتساءل أود أن أفهم ، من تلك الفتاة التى
تعرض للموت بسببها ؟ وكيف حدث ذلك ؟ أود لو أمسكت برقبتى
ذلك الشابين لأنتقم منهما ، هما من جرا ولدى الى ذلك المستقع

في لحظات قلقها وانهيأها لمحت نور سيدة تعلقت عيناها بسرير
عمر ، تضرعت لربها لانقاذه الى جوار ابنتها. لم تتبه لوجه عالية

اذ ربما كان غطاء شعرها قد غطى جزءا كبيرا من الوجه الى جانب نظارة عريضة غامقة كانت على عينيى عالية.

الناس يأتون ويروحون بينما بقيت عالية ومريم بزاوية من المشفى ونور في ردهة أمام الحجرة.

التقت عينا مريم ونور، ربت مريم على كتف نور، جفلت عينا نور على رد فعل هادئ وهى ممسكة بمصحفها لا تكف عن الدعاء والقرآن.

تغيرت مؤشرات الأجهزة الى جوار عمر، فتح عينيه، تمتم بكلمات، تزايد صياح الجميع، تهلت وجوههم، استبشروا.

خرج أحد الأطباء من الحجرة بعد دقائق، ترتسم على وجهه علامات البشر، ليبشرهم بأن عمر أفاق وحالته جيدة.

سمح الطبيب بالدخول فهرعت نور نحوه دون أن يكمل الطبيب كلماته، انطلقت نحوه تلثمه تتساب عبراتها سخية وجهه ورأسه، حاول عمر طمأننتها، ثم سأل عن حال مريم ؟ هل أنقذوها ؟ ماذا جرى لها ؟ طلب من الممرضة أن تسمح لمريم بالدخول فدلفت للحجرة، وقفت الى جوار فراشه ترنو اليه، ظلت تكرر عبارات الشكر، تعلقت عيناها بأماكن الجرح، استشعر قلقها، فطمأنها أنه بخير.

قدم لها أمه، تعرفت نور على مريم، رحبت بها بإيماءة بوجهها وابتسامة هادئة.

– لم أعلم عنك أي شيء يامريم من قبل ؟ هل أنت جديدة بالجامعة ؟ من أين أتيت ؟ انطلقت كل الأسئلة على لسان نور، فقابلتها مريم باجابة هادئة:

– نعم أنا جديدة بالمدينة كلها أتيت للجامعة بمنحة دراسية لتفوقى.

– إذن يامريم لا بد أن أتعرف عليك. اسمك بالكامل، أين تعيشين؟ عمل والدك ووالدتك.

في اللحظة التي شرعت فيها مريم في الإجابة على أسئلة نور كانت عالية قد استأذنت في الدخول.

طفقت نحو عمر تقبل رأسه، تخبره أن كل عبارات الشكر والعرفان لا تكفى لتعبر عن امتنانها له، أنا أم مريم يابنى. دعوتُ الله كثيرا أن ينجيك ويحفظك لشبابك.

انتبهت لنور التي جلست الى جواره، عندما التقت عيناها بعيني نور، تسمرت مكانها، انتفضت نور من مكانها، تتفحص عالية، رمقتها، شملتها بكل النظرات الفاحصة.

– نور ؟ انت نور فريد ؟

– اذن أنت عالية ؟ أيعقل ؟

تلعثمت نور، تسارعت ضربات قلبها، بدت يداها مرتجفتان.

زفرت أنفاسها ، تناولت قاروة ماء الى جوار فراش عمر ، زردتها
بسرعة ، بدى التوتر مسيطرا عليها.

انتبه عمر ومريم الى رد الفعل المفاجئ والمدهش في ذلك اللقاء
الغريب.

مالت مريم على عالية تسألها.

أمي أتعرفين والدة عمر ؟

نفس السؤال ألقاه عمر.

بعد تهيدة عميقة شقت صدر عالية ، رنت الى نور ثم عادت تتحدث
لتخبرها بأنها عمتها.

— عمتي ؟ أتقصدين عمتي أخت أبي ؟ أبي الذى لا أعرفه ، ذلك
الرجل الذى جعلنى يتيمة وهو على قيد الحياة ؟

ذلك الذى لايعرف شيئاً عن الأبوة أو معناها ؟

كنتُ قد قررت أن أنسى أن الإنسان الطبيعى له أب ؟ كنت أتمنى
لو كان ميتاً حتى يكون له قبر أزوره ، أحدثه عند القبر وأنا أرفع
كفى باكية أدعو له بالرحمة ، أقرأ له الفاتحة وماتيسر من القرآن.

لقد حُرمت من أبسط الحقوق التى يحتاجها الإنسان.

انهمرت العبرات ، تفرحت عيناها ، استرسلت في الحديث كما لو
كانت ترغب أن لا تتوقف ، تحولت الى بركان ثائر لا يمكن إيقافه
او التحكم به.

حاولت عالية اخماد ذلك البركان، تبادلـت نظرات مع نور ثم
بادرتها نور تحاول تهدئة الموقف.

– تعلمين يا عالية أننى كنتُ بعيدةٌ عن كل تلك الصراعات، لم
أكن راضية عن كل ما حدث.

ابتعدت لسنوات عن العائلة بعد الحادث الذى تعرضتُ له، عدت
للبيت.

سألت عنك وبحث فعلمت أنك غادرت الى مكان حاولت أنت
اخفاءه، حتى ضياء بحث عنك كثيرا يا عالية.

في سخرية واستهزاء بادرتها عالية، بحث عنى ؟ فعلا والله قد قام
بما كان عليه.

أندركين يا نور ما فعلته عائلتك بي ؟ أعلمين بما عانيته، لقد
دمرتم حياتنا.

يتابع عمر حوارهم، تتنقل عيناه بين شفاههم، ووجوههم، تشتعل
ثوراتهم، يهيجون ويميجون وكأن براكينهم المحمومة قد تفجرت في
لحظة واحدة.

يرمقهم ويتفرس مريم وهو يتمتم : ابنة خالي ؟ بعد كل السنوات
التي مضت ؟ نلتقى في أغرب صور الصدفة.

تزم مريم شفيتها وهى تجيب نور بعبارات قصيرة.

- ربما ليست صدفة، ربما قدر، لا بل مؤكد أنه قدر، نلتقى جميعاً، ينقذنى بن عمى، عمى التى صنعت الحياة منها شاهداً على الحياة التى عاشتها أُمى والمعاناة التى لقيتها من تلك العائلة.

لا أعلم يا سيدتى بم أناديك، منذ دقائق احترت على اعتبارك أم زميلى وعلى اعتبار أيضاً أننا من طبقتين مختلفتين، أما الآن فحيرتى أكبر، لا أعلم كيف سأقولها، عمى ؟ أم سيدة نور، نور هانم ؟ أستاذة نور.

كل المسميات قد تكون أكثر منطقية من عمى.

لم تفلح كل محاولات نور في إخفاء توترها وضيقها فقد امتنع لونها، لاتدرى، ترى أكون سبب قلقها هو مايعانيه عمر أم المفاجأة التى وجدت نفسها جزءاً منها لتجد نفسها في تلك الحالة غير المفهومة، تحول شغلها الشاغل أن تسرع في اخراج عمر من المستشفى، ألحت على الأطباء في استئناف علاجه بالبيت، ألقى عليها الطبيب مجموعة من التعليمات والنصائح والتحذيرات فحالة عمر لا تحتمل مجهوداً عنيفاً ولا سيتعرض لنزيف شديد.

ما كان من نور الا أن وعدت الطبيب بمراعاة التعليمات والإلتزام بها بحزافيرها.

أسرعت في إعداد أغراضه لمغادرة المستشفى، حاولت الا تلتقى عيناها بعينى عالية ومريم، في الطريق للبيت كانت تطيل النظرات

لعمري، ساد صمتهما لفترة ثم قطعت ذلك الصمت لتطلب من عمر الا يتحدث الى خاله بأمر عالية ومريم.

قابل عمر غرابة طلبها بإجابة أزعجتها:

– كيف يا أمي، أنا أعلم أن خالي ضياء يبحث عن زوجته وأبنائه منذ سنوات طويلة، كم من المرات التي وجدته يتحدث بمرارة مؤلمة عنهم يتمنى لو رآهم وتحدث اليهم.

لا أفهم لماذا تريدن لأخيك أن تطول معاناته، أتعلمين يا أمي أنا أخشى أن، ، ، ،

صمت فجأة كأنما أدرك أن كلماته ستفجر بركاناً لا داعى لتفجير.

حاولت نور استدراك الأمر ثم استطردت.

– يا بنى انا أعلم رغبة خالك في مقابلة أسرته، أنا فقط أريد أن نمهد له الأمر ونمهد لدخول عالية ومريم للأسرة ليس الأمر بالسهولة التي تتخيلها، أنت لا تعلم بالنار التي ستشتعل.

قبل أن تتوقف عجالات السيارة أمام منزلها كانت قد أعطت للسائق عدداً من الأوامر بزيادة السرعة، ابتسم عمر وهو يتمتم يبدو أن لديك موعد، أليس كذلك ؟

لم تنتبه لسؤاله، حيث ظلت تحملق في هاتفها، تطلب رقماً عدداً من المرات، الهاتف مغلق، تلك الرسالة الصوتية التي جعلتها تتميز غيظاً.

هرعت لحجرتها بالطابق العلوى مسرعة، لم تنتبه بأن عليها أن تصحب عمر تساعده في الصعود لغرفته، تركت الأمر للخادومات الى جانب احضار الحقائب.

دلفت لحجرتها تكرر الاتصال، إلى أن ردت عليها.
دكتورة خلود، أرجوك أنا في غاية التوتر، أشعر ان بداخلى يحترق، أرجوك ساعدينى.

عقلى يكاد يتوقف عن التفكير، سوف أجن.
لم تتمالك نور نفسها، دخلت في حالة من البكاء الهستيرى
حملت حقيبة يدها ثم خرجت مسرعة بعد أن أخذت موعداً الى خلود.

ما إن ولجت بقدميها للعيادة حتى طلبت من الممرضة أن تخبر
الدكتورة بأنها يجب أن تدخل فوراً.

- لا لا يمكننى الإنتظار، لن أجلس، أنتِ لم تفهمى، قلت لك
أخبريها بأننى بانتظارها.

بعد تناول نور على الممرضة، اضطرت خلود لانقاذ الموقف فأمرت
بدخولها فوراً.

– نور أنا قد أخبرتك من قبل أن علاجى لك لن يجد مادمت لا تحاولين مساعدتى ومساعدة نفسك، أخبرتك أنى أشعر أنك تخفين عنى أمر

ألم يحن الوقت لتخبرينى بالذى تخفينه عنى.

هناك حلقة مفقودة فى قصتك، تلك الحلقة هي التى تؤلم روحك، هي التى توقظك من نومك، هي التى تتسبب فى توترك الدائم، أحلامك المزعجة، صراخك كل ليلة، الرجفة التى تسيطر على أوصالك، الى جانب الأفكار المدمرة التى تتملكك فى كثير من الأوقات.

أنا أعلم أنك حاولت أكثر من مرة إيذاء أخيك، حاولت قتله صرخت نور فى وجهها.

– لا لا لم أحاول قتله، من أخبرك بذلك ؟ أنت لا تعلمين شيء
– لا يانور أنا أعلم، أنت وقعت ذات مرة بلسانك، حينها كنت منهارة، كانت حالتك سيئة.

– لم أحاول قتله.

– إذن أخبرينى بم حاولت فعله.

– منذ اللحظة التى عدتُ فيها للعائلة، كنت قد أعددت لعودتى، خططتُ لكل شيء مع محمود.

زرعت في بيت ضياء خادمة، كانت عيني في قصر أبي.

بادرتها خلود ساخرة، عينك فقط يانور ؟

زفرت نور أنفاسها، لا ليس هذا فقط بل، بل..

توقفت عن الحديث، ترددت، دارت عيناها بالمكان تزفر نفساً
ساخناً ثم استأنفت، كانت تعطى ضياء عقارا تدسه بالقهوة، بل
أكثر من عقار وكذلك تعطى هند.

جعلت صحته تعتل، تركيزه يقل، كانت هند تسعى للإنجاب منه
فكنت أجعلها تتناول دون أن تدري عقاقير تجعل الإنجاب مسألة
مستحيلة بالنسبة لكليهما.

أصبح ضياء شبحاً مريضاً، لا يقوى على شيء وهو شاب.

لكن، أقسم لك لقد توقفتُ عن ذلك، توقفتُ تماماً، صدقيني
ضياء دمر حياتي، هو من قتل طارق، كنتُ سأموتُ أنا أيضاً،
ضياء يستحق القتل، ولكني لم أقتله.

تصغى إليها خلود في إمعان شديد ثم تركت قلمها جانباً، توقفت
عن التدوين، بادرتها قائلة :

ماعلاقتك بعالية وبأسرتها ؟

بدى السؤال مفاجئاً. حاولت الهروب من نظرات خلود ثم سكنت،
عادت مسترخية على السرير، لتخبرها.

- علمتُ بما حدث لعالية.

كنت قد علمت بما فعلته هند وعلمتُ أيضاً بكل تخطيطها ولكنى لم أتخذ أي موقف لمساعدة عالية، بعد فترة استشعرت ذنبى أرسلت الى عالية بمبلغ كبير لكن في هذه المرة لم يستدل على عنوانها. وعندما كنت أجد خالد يبحث عنها كنت أغدق عليه بالمال ليعود إلى ضياء يخبره بأنه لم يجدها.

أرجوك أريدُ مهدئ أقوى، أريدُ أن أخرج من حالتى التى أعانيها. صمتت خلود ثم عادت تتفرس نور و تخبرها أن علاجها ليس في المهدئ.

استشاطت نور، ليعلو صوتها على خلود، حملت حقيبتها وهى تخرج مسرعة من العيادة

* * *

لقاء

.....

ما إن ولجت قدما عمر للبيت حتى تناول هاتفه، تحدث الى ضياء أخبره بأمر عالية وابنتها، كان ضياء يعلم أن عمر بالمستشفى، انتظر حتى يتمكن من زيارته، أخبرته نور أن صحته تحسنت، لكنها لم تجب على اتصالاته المتتالية للإطمئنان على عمر.

عندما سمع صوت عمر خفق قلبه متحرقاً لرؤيته، ثم أعقبها لهفة أكبر عندما أخبره عمر بأمر عالية.

بدت اللجاجة في كلماته، الرجفة في صوته ' العبرات مختقة، الأنفاس ساخنة.

— أخبرني يا عمر، أرايت ابنتي ؟ تقول أن اسمها مريم ؟ ما شكلها ؟ أتشبهني ؟ أم أنها تشبه عالية ، أمها ؟

ألم يخبروك بما حدث لأخيها ؟

— بلى يا خالي فقد كانت عالية تبكى وهى تخبر أن عائلتك قد اختطفنت صغيرها وقتلته.

غلبت العبرات على ضياء ، نعم يابنى ، نعم فأنا علمت بذلك صفها لي يا عمر.

— يا خالي أنا لست بارعا في الوصف ، ضحك وهو يقول على كل حال هي تشبهك كثيرا ، وتشبه أمها أكثر ، عيناها وأنفها كأنها أمها أما شفيتها وذقنها فكأنه نسخة منك ، طويلة'.

ابتسم ضياء ، يتمتم:

— نعم طويلة فأنا طويل القامة وكذلك عالية.

اسمع يا عمر ، سأعرف العنوان وستصحبني الى بيتهم.

كان عليه أن يعمل على اخفاء الخبر ولو لساعات قليلة حتى يلقي

مريم.

هند بحجرة المكتب، تتدبر أمور التجارة والشركات، منذ علم ضياء بأمر وليد وأصبحت رعايتها لوليد علناً وليست في الخفاء، عندما كان يمكث فترة في مصر كانت تظهر معه بكل الأماكن، أبوها قبل موته لم يعجبه ذلك الأمر فقطع صلته بها لفترة، فذلك الولد أصبح ذكرى لماضى حاول محو أثره، كان والد هند ينوى عقابها وحرمانها من ثروته حتى يضعها تحت ضغط، فتتخلى عن وليد، لكن الأجل لم يسعفه، رحل تاركاً لها ثروته، تلك الثروة التي غيرت موقع هند في شركات عائلة فريد، انشغلت هند بتمتية الثروة وبوليد ومستقبله فكفت عن تتبع ضياء ومراقبته، ساعدها على ذلك أن ضياء قد صار لا حول له ولا قوة، ثم أنه قد بدى لها أنه قد انقطع أمله في إيجاد عالية ومريم، فاطمأن قلبها لذلك الوضع الهادئ المستقر.

انشغلت بمنافسة نور واللعب معها ومبارزتها في ساحة الاستثمار والثروات.

كلما فكر ضياء في تلك العلاقة الغريبة بينه وبين هند لا يجد لها تفسيراً، لا يفهم لماذا يبقيا في حياته، يعلم جيداً أنها من أضاعت أسرته وتسببت في قتل ولده الرضيع وحرمته من أن يكون له أبناء، ولكنه لا يدرك كيف يوقف سمها ويضع له حداً، لقد صارت هند مرضاً مزمناً لا يبرأ منه ولا يملك علاج شره وتجنب سمه.

في الموعد الذي واعد فيه عمر كان ضياء قد تأهب للزيارة.
مشاعر شتى تجيش في صدره، اضطربت نبضات قلبه، تعرق
جبينه، في الطريق حتى بيت عالية يود لو تحولت السيارة الى آلة تطير
به تسبق سرعتها سرعة الضوء، تمنى لو يطير ببساط الريح، تخيل في
عقله حوارات كثيرة تدور بخلد، بينه وبين مريم تارة، وتارة أخرى
بينه وبين عالية.

يرنو عمر الى وجه ضياء، يتفرس ملامح وجهه التي تغيرت بين ليلة
وضحاها، يرى في بريق عينيه مشاعر الشوق التي يكابدها نحو
ابنته، عشرات الأسئلة تقفز في رأسه كيف ستقابله ابنته ؟
لو ألقى اليها كل معاذيره أتراها تسامحه أو تغفر له ؟
عندما توقفت عجالات السيارة أمام منزلها راح يقدم رجلاً ويؤخر
الأخرى، فكر في أن يعود أدراجه، تردد في أن يمد يده الى جرس
الباب.

حسم عمر الموقف فتقدم خاله بخطوة واحدة ثم رن جرس الباب.
فُتح الباب ليجد ضياء أمامه سيدة يعرف جيداً ملامحها لكن لم
يألف تلك التغيرات التي ارتسمت على وجهها ومظهرها، عرفها شابة
صغيرة، لكن ربما خط عليها الزمن ملامح زادتها حسناً، لا يدرك
على وجه الدقة ما الذي تغير فيها، أهو عقلها ؟ ربما صارت امرأة أكثر

علماء، أكثر قوة، أو زادها الزمن خبرات، لا يعرف ما يجول بعقلها، لا يفهم ردود أفعالها.

طلقتها في صباحها، رمى بطفليها وقد كانت في أمس الحاجة الى اليد التي تمتد اليها تساندها.

ساد الصمت لمدة لا يمكن أن تحسبها، ولا يمكنك تحديد أهى لحظات أم دقائق أم سنوات، أغلب الظن أن لها وحدة قياس ليست معروفة بعالمنا.

تفرسها بعينين تشملها من رأسها الى أخمص قدميها، تجمد الكلام في حلقه، أتت الى جوارها مريم، أمسكت بيد عالية لدقائق، ثم أفلتتها حينما قدم ضياء يده يصافح ابنته، تسمر كل منهم في مكانه، كأن على رؤسهم الطير، جفلت عينا مريم ثم تفحصت ضياء والعبرات تملأ عينيها، اغرورقت عيناها بالدموع

انتبهت لعمر، فقطعت مريم الصمت السائد، أشارت بيدها لعمر، حيثه ثم بادرت به توجّهه للدخول، مرحبا أدخل خالك يا عمر.

— معذرة ضياء بك، فأنا لم أرك من قبل حتى أعرفك.

أعلم يا مريم، أعلم يا بنتي أنا والدك، كبرت يا مريم، لم أتخيل أنك جميلة بهذه الدرجة، تشبهين أمك حين رأيته للمرة الأولى، أتعلمين ؟ لقد أخبرني عمر أنك تشبهيني كثيرا، كم أنت كاذب يا عمر فهي جميلة جدا.

ياه يا ابنتى.

ارتجفت يد ضياء، وتمايلت قدماه التى لا تقوى على حمله لفترة طويلة، أمسك عمر بيده يساعده فى الجلوس.

— معذرة يا مريم، فخالى مريض منذ سنوات، تؤثر فيه المواقف، ويتعبه التوتر والوقوف، قالها عمر فلم تقوت مريم الموقف دون أن ترد :
— من أين كنت سأعرف يا عمر ؟ لم نعلم أخبار ضياء بك، أعتقد أنه أيضا لا يعلم شيئا عنى، أليس كذلك يا ضياء بك ؟ أتعرف شكلى قبل هذه اللحظة، أتعرف ما يسعدنى ؟ ما يحزننى ؟ جلستَ يوما الى جوارى فى مرضى، علمتَ كلمة ؟ علمتَ حرفا ؟ سهرتَ الى جوارى فى دراستى ؟ فرحتَ بنجاحى ؟ كنتَ تعد اللحظات ليزيد طولى بالسنتيمتر، تلعب معى، تجلس الى.

الحقيقة ياسيد ضياء أنا لا أملك أن أعدك أبأ.

رمىَت بي وبأُمى التى لاقت ويلات الحياة، رحلت بي تحملنى، هاربة بقطار، رأت بعينيها أخى يُخطف ليقتل، وأنت لم تحرك ساكنا ألقت بها الحياة فى محطات كانت كل محطة منها كفيلة بتدمير تلك المرأة الوحيدة الضعيفة، شابة بمقتبل عمرها جعلتها تكابد صور القهر والظلم، دفعت هي ثمن ضعفك أمام زوجتك، للعلم ياسيد ضياء انا لم أعرف كل تلك الأحداث من أمى ولكننى سمعتها من صديقاتها، سمعت بعضها من عمى حسام ذلك الرجل الذى عاش

لأجلنا رغم أن أُمي رفضت الزواج منه، لقد ظل يغدق عليا بالعطف والحنان ليُشعرني أنه أبى ويعوضني ذلك الشعور الذى أفتقده.

تلاحقت الكلمات والعبارات على لسان مريم لتوقفها عالية، في البداية لم تسمع مريم لمحاولات أمها، لم تفلح فى أن تجعلها تكف عن الكلام وكأن حاسة السمع عند مريم قد توقفت، لتتهربا عالية اصمتى يامريم، لاداعى لكلامك هذا، أبوك ضيف في بيتنا ولاداعى لكل ذلك العتاب وهو ليس وقت المحاسبة.

اعذرنا ياسيد ضياء، مريم ابنتى قد رببتها على أفضل تربية يفخر بها الآباء والأمهات، لكن معذرة فهي فقط قد اختلطت لديها الشاعر.

كلما تحدثت عالية الى ضياء نظرت الى عمر الذى يراقب الحديث لايملك الا تعبيرات وجهه، الا أن عالية تشعر بالحنو الشديد على ذلك الشاب الذى أنقذ ابنتها.

– معذرة ياعمر، فلولا ما كان يابنى منذ سنوات لكنت تربيت الى جوار ابنة خالك، تلعبان وتلهوان سوياً، لولا ذلك لكنت أيضاً رفيق أخيها بن خالك، خانتها العبرات قبل أن تكمل الجملة وتحشر صوتها ببيكاء.

ياسيد ضياء أنت ضيفنا ونحن نفهم جيداً في الأصول.

- عالية لقد جئتُ لأعوض ابنتي عن كل مافات فحقها على أبيها كبير، وجئتُ لأعوضك، لقد بحثت عنكم كثيرا أقسم أني لم أترك مكانا ظننت أنك رحلت اليه الا وبحثت فيه، فقدت الأمل في الوصول اليكم، أخطأت كثيرا في كل مامضى، عشت عمري كله أحسب للحياة وأخطئ بالحساب.

لم أقصد تدميرك معي، أرجوك يا عالية وأنت يامريم أعطيناني الفرصة وساعداني لكي أصلح بعضا من أخطائي.
علا صوت مريم واشتد نحيبها وهي تقاطعه.

- أي تعويض ستعوضني به ؟ أيمكنك إعادة الزمن واسترجاع العمر ؟ أيمكنك تعويض كل تلك الأيام التي حُرمت منها من كلمة أبى وأنت على قيد الحياة ؟

بكم من ملايينك ياسيدي ستشتري لي أياماً بت فيها ليلتي أسمع نحيب أمي على وسادتها تبكى دون أن تدرك أنني مستيقظة أنني أسمعها، تحسب القروش والجنيهات التي أحتاجها لدراستي وتحسب ما ستفعله لعلاجي.

أرحل معها من مكان لمكان، ينحني كتفها لتعمل ليل نهار لتعوضني عن حياتي.

بكم ستعوضني إحساس الفقد ومرارة الرفض ؟ أب يرفض ابنته عادت عالية تنهرها ، ألم أقل اصمتي ؟ أم أنني فشلت في تربيتك ؟

قاطعها ضياء اتركبها يا عالية فمريم محقة، ربما يا بنيتى تكون
الأيام كفيلة لمداواة الجراح، أوقف ضياء عن الكلام حالة من سعال،
احمر معها وجهه فهرع عمر وعالية لمناولته كأس ماء، زردها ثم أخرج
بخاخاً يستنشقه، ساد صمت لبرهة من زمن ثم تحسن حاله.

مضت الليلة على ضياء مختلفة عن سابقتها، جرعة الألم والندم
وجرعة من لذة لقاء ابنته، اختلج فؤاده بمشاعر شتى.

ما إن علمت هند بكل ماجرى حتى استشاطت.

تركت كل ما بيدها، هرعت لضياء، دلفت الى حجرته تدفعها
بعنف دون استئذان، تشيح بيدها في وجهه.

أما كنا قد أغلقنا ذلك الموضوع منذ سنوات ؟ أما كنا قد طوينا
صفحته ؟ لماذا عاد ليتجدد ؟

توقفى يا امرأة عن جنونك وجشعك، ألا ترين تلك المفارقات ؟ أنا
أحرم من ابنتى كل تلك السنوات في الوقت الذى تتعمين فيه بحياة مع
ولد ليس ولدى ولا ولدك، قتلت ابنى وحرمتنى منهم جميعا، وقفتُ
صامتا أمام أطماعك ولعبك القذر، جشعك وحلم الثروة التى لم
تشبعى منها، صفقاتك الدائمة التى كنت أنا واحداً منها، كنت
جزءاً من صفقاتك.

أنتِ أسوء شيطان عرفتته.

نهرته هند، استشاطت غيظا، احمرت عيناها وانتفخت أوداجها،
بادرته بصريخها في وجهه.

— لا يا ضياء لست أنا الشيطانة، أنا فقط صورة لك أنا وأنت
وجهان لنفس العملة، أنت الذى جعلت الثروة حسابك الأول، وأنا أيضا
كنت إحدى صفقاتك، أعلم ؟ أنا صفقتك الرابعة.

أنتَ قاتل زوج أختك وكدتَ تقتلها، خططتَ أنت وأبيك.
أنت من ترك طفلة لأجل حسابات الثروة، أقسم لك لو أنك كنت
تعلم أنك لن تجنى مالا وأرباحاً من صفقاتك مع أبى لما كنت لترمى
بابنتك.

أنت أكثرُ إجراماً، أنت الشيطانُ وأنا تلميذتك،
لأول مرة يدفعها ضياء نحو الباب ثم يصفعها.

أدهشها صنيعه، وضعت كفها على وجهها تتحسس موضع
الصفعة، زمت شفتيها وجبينها وهى ترنو الى ضياء تتمتم، ستدفع
أثمان ذلك باهظة.

غادرت غرفته، بعدما أشاحت بأوراقه من أمام مكتبه، لترتطم
بعض الملفات بذراعه.

استقلت سيارتها دون أن تطلب السائق، أجرت عدداً من
المكالمات، تعطى فيها الأوامر لعدد من رجالها تطلب من أحدهما أن

يتتبع نور، طلبت عددا من أخبارها، وبخت أحدهم على أنه لم يأتها بأخبار عالية ومريم وأنها علمت بالأمر وسط تقصير منهم.

قطع كل ذلك الصخب والضجر صوت محادثة جعلتها تتحول تماما، يتحول صوتها الى صوت حان، هادئ، ترتسم ابتسامة على شفيتها وكأنها مصابة بانفصام في الشخصية، أو كأنها شخصية أخرى.

لم تفشل يوما مكاملة وليد في جعلها تتحول الى حالة من السعادة. أخبرها أنه الى جانب مركزه الطبى الصغير الذى يعده فقد تعاقد ليرأس قسم جراحات القلب في مستشفى دكتور يوسف رمضان.

هند تعلم جيدا قيمة هذا الاتفاق في حياة وليد، فهو مستشفى كبير له سمعته العظيمة وكذلك دكتور يوسف قامة وقيمة في سماء الطب، المستشفى بها عدد كبير من التخصصات.

وليد استطاع أن يصنع اسماً وسيرة في عالم الطب، تعرف على سيف في سفره ثم جمعتهم لقاءات عديدة حتى نشأت بينهما علاقة صداقة جيدة، رغم أن تخصص الدراسة ومجالاتها قد اختلفت فسيف درس الهندسة، حتى أصبح أستاذا بكلية الهندسة، أخبر سيف صديقه وليد بأنه قد صمم أجنحة جديدة في مستشفى دكتور يوسف. قدم سيف لصديقه وليد عرض العائلة برغبتهم بأن يكون له قسم بالمستشفى لتستفيد من خبراته في جراحة وطب القلب، يخبره سيف أن

أباه له رسالة إنسانية في الطب وهو يعلم أن وليد يحمل بقلبه وعقله نفس الرسالة.

كلما فكرت هند في أمر وليد زاد تعجبها ودهشتها، كيف لذلك الملاك النقي أن يكون نتاج تربيته هي؟ كيف للأفعى أن يخرج من بين براثنها وجلدها حمامة خيروسلام، حقا هي لم تقصر في تربيته ولكنها لم تقصد يوما أن تزرع في نفسه الفضائل والقيم فمن أين إذن جاءته كل تلك الأخلاق؟

رغم حب وليد وتقديره لهند وقد اعتبرها أمه إلا أنه كان كلما سمع بشئ من تصرفاتها وخططاتها كان يلومها في بعض أفعالها.

يسألها دوماً لم يا أمي نعيش بحياتنا لأنفسنا فقط والحياة الحقيقية أن نصنع معروفا يظل شاهدا علينا بعد مفارقة الحياة؟

لطالما تأملت هند ملامحه، ذلك الشعر البني والعينان العسليتان، تقف الى جواره وكتفها عند صدره فتشعر بقصرها الى جانبه، تضحك كلما رآته يضحك حيث تحمر وجنتاه كفتاة خجولة، طبعه الهادئ كان يقلقها حيث مر بفترة شعرت أنه صبي منطوى، لم يخرج من حالة الانطواء تلك الا ابراهيم بن عم شفيق بواب البناية التي عاش بها طفولته وشبابه، كانت هند كلما منعتة من اللعب مع أطفال ليسوا من مستواه كان يحزن ويظل منطويا فتضطر لتركه يلعب مع ابراهيم ذلك الصبي الذكي المرح.

كان ابراهيم هو الوحيد الذى يستطيع أن يخرج وليد من عزلته،
يجعله يصادق الناس ويتحدث اليهم ويألفهم.

حتى عندما أكمل ابراهيم دراسته بكلية التجارة لم تتوقف
علاقتهما.

بحث ابراهيم عن عمل، جد في البحث، أتى وليد يطلب منه أن
يعمل معه بمركزه الطبى فهو في حاجة الى محاسب مجتهد و أمين.
منذ شهور شرع ابراهيم بالعمل لدى احدى شركات بسيطة براتب
بسيط كعمل مؤقت حتى ينهى وليد مركزه الطبى.

فى المساء أعد وليد عشاء في أحد المطاعم الكبيرة، دعى اليه
هند وسيف و ابراهيم، كالمعتاد تتأخر هند قليلا.
الا أن تعقيب ابراهيم دوماً أنت تعلم يا صديقى أن السيدة هند
اعتادت التأخير عن أي موعد.

أتذكر حين كنا نذهب لنشتري بعض المتطلبات وكنت
تصطحبنى معك، كانت أمك تدخل لأى قسم للمشتريات فتغيب
وتتأخر ونبحث عنها.

أدرك وليد أن هند تعاني مشاكل كبيرة فهي لا تتبته لحديثه،
قبل أن تنقضى الجلسة، حياى الأصدقاء بعضهم.
أكد سيف على وليد دعوته لحفل عيد ميلاد لبنى.

قابله وليد بابتسامة يخبره معها أن الدكتور يوسف بنفسه قد دعاه وألح بالدعوة وكذلك الدكتورة آمال.

قال : ربما يكون لدى بعض الأعمال فأنت تعلم أنني مشغول هذه الأيام خاصة وأن أمي تحتاجنى الى جوارها هذه الأوقات خاصة أنها منذ فترة تعاني بعض المشكلات الصحية وقد قررت اصطحابها لاجراء التحليلات والأشعة.

— لا يا عزيزى، يمكنك ضبط مواعيدك كلها بالكيفية التى تروق لك لكن لن تستطيع الافلات من تلك الدعوة.

اقترب سيف من ابراهيم يمازحه، ما رأيك أن تاتى أنت أيضاً معنا، أنت تعرف يا ابراهيم أن أصدقاء وليد صاروا أصدقاءئى. تلثم ابراهيم للمفاجأة، حاول اخفاء حرجه الا أن وليد شجعه على الذهاب معه.

انحاز سيف قليلا الى ركن من المطعم ليرد على هاتفه، قطب جبينه وبدت عليه الدهشة، حين أخبرته لبنى أن التحقيقات في قضية مريم أسفرت على أن الشخص الذى هاتف لبنى ليحذرها لعلها تنفذ صديقتها هي نهى، كانت تتحدث عبر خط هاتف موجود لديها، كان لإحدى خادمتها، أعربت نهى أنها شعرت بالذنب وتأنيب الضمير فهرعت لإخبار لبنى عن كل مايجرى لمريم، كان هما انقاذ مريم، تحكى لبنى لأخيها أن نهى قد رق قلبها وشعرت بجرمها عندما

وجدت موقف مريم نحوها بكل هذه الطيبة والشهامة فتقابله هي وصديقاتها بكل خسة وندالة ، لم يفارق خيالها صورة مريم تهرع لانقاذها بينما نهى ورفيقاتها يسعون للايقاع بها وتدميرها ، تخيلت نهى ماذا لو تمكن منها هؤلاء المجرمون ؟ أكانت تغفرها لنفسها ؟

لم ينقذ الله مريم فحسب بل إن نهى أيضا قد نجت من التهمة المشينة ، حيث وقعت جنى وسالى في الفخ الذى نصبوه لمريم ، يقضيان الأيام بالحبس بالقضية التى لازالت قيد التحقيقات ، ورغم كل هذا الزخم من المحامين الا أنهم لم يتمكنوا من اخراج هؤلاء المنحرفين من محبسهم ، خاصة بعد شهادة عمر على أصدقائه ، أدلت مريم بشهادتها التى أفادت موقف عمر فقد ذكرت أنه حاول انقاذها وأنه تلقى طعنة من الشابين اللذين حاولا الاعتداء عليها.

استغرقت التحقيقات والتحريرات شهوراً ، ذلك بسبب جهود محامى الشابين والبنات ، استمر المحامون في محاولات وجهود لنفى الجريمة عن المتهمين ، حتى أن عروض أسرهم انهالت على عالية ، اغراءات بالملايين لجعلها تسحب شكوها أو تغير شهادتها ، تعددت وسائلهم للضغط على مريم وعالية فلم تقتصر على العروض المالية بل أيضا تنوعت التهديدات.

استجمعت عالية قوتها لتجبر نفسها على تقوية موقفها ، اعتادت التهديدات وتلك النوعية من الصراعات والمواقف.

آلام الحياة قد تكسب صاحبها مناعة. فأوجاعنا تجمع بعضها بعضاً وحين تستيئس من أن تهلكنا تضطر لإعلان استسلامها أمام صمودنا فتضطر لمصالحتنا ، و تتحاز الى جبهتنا هي الحياة بعض ماكنا نعاديها أو يعاديننا قد يغير موقفه ليألفنا ونألفه.

* * *

أدهش صمودها وابنتها أسر المتهمين ، كعاداته حسام يتبنى قضايا عالية ومريم ، يقضى ليله ونهاره يبحث في سبل سعادتهما ، وقف بالمرصاد للمتهمين ومحاميهم ليفشل محاولات كل محامى منهم في تبرئة الشباب.

منذ علم ضياء بماحدث مع ابنته وهو يسعى دوماً لتعويضها ، جمعته بسيف وبأسرته عدة لقاءات ، أخبره أنه مدين له ، سعى ضياء لتحسين العلاقات بين أسرتهما خاصة وأن ضياء كثر تردده في الآونة الأخيرة على مستشفى دكتور يوسف ، في أكثر من مرة صادف أن قابل وليد في إحدى ردهات المشفى ، في كل مرة يقابل فيها وليد كان ضياء يشيح بوجهه مبتعدا عنه يتحاشى أن تلتقى به عيناه.

اعتبره وليد الإنسان الذى يتحاشى لقاءه ، كلما جمعته به مناسبة كانت أنفاس وليد تضيق ، يشعر وكأن روحه تضطرم فيها النيران ، يعد الدقائق حتى تختفى صورة ضياء من أمام عينيه ، كأن روحه

تقطر وجعاً ، أو أن حزن السنوات قد جثى أمامه في صورة شخص ، لم يكن ذلك الشعور لدى وليد فحسب بل كان ضياء يبادلّه الكراهية أضعافاً.

* * *

منذ أسابيع قليلة احتفلت لبنى بعيد ميلادها ، لم تدخر والدتها دكتورة آمال ووالدها دكتور يوسف جهداً في اسعاد وردة قلوبهما في هذا اليوم ، اكتظت فيلا دكتور يوسف بالحضور ، المدعوين والمهنتين ، تعالت أصوات الضحكات ، انهالت على لبنى الهدايا ، تجمع الأصدقاء حول مائدة مميزة زخرت بصنوف الطعام والحلوى.

لم تكن المرة الأولى يرى فيها وليد لبنى ومريم ، لفت نظره مدى انسجامهما سوياً وكأنهما سيمفونية انسجمت نغماتها تعزف لحناً عجباً يأسر قلبه.

أسرت قلبه للوهلة الأولى مريم ، خطفت قلبه دون انتباه منه ، وجد نفسه دون قصد منه يتقرب منها يتودد اليها ، جلس الى طاولته ، يزرع عصيراً قُدم له ، شرد في مريم ، لم ينتبه لسيف ولبنى قد أتيا اليه يرحبان به وبصديقه ابراهيم.

شكرته لبنى على هديته الرقيقة و من ثم على استجابته للدعوة جلست مع أخيها على طاولة وليد ، تجاذبوا أطراف الحديث الذي غلب عليه عمله بالمشفى ، استغرقت لبنى في الحديث حول مهارته

وسمعته العظيمة، لم تمل من المقارنة بين عمله بمصر وأوروبا، تسأله عن طموحه وخطته المستقبلية.

أبدت لبنى اهتمامها الشديد بوليد، حتى أنها لم تقتبه لباقي المدعوين، فقط انتبهت لأخيها سيف، استرعى انتباهها اعجابه بمريم، منذ فترة وهي تلاحظ اعجاب أخيها بمريم، شعرت أن مشاعره نحو مريم تتنامى وتزيد، تعرف أباها جيداً، تشعر به قبل أي شخص آخر، لطالما أخبرته أنه يفضل في إخفاء أي شيء عنها مهما اجتهد في إخفائه، فعلاقتها به ليست كأى أخوين، ترنو الي عينيهِ للحظات فتقرا ما به وكأنه كتاب مفتوح لها، لم يفلح في إخفاء حبه لمريم عن لبنى، فقد رأت لبنى كل ذلك من أول لحظة.

كان يسعدها ذلك التطور في مشاعره، تتمنى أن يكلل الزواج حب أخيها لصديقتها.

تكثر لبنى من المزاح مع سيف وتكثر تلميحاتها له، فيتغير وجهه، لم يقبل على مصارحة مريم بمشاعره نحوها خشية أن يقابل بالرفض، ربما كان هناك شخص آخر في حياة الفتاة.

طيلة حياته يكرس وقته للدراسة، تعامل مع الحياة بجدية شديدة أنسته كيف يتعامل مع من يخفق لها قلبه.

كلما تحدث عنها ترى في عينيهِ بريقاً، يترقق من عذب حديثه وتلك الكلمات التي تتدفق من لسان يقطر سحراً، كثيراً ما تجاذبت

لبنى مع مريم أطراف الحديث ، تلفت انتباهها لأخيها ، في الوقت الذى استرعى فيه انتباه مريم اهتمام سيف بها ، الا أنها اعتادت أن تكبح جماح مشاعرها ، لم تستسلم يوماً لتلك المشاعر ، وضعت لنفسها صورة الدرب الذى قررت أن تسير به لتعبر الى حلمها ، حلم الدكتوراة بعد التخرج ، ترى حال بيتها وأمها التى رغم ماوصلت اليه من عمل بجهدا وتعبها الا أنه سيظل هناك فارق في المستوى المالى بين العائلتين ، حقا هي ابنة ضياء فريد لكنها لم تتعامل مع المجتمع كذلك ، هي حتى الآن لم تعيش يوماً في بيته ، لم تقبل جنيتها من ثروته ، لاتزال تتاديه ضياء بك ، لازال الألم يضح به حلقها ، تستشعر مرارة حرمان السنوات الماضية ، لايزال طعم اليتيم يملأ جوفها ، لاتزال جرعات الألم والفقد تسرى بكل اوصالها.

تحرص عالية دوماً لاتتحدث عن ضياء ، كأنه لم يظهر بعد وكأن شيئاً بحياتها لم يتغير ، حتى حسام ، صار يتجاهل ظهور ضياء ، في بداية الأمر أزعجه ذلك الظهور ثم شيئاً فشيئاً صار يألفه ، سئم تكراره طلب الزواج من عالية ، فبالرغم من مكانته لدى مريم التى رأت فيه دائماً صورة الأب إلا أن عالية مازالت رافضة الزواج منه ، لازالت ترى منه صورة التخلي عنها في الماضي ، لم تقو على مغفرة هذا التخلي.

على الرغم من أن عالية ومريم لم يشعرا بتغير في حياتهما بظهور ضياء الا أن الوضع مختلف مع عمر ، لم تنس أي منهما صنيع عمر

ولا محاولته انقاذها، ليس هذا السبب فحسب بل شعرت كل منهما بأن عمر صار جزءا من حياتها، استمال قلوبهما بمرحه وشخصيته الغريبة، ذلك المزيج المذهل من خفة دم وحيوية وحنان لم يألفانه، فعمر قد تغير فيه الكثير، راح يقبل على دراسته، ربما استشعر أن هناك بشر من دمه على مقربة. منه لم يعرف إلا نور ومحمود الذى تصاعدت حدة خلافاته معها، وعلى الرغم من حب نور له الا أنها في الفترة الماضية، تحولت الى فريسة لدوامة أعمالها وصفقاتها، شعر لأوقات أنه في ذيل اهتماماتها، لم يعد محور اهتمامها، يرعبه شراستها في صراعات الثروة المضنية، في أحيان كثيرة يسمع اتفاقاتها مع الشركاء، يتدخل في الحديث معترضا على تبريرها لكل ما يحدث، كل شيء مباح من أجل الثروة، المبدأ الميكافيللى يسيطر على الموقف.

كثرت زيارات عمر لبیت مريم وعالية، منعه نور من ذلك، وجدها تكره أسرة عالية، فصار يخفى عن نور اهتمامه بعالية ومريم، يزور بيتهما دون علمهما.

من أسعد الأوقات تلك التى تدعوه فيه عالية الى مأدبتها الشهية، منذ علمت عشقه للملوخية وورق العنب والأرز المعمر والمسقعة وهى تعد له كل ما يعشقه من طعام وتدعوه اليه باستمرار، تنتظره عالية وتنتظر زيارته، شعرت أنها تبثه تلك المشاعر التى حُرمت منها نحو

ابنها الذى فقدته، في البداية كانت ستأخذ عمر بذنوب أسرته لكنها سرعان ماتخطت ذلك الشعور.

في كل مرة يأتي ضياء لبيت عالية ليرى مريم ويجلس اليها، . تضطر عالية للانعزال داخل غرفتها، تبقى حبيسة، تحكم اغلاق بابها، تمر الساعات وهي قابعة خلف كومة الملفات على مكتبها تترك لمريم واجب ضيافة أبيها، تعد عالية الحلوى والعصائر مسبقا ثم تتركها على طاولة المطبخ لتقوم مريم باعدادها للضيف غير المرغوب فيه.

تتحامل عالية على نفسها حتى تنتهي الزيارة.

منذ حادث مريم كان لابد من أن تنتقل عالية لتأخذ سكنا تضم اليها ابنتها بين جدرانها.

السبيل الوحيد الذى وجدته عالية لتطمئن على ابنتها هو أن تعيش معها بمنزل واحد، أخذت كل منهما عهدا على نفسها أن لاتترك أي منهما الأخرى.

يجلس ضياء قبالة مريم، يتحدث اليها، يخبرها أنه نادم على كل ما حدث، يتمنى أن يعوضها عن مافات.

الغصة التي امتلأ بها قلب مريم تجعلها تقابل محاولة أبيها بالصد، الا أن شيئا في قلبها يتحرك نحو ضياء، دون قصد منها، فعن

غير قصد وعلى عكس ما تحاول، تجد نفسها تتحدث اليه حديث ابنة مع أبيها.

شيء ما بقلبها يجعلها تستمع اليه، تنصت الى حديثه، أحيانا يسمعها تتحدث يُنصت اليها، يضحك تارة لمزحتها، وتارة يبدى تأثره لحديث تروي فيه مايؤلمها.

أكثر من مرة يدعوها للطعام خارج البيت، تستأذن عالية التي كانت تسمح لها بالخروج بالطبع على مضض.

كلما خرجت مريم مع أبيها تمكث عالية تعد الدقائق لا تكف عن ملاحقة الساعة تتفحصها كل دقيقة، تتردد رواحاً ومجياً بين الشرفة والحجرة،

ويح القلق، يقتلنا ببطء، يفعل فينا أشد من كل ماتفعله الأسلحة والسموم.

أحيانا يكون عمر بصحبة مريم وضياء.

أشد من كان يزعه علاقة ضياء ومريم وعمر هند ونور.

كانت هند تظن أنها تخلصت من عالية للأبد، حتى عادت.

عودة عالية كانت عودة غير متوقعة. لم تعد امرأة ضعيفة

تستجدي عطف أب على ابنته بل عادت محامية لها وزنها وقيمتها

تقضى هند ساعات من يومها تتعقب عالية، رجال هند وعيونها
يأتوها بأخبار عالية، ربما ماجعلها تطمئن قليلاً ما علمت به من أن
عالية ومريم رفضت أي مال أو ثروة تأتي من قبل ضياء
كما أن عالية رفضت قطعاً العودة لضياء.

شغلت هند في الفترة الماضية صراعاتها مع نور، فقد استشرست
نور وزادت حدة الصراع على الثروة والصفقات، أسهم الشركة،
الأرباح.

في حجرة الاجتماعات تتصاعد حدة الخلاف بين هند ونور، يعلو
صوت كل منهما، تسمع هند تتناول على نور، بينما لا تترك نور حقها
أبدأ في الشجار.

تتعمد نور اهانة هند والتقليل من رأيها.

لا تترك نور فرصة لتتبع هند، دائرة تدور بها كل منهما.

أصبح الخلاف المستعر بين هند ونور حديث الموظفين بالمؤسسة،
الغريب في حياة نور هو موقف محمود الذى استقل بأعماله
وتجارته عنها، أبدى محمود عدم اتفاقه وارتياحه للتعامل مع شركات
نور.

لجأت نور للعزلة لفترة طويلة دون أن تدري سبب ارتياحها للبعد عن
البشر كثرت مرات تردها على خلود.

في المرة الأخيرة من زيارتها لخلود طالت الجلسة.
تعانى ضيقاً شديداً في التنفس، ضربات القلب تتزايد، استسلمت
لنوبة البكاء، أخبرت خلود بأنها تعانى أرقاً شديداً استمر لأيام
طويلة، موجة شديدة من العصبية وتعكر المزاج.
بكت وهى تقول لخلود : أعلم أنك ستقولين أننى مجرمة، أنا أقدر
انسانة تعرفينها، أنا تلك المرأة التى تحولت الى أسوأ ما في الكون.
في هدوء شديد حاولت خلود تهدئة نور، ناولتها كأساً من الماء
وقرصاً مهدئاً، ابتلعت نور مسرعة.
اتكأت على السرير ثم أزاحت ظهرها للوراء وطفقت تحكى،
يتهدج صوتها بالبكاء.
أنا الضحية يا خلود لست الجانى، تربيت مع أخ لم يتعلم يوماً
الصواب والخطأ، كنت أبصر أبى فأجده يؤثرنى على أخى، كان
يحبنى أكثر من أي مخلوق، احترت في موقف ضياء، تارة كنت أراه
يحبنى أكثر من أي شيء في حياته، وتارة كنت أجده يحقد على حب
أبينا لي، موقفه دوماً يحيرنى.
لم أكن أعلم بكل أعمالهما غير المشروعة، حتى تزوجت طارق،
أحبني طارق حياً خالصاً، زوجونى له ليستفيدوا من تلك الزيجة،
فكل تصرفات أبى وأخى محسوبة.

نشبت الخلافات بينهما وبين زوجي، تعارضت المصالح، اكتشفت أن أبي وأخي يتربحان من صفقات غير مشروعة، أعمالهما غير قانونية تصاعدت حدة التهديدات بين أخي وزوجي، كنت أعد لولادة طفلي، أدركت أن شراً سيحدث لكن لم أكن أعى مالذي سيحدث فعليا.

علمت من بعض رجال يعملون لحسابي أن ضياء يعد العدة ليحرمني من ميراثي من أبي، بدأ في التلاعب في الأوراق ليستغل مرض أبي لينقل كل الثروة لحسابه.

كان يسير خلف هند معصوب العينين، دفعته للتخلص من طارق، قبل وفاة طارق بشهور استغلت هند نيفين صديقتي المقربة، أغدقت عليها بالمال، عينت أخاها بالشركة وحولتها الى خائنة، جعلتها تقدم لي عقارا يسبب لي حالات من التخيلات والضلالات والهلاوس والعصبية، كان همها وضياء أن يثبتا عدم أهليتي وأنتى لا يجب أن أتصرف في ثروتي فيجبوا أبي على حرمانى من الثروة.

ماكشف جريمة هند هو أحد المحاسبين الذين يعملون مع طارق، كان يحب نيفين وبعد أن استغلته واستولت على أمواله تركته ورفضت الزواج منه لتتحول الى غيره.

كان ذلك المحاسب يراقبها، وفى أثناء مراقبتها سعى لتسجيل محادثاتها، فما كان منه إلا أن اكتشف جريمتها، كنت قد مرضت

وبدأت في العلاج، لكن لحسن الحظ اكتشف الأمر قبل فوات الأوان.

لذلك كان جزء من انتقامي من ضياء وهند من جنس فعلهما فقد زرعت خادمة تفعل فيهما ما حاولا فعله معي، الا أنني لم أتوقف عند ذلك فقد انتقمتم من نيفين.

تعاونت مع رجل أعرفه، كان ثرياً يغري ثراؤه نيفين.

راح يتقرب اليها ويغدق عليها بالهدايا كلما طلبت منه، تسلل لحياتها، ثم زورتُ صوراً لها و جمعتُ تسجيلات، أرسلتها لكل الناس، دمرتُ سمعتها، حولتها لإنسانة ميتة.

فضحتها، جعلت منها حديث الجميع.

اتفقت مع عدد من أصدقائنا من رجال الأعمال، أشاعوا أن لهم علاقات مشبوهة بها، اغتلت سمعتها دون رحمة، وهكذا غزت عقلي جحافل من الحيل والأفكار القذرة، تجسدت شياطينا لتشبع بقلبي شهوة الانتقام.

أصيبت أمها بجلطة لحسرتها على ابنتها، أما نيفين فقد عاشت ميتة، هربت من مكان الى مكان، لاحقتها الفضائح.

للمرة الأولى بحياتي أجد شيطاناً يتحرك بداخلي، يخطط ويدبر، يدمر دون رحمة، صرت أتلذذ بالانتقام وأستمتع بالشر.

خططتُ للحجر على أبى بعدما علمت أنه أثر ضياء بأرض
وعقارات أكثر منى.

اتفقت مع بعض المستثمرين للعمل ضده، أرسلت اليهم بمعلومات
وملفات وأسرار تدمر شركات أبى.

أنا التى تتبعت هند وتتبع أسرارها وفضحت قصة وليد، كنتُ
قد علمتُ بتردها على دكتور ماجد خاصة بعد أن ساءت حالتها
النفسية، دبرتُ مايجعله يشك في وجود علاقة بينها وبين ماجد، كنت
أنوى أن أجعل ثورة ضياء على زوجته تصل للقتل، كان مخططى أن
أجعله يقتلها دون أن يفكر ودون أن يتفحص الموقف.

لحسن حظها لم يكتف ضياء بتلك الإخباريات التى أعطيتها إياها
ولكنه بحث في الأمر وتحقق منه فعلم بقصة وليد وبأن ماجد هو
طبيبها وأنه تولى رعاية وليد لفترة.

فجأة، صمتت هند، توقفت عن الحديث، التفتت حولها، هرعت من
سريرها منتفضة كما لو مسها جن، تحول صوتها، دكتورة خلود،
يكفيكى هذا فيما تعرفينه عنى، لاتحاولى معرفة أي معلومة أخرى،
التفتت إليها في نظرة زاجرة تحمل نبرة التهديد، لست بحاجة لأن أخبرك
أن أسرارى لا يجب أن يعلم بها أحد، ولا يجب أن يعلم أحد بترددى عليك.
حملت حقيبتها مسرعة نحو الباب، ونظارتها السوداء العريضة
تغطى أغلب وجهها.

فى يوم حار، دنت فيه الشمس من الرأس، انكبت عالية على الملفات على مكتبها تدرس قضية استحوذت تفكيرها كله، لم لا ؟ وهى واحدة من أهم القضايا على الساحة.

ليس عملها حكراً على شركات نور ولكن كانت لها أعمالها الخاصة.

القضية لأسعد الشويرى، قضية قتل، لا تتراوح عالية عن متهم الا إذا وجدت لديها قناعة ببراءته، ولكن هذه القضية غريبة، تناقلتها وسائل الإعلام، بين ليلة وضحاها تحول أسعد الى مسار حديث الناس الجميع يتحدثون عن أسعد الشويرى رجل الأعمال الذى قتل صديقه هشام خيرى، المهندس ورجل الأعمال بالرصااص.

تراصت على مكتب عالية عدد من فناجين القهوة، جفنها الذى احمر لطول السهر، فعيناها لم تذق نوماً منذ تولت الدفاع فى هذه القضية، تعكف على الملفات تدرسها.

رن هاتفها لتجد حسام يرد، انهال عليها بوابل من اللوم، منذ متى يا عالية تتولين الدفاع عن قاتل ؟ ام أن الرغبة فى الشهرة قد تملكك ؟ الم أخبرك من قبل أنها قضية خاسرة ؟

— تمهل يا أستاذى تمهل.

— أستاذك ؟

– نعم الست أستاذى ؟ ألم تخبرنى يوماً حينما كنت أتدرب فى مكتبك بأنه اذا تغلب حدس المحامى واحساسه بأن متهماً بريئاً ، فما عليه الا أن يتبع حدسه ، فربما ساق الله فى قلب المحامى ذلك الشعور لأنه يعلم أن هناك بريئاً يحتاج للدفاع عن أو مظلوما ستخلصه من السجن.

– أتعنين يا عالية أن لديك حدس بأن أسعد الشوبرى برئ ؟

– نعم هو كذلك.

– كيف ؟ وقد تم ضبطه متلبساً فى مكتب صديقه ويده أداة القتل ؟ ثم انه لم ينف ولم يدافع عن نفسه ، ثم هناك شهادة الشهود ، أقروا بحدوث مشاجرة عنيفة واشتباك بينهما فى الليلة التى أعقبت الحادث ، هدد فيها أسعد صديقه هشام بأنه سيقتله.

قاطعته عالية:

ربما ما جعلنى أشك بالأمر هو التجمع السريع والمرتب للأدلة ضد أسعد ، سرعة الاتصال بالشرطة ، عموماً سأظل خلف كل الخيوط حتى أصل ، حتماً سأصل.

قطع حديثها طرقات على باب المكتب لتخبرها السكرتيرة بأن ضيفاً يود الدخول.

استأذنت حسام لإنهاء المكالمة.

رحبت بضيفها ، رجل أنيق يخطو نحو عقده السادس من العمر ،
كسى البياض نصف شعره ، بعض الخطوط سلكت طريقها في
جبينه ووجنتيه ، أشارت اليه بالجلوس بعدما أشاحت نظارة القراءة
- أهلا أستاذة عالية.

- أهلا يافندم ، تفضل.

صمت هنيهة ، ثم وجدها تتفرسه دون أن تتحدث ، لمح في عينيها
السؤال ، أدرك ماتود قوله.

بادرها بالإجابة ، نعم أستاذتي ، تقابلنا منذ سنوات طويلة.
فكرت قليلا ثم عادت تسأل ، أشعر حقا أننا تقابلنا من قبل ،
لكن لا أعلم متى تقابلنا ، أو في أي مكان أو أي ظرف.
برقت الفكرة في رأسها تلوح ، ثم طفقت ، تذكرتك ، أنت الذى
جاء يعطينى مالا منذ أكثر من سبعة عشر عام ولم يخبرنى بهوية
صاحب المال.

شردت عالية لثوان في ذلك الرجل الذى جاء لبيت الحاجة أميمة ،
يطرق البيت ليلاً يسأل عن عالية.

أنته وهى تحمل مريم تبكى على ذراعيها.

جلست قبالة ليخرج لها حقيبة بها مليون جنيه.

سألته : ماهذا المال ؟

أجابها : كل ما أعلمه ياسيدتى أن أحدهم أرسل اليك بهمال
وطلب منى أن أصل اليك ، وقد بحثت عنك كثيرا حتى وصلت اليك ،
لدى أوامر بأن أعطيك هذا المال.

تذكرت عالية أن ساعتها لم تعط الرجل فرصة ليلح بالعرض
عليها ، كانت حازمة في الرفض.

لم تعط الرجل فرصة ليعيد العرض ، عاد أدراجه من حيث أتى
لم تره منذ ذلك اليوم.

قطع صوته شرودها ، طالما تذكرتتى يا سيدتى إذن فلا بد أنك
تعلمين أننى الرجل الذى أتاك قديما بالمال.

– نعم تذكرت ولكن لا أدري اليوم سبب تشريفك لي ، كانت
تسأله وهى تقطب حاجبيها ، تشعر أن لغزا خلف الرجل.

زفر أنفاسه ثم اعتدل في جلسته يضع ساقا على الأخرى ، يرمقها
في هدوء ثم استطرد قائلا : ألسنت ضيفك يا أستاذة ؟ ألن تطلبى لي
قهوة ؟ ، عندما جئتك منذ سبعة عشر عاما لم يكن لديك هذا
المكتب العظيم والاسم الرنان.

بادرته وهى تقف لتتأدى مساعدتها ، عفوا ياسيدى ، فالدهشة
والمفاجأة قد عطلانى عن تقديم ضيافتك.

– لا عليك يا ابنتى لا عليك.

كلمة ابنتى قالها فتسللت الى أذنيها ، شعرت معها بحنو غريب ،
كما لو كان الرجل يبيثها مشاعر أبوه كان يعينها بصدق.
عادت الى سابق توازنها لتحافظ على صرامة في صوتها وجدية في
أسلوب حديثها.

تفضل يا سيدى لتخبرنى بما أتى بك اليوم.
بادلها نفس الجدية ليجيبها ، مؤكداً يا أستاذة فأنا سأدخل بصلب
الموضوع.

منذ سنوات جئتُك بمبلغ من المال ، وقد مضت زهاء سبعة عشر
عام أو أكثر قليلاً ربما ثمان عشر ، استثمرت لك المال ، وللعلم ،
استثمارى المال كان بأمر من الشخص الذى أرسلنى بالمبلغ اليك
منذ سنوات ، لقد اعتبرته وديعة ، من حقك أخذها وقتما تريدان ،
ثم غبتِ أنت وانقطعت أخبارك ، بحثتُ عنك كثيراً ، اتجرتُ لك
بالمال ، دخلت صفقات ، استيراد ، تصدير ، أرض اشتريتها ، لقد بلغ
المبلغ ثروة كبيرة وصلت لرقم لايمكنك تصوره ، حتى أنا نفسى لا
أتصور كيف نمت وزاد الى هذا الحد ، تساءلت كيف أصبح مالياً
وثروة من تجارة لا تدرى صاحبها عنها شيئاً ، كنت أجد اجابة واحدة
في عقلى.

صمت هنيهة ، ثم استأنف ، أتعلمين الاجابة التى كنت أجدها في

عقلى ؟

أومأت ثم هزت رأسها ، فبادرها يجيب ، كنت أقول لنفسى لقد زادت الثروة لأننى كنت أقوم بإخلاص شديد لشخص لا أعرفه ، وهو أنت وابنتك ، كنت أرى أنك فى حاجة للمال وانه حقك.

بدت متوترة وهى تسأله ، وماذا لو لم تجدنى ؟ وماذا لو ؟ صمتت فى تردد ، فقاطعها تعنين يا ابنتى ماذا لو لم يسعبنى الأجل وتوفانى الله ؟ اليس هذا ما تريدين قوله ؟ معك حق ولكن أنا قررت أن تكون الثروة لابنتك مهما طال الزمن ، وكتبت وصيتى ووثقتها بأنه لو قضى الأجل فالمال حقك وابنتك.

اليوم جئت لأقدم لك مالك الذى اعتبرته وديعة.
نهضت من مكتبها.

— لا يا سيدى لم أقبل بالمال قديما ولن أقبل به الآن.
طبعا لن تجيبنى اذا سألتك من صاحب المال ، من أرسلك ؟
أجابها بإيماءة ، جفلت معها عيناه ، أدرك أن موقفها لم يتغير
انصرف.

عندما توجه تلقاء الباب ، استدار نحوها ، عاد ليخرج بطاقة من جيبه ، هذه بياناتى ، عندما تحتاجين أي شيء لا تترددى ، ومالك سيظل لك ولابنتك.

غادر المكتب ، أمسكت بالبطاقة تتفحصها ، حسن داوود رجل أعمال.

وضعت البطاقة بدرج مكتبها ، ظلت لدقائق تفكر في أمر المال والثروة وزيارته القديمة ، كثير من الفضول حاولت مقاومتها.

عادت لقضاياها وأعمالها.

تعكف على قضية أسعد الشوبري تستحوذ كل تفكيرها ، تذكرت أن عليها انهاء كل أعمالها والتزاماتها قبل المغرب ، فقد دعت عمر ولبنى وسيف للعشاء.

تشعر أن الزمن يمر بسرعة لا تقوى على ملاحظته فالأعمال في اليوم الواحد كثيرة لا تتقضى.

أجرت مكالمة مع مأمور السجن ، علمت من خلالها بأنه قد تم السماح لها بمقابلة موكلها أسعد ، وأن الوقت أمامها اليوم مفتوح خرجت مسرعة ، تقود سيارتها الصغيرة ، ترنو اليها لتتذكر في طريقها كيف جمعت المال جنيها بجنيه لشراء سيارة وشقة صغيرة لتعيش بها مع مريم.

تمتت وهى تزفر أنفاسها ، الحمد لله

زادت السرعة لتلتهم عجلات سياراتها الطريق الى السجن منذ تم القبض على أسعد وهو يرفض الحديث وكأنما يود أن يُقضى عليه بالاعدام.

دلفت الى المكتب مسرعة ، حيث الضابط الذى رد التحية مشيرا اليها بالجلوس ، تاركا المكتب لتتفرد بالجلوس الى المتهم.

قابلته أكثر من مرة تحاول التحدث اليه ، رجل أربعيني ، بدت عليه اللياقة البدنية ، شعره البنى كثيف انحسر قليلا عن جانبي الجبهة ، بدى متوترا ، في كل مرة كان يرفض الحديث. جلست قبالة ، تقدمت نحوه في هدوء.

— سيد أسعد أنت في كل مرة كنت ترفض الحديث ، واليوم أخبروني أنك ستتكلم ، أرجوك تحدث ، دافع عن نفسك ، أخبرني بكل ما حدث ، فلدى شعور قوى بأنك لم تقتل. لكن لا يمكنني أن أساعدك وأنت ترفض الحديث.

توقفت عن الحديث حينما وجدته يبكى منهاراً ، وهو يردد :
لم أقتل ، لم أقتل ولكنني تمنيت قتله. يجب قتله.
بادرته بكلمات ، احك يا سيد أسعد ، أخبرني ما حدث.
أشعر أن هناك ماتود اخفاءه ، لكن أرجوك الأمر متعلق بحياتك قاطعها قائلاً : هناك ما هو أهم من الحياة ، هناك أشخاص أغلى من حياتنا.

— أرجوك ساعدني يا سيد أسعد لعلى أقدر على حل اللغز انطلق يحكى.
— كان هشام أعز أصدقائي ، كنت أؤثره على نفسى في كل شيء ، أعطيته المال وقتما حدث اضطراب في تجارته وعمله ، بدأت صداقتنا منذ الطفولة. نشأنا سوياً ، عائلتنا أصدقاء.

أَمْضِينَا الْعَمْرَ وَهُوَ أَقْرَبُ لِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

لكن الحياة لا تمضى دوماً كما نحب، تفاجئنا بتغيير نظرتنا لكل من حولنا، نشبت خلافات بيننا، وكما علمت يا أستاذة من شهادات الشهود أننى هددته بالقتل في أكثر من مشاجرة نشبت بيننا صمت هنيئة، زاغت عيناه تدوران في المكان بعدما تقصد حبيبه بعرق غزير، تصاعد وجيب قلبه، تسمع أنفاسه تختلج عنيفة داخل صدره، لمحت عالية في عيني الرجل أن هناك أسراراً يجتهد في إخفائها ناولته كأس ماء كان على المكتب ثم دنت منه لتسمعه بصوت خافت، أخبرني يا سيد أسعد عن نوع الخلاف الذي نشب بينكما وتقاصيله، ليس من مصلحتك إخفاء أي صغيرة أو كبيرة عني، ما نوع الخلاف الذي يدفع للقتل ؟ طفق يصرخ بوجهها مقاطعاً لها لم أقتله أخبرتك أنى لم أقتله، إذا كان لديك شك في ذلك فاذهبي، اخرجي من هنا ولا أريد أحداً يترافع عني، قلت اذهبي.

اعتدلت في مقعدها ثم انتظرت حتى يهدأ، استأنفت حديثها

— أخبرني يا أسعد، فقد أدلى مجموعة الشهود منهم مساعده بالمكتب الذي شهد بأنه اضطر للتدخل في إحدى الشجارات ليخلص عنق المجنى عليه من قبضتك، ثم هناك شهادة زوجته سونيا التي ذكرت فيها أنه كان يحكى لها أنك تهدده بالقتل، وأنها دخلت عليه المكتب ذات مرة فسمعتك تهدده بالقتل.

ثم شهادة مساعده بأنه دخل عليك ليجدك قد أطلقت عليه النار
ووجد القتل مضرجاً في دماؤه.

بدى أسعد مضطرباً، انهمرت دموعه ثم شرع يروى لها.
- كانت علاقتى بهشام ممتازة، حتى أننى اعتبرته فرداً من
العائلة هو وزوجته.

حدثت خلافات بينى وبين منى زوجتى، خلافات عادية كتلك التى
تحدث بالبيوت، زاد من حدة الخلافات انشغالى بالعمل لفترة طويلة،
فقد كانت أُمى بضائقة شديدة، صارت فترات غيابى عن البيت تزيد
زادت الفجوة بينى وبين زوجتى، حتى أنها لم تعد تعاتبنى بالمرة،
حاولتُ العودة للتودد إليها لإصلاح ماكان بيننا، فوجدتها تبتعد
أكثر وأكثر.

طلبت الطلاق للمرة الأولى، شعرت في تلك اللحظة أن الأمر أصبح
أكثر تعقيداً من كل خلافاتنا، حاولت ارضاءها الا أنها في تلك المرة
كانت مصرة على الطلاق، طلبتُ منها أن نأخذ فرصة لنستعيد حبنا
وعلاقتنا التى مرت بفتور بسبب عملى، وافقت، لم أكن أعلم أن
موافقتها كانت مُصطنعة.

تكرر سفرى في الشهور الأخيرة وتغيبى عن البيت، بدأتُ مؤخراً
في ملاحظة بعد التصرفات من منى، كنت كلما طلبتُ هاتفها كنت
أجدها خارج البيت، كلما عدت من سفرى أجدها تتركنى وتخرج،

تتوتر كلما دخلت مكانا نتحدث به بالهاتف، الفكرة الوحيدة المسيطرة على أنها تحاول حل مشكلة طفلنا أو أن هناك مشكلة لدى أي شخص من أهلها، لم أشك بأى شيء.

ذات يوم أخبرنى ولدى ببراءة شديدة أن عمه هشام يهاتف أمه كل يوم، أخبرنى انه استيقظ ذات يوم ليجد عمه هشام بالبيت مع أمه، وفى ذلك اليوم لم تكن الخادمة متواجدة وكانت منى تظن أن طفلنا نائم، لما سأل الولد أمه عن سبب تواجد هشام بالبيت أخبرته أنه قد أتى ببعض الأوراق الهامة لي، طلبت منه ألا يخبرنى بشيئ لأنها تعد مفاجأة لي مع عمو هشام خاصة بعيد ميلادى.

تحدث صغيرى بحسن نية شديدة.

لأول مرة بحياتى أبحث وأفتش بهاتف زوجتى، الأمر صعب لأنها حرصت على قفل الهاتف بكلمة سر وبصمة وهذا بالفترة الأخيرة لجأت لشاب علمت أنه يجيد القرصنة على الهواتف، اقتحمت هاتفها الذى أصبح كأنه بيدي، صرت أسمع كل المكالمات، كل مكالماتها ياسيدتى، كلها.

بكى أسعد وهو يحاول التقاط أنفاسه، كل الشواهد أكدت وجود علاقة بينها وبين هشام.

استأنف أسعد حديثه منتحياً صوته مخفوقاً بالعبرات.

سمعتهما، سمعت كلامها معه، تمزق قلبي، تشتت عقلى الذى كان يرفض التصديق، مادت الأرض بي، كان الموت أهون على من أن أسمع وأرى خيانتها.

قررت المواجهة، أرسلت ولدى عند جدته، أبقيت زوجتى بالبيت وقررت مواجهتها قبل أن أتخذ أي موقف، للمرة الأخيرة انتابنى الفضول للتصنت على تلك المكالمات، كانت قد دخلت حجرتها مسرعة لا تعلم بوجودى، تنصت على هاتفها كما كنت أفعل، وجدتها تتشاجر مع هشام، تهدده قائلة، كيف تفعل ذلك يا هشام، أما كنت قد اتفقتُ معك على ترك أسعد لأتزوجك ؟ والآن تغدر بي، ومن أجل من ؟ الانسانة الوحيدة التى لم أتخيل أن تقيم معها علاقة، نادين أخت أسعد صديقك تلك الفتاة التى تصفرك بخمس عشرة عام، الصغيرة التى يعتبرها أسعد ابنته وليست أخته فقط.

لقد علمتُ بكل شيء، أنت تركتني لأجل نادين، أقسم أن لم تتركها لأقتلنك ولسوف أقضى على مستقبلك.

حينها ياسيديتى صعقنى الخبر، ارتعدت أوصالى، وتحرق داخلى، سمعته يرد عليها في سخرية شديدة وهو منفجر بالضحك، هل أنت مجنونة ؟ كيف تصورت أن أتزوجك ؟ أي زواج من امرأة خائنة ؟ هل انتهت النساء ؟ ثم بم تهدديننى ؟ أنت روحك ورقبتك بيدي، لدى ما أفضحك به.

شعرتُ يا سيدتى أننى أموت كمداً ، فخوفى على أختى صغيرتى
وفزعى عليها جعلنى أهرع اليها ، كنت أنا المسؤل عنها بعد وفاة أبى ،
لا أعرف كيف تسلل الحقيير اليها.

هرعتُ الى أمي ، المريضة المسنة سألتها عن نادين ، أخبرتنى أنها في
غرفتها ، لا تتحدث الى أحد ، طرقت حجرتها ودخلت اليها ، واجهتها
بأننى أشعر أنها تخفى شيئاً عني ، تمادت في اخفائها ، لم أكن
مطمئناً ، زاد قلقي ، خرجت من البيت وقد قررت أن أنهى تلك
الجريمة ، في الطريق هاتفتنى أمي تصرخ ، تخبرنى أن نادين تناولت
علبة دواء لتتسمم وحالتها خطيرة ، انتفضتُ كممسوس ، هرعتُ بها
للمشفى ، حالتها بين الحياة والموت.

غيبوبة ، دنوت منها والأنابيب معلقة بفمها ، الأجهزة ترصد نبضها ،
الأمر خطير.

ذهبتُ الى هاتقها أخرجها ، علمت من الرسائل أن الندل يرفض
الزواج منها بعدما توغل بعلاقة معها وأنه يهددها إن فتحت فمها
برسائل وصور ومقاطع فيديو له معها ، كانت تستغيث به وتتوسل إليه
أن يتزوجها لتواري فضيحتها ، سخر منها ، أخبرها أنه لن يفعل
ذهبتُ لتوى إليه بالمكتب ، تشاجرتُ معه ، كنت سأقتله ، هددنى
بايصالات أخرجها من الدرج بملايين ، حاولت ضربه وخنقه حتى دخل
المساعد وأنقذه من يدي.

هرعتُ الى زوجتى واجهتها، اضطريت وأنكرت ثم واجهتها، لم تتحمل المواجهة فاعترفت، ضربتُها، لم أملك نفسى، سحبتها من شعرها ودفعتها نحو الباب، رحت أضرب حتى كادت تموت بيدي، كنتُ قد أعددتُ مسدسًا، أتعلمين يا أستاذة، هذه أول مرة أستخدم بها مسدس، لم أتخيل يوما أن أسعى لقتل انسان، يوم ذهبت لمواجهة هشام سخر منى وقال:

أنت أيها الجبان تقتلنى ؟ أنت لا تقوى على قتل نملة، هل نسيتَ نفسك يا ولد، نسيتَ حينما كان الأولاد يشبعونك ضرباً بالمدرسة، لقد كنتُ أنا من أخلصك من يديهم، نعم يا أستاذة عالية لقد واجهنى هشام بحقيقتى، أنا ضعيف جدا لا أقوى على رؤية أحد يتألم أو يبكى، أخبرنى هشام أنه كان يرانى أحصل على أي شيء هو يحبه، كان يحب منى زوجتى قبل أن أتزوجها ثم تقدمتُ أنا لها فوافقت على، وهاهو يوقعها بشركه انتقاماً منى ومنها.

وها أنا أضربها وأحاول قتلها، صاحت تتوسل إلى ألا أقتلها وأدمر طفلنا.

حين كانت تستغيث وجدتها تقول، اتركنى وسوف أقدم لك ما يجعلك تتقم لنفسك ولأختك.

توقفتُ للحظات فوجدتها تأخذنى لمكتبى أخرجت ملفاً، بادرتنى والدم يسيل من أنفها وأسنانها.

- هذا الملف حاولت كثيراً الحصول عليه لكى أضغط على
المجرم هشام لأجبره أن يتزوجنى، الملف يحتوى مخالفات وأدلة جرائم
لهشام.

لقد فتحت الملف يا أستاذة عالية فوجدت مصائب وكوارث، صور
لسيدات مجتمع واسطوانات تجمععه بهن، بعضهن أسماء معروفة،
وبعضهن زوجات لرجال ذوى أهمية بالمجتمع، كل كارثة منهم
كافية لضياعه والقضاء على حياته.

تجمدت بمكانى وأنا أتفرس زوجتى التى ارتعدت فرائصها وهى
تتوسل الى أن أعفو عنها، دلفت خلفها الى الغرفة التى جرت تغلقها
على نفسها، ما كان منى إلا أن ناديتها من خلف الباب، أخبرتها أننى
لن ألوث يدى بقتلها ولكن رميت عليها يمين الطلاق، أخبرتها أنى
سأحرمها من ابنها ولن تراه أبداً، هددتها لو اقتريت من مكانه
لأفضحها.

خرجت من البيت دون قطعة واحدة من ملابسها.
تكومت مكانى أبكى كالأطفال، علمتُ لأول مرة كيف
أموت وقلبى ينبض، كيف يقتلنى أحدهم بلا أداة قتل، كيف يحترق
قلبى وعقلى وكل جوارحى بينما أبدو حياً.
أدركت كيف يكون الغدر والوجع من أناس لم تكن تتصور
غدرهم.

توقف عقلى عن التفكير 'رن هاتفى، رقم غريب لا أعرفه، ليس محفوظاً بهاتفى، تجاهلته، يبدو أنه حاول طلبى كثيراً من قبل ولكنى لم أهتم ولم أرد، أرسل برسالة يقول فيها : من فضلك هاتفى ضرورى فلدى معلومات بشأن هشام لتنتقم منه.

ثم رن هاتفى ثانية لأجد والدتى تستدعينى للمستشفى، أخبرتنى أن نادين أفاقت وهى بحاجة لتتحدث الى.

هرعت للمستشفى، نهبت عجلات سيارتى الطريق إليها نهياً توقفت أمام باب حجرتها، تضطرب مشاعرى، لا أقوى على فهمها، هل أنا غاضب عليها أتمنى موتها لتذهب وتدفن بعارها الذى لحقنى، كارهاً لتلك التى استغلت ثقتى بها. أم أننى أتمنى شفاءها أتضرع لله أن لاتخرج من الدنيا وقد أضافت لذنوبها انتحاراً، يشفق قلبى على الصغيرة التى احتواها قلبى فكانت الضحكة التى تضيئ حياتى بلطفها وعذوبتها، تراجعْتُ عن الدخول لغرفتها، اكتفيت بأن أُمي تطمئننى عليها، رفضتُ مقابلتها.

تعجبت أُمى لرفضى رؤية نادين فأُمى تعلم أن نادين قطعة من روحي، وتساءلت فلم أجبها.

مكثت بردهة المشفى أراقب دخول الأطباء والممرضات فأتسلل أرقبها خلف الزجاج، كاد فؤادى يتمزق خوفاً عليها لكننى لا أملك القدرة على أن أغفرَ لها.

أثناء وقوفى بالردهة دنى منى رجل، ربت على كتفى ثم قال أنا صاحب الرقم الذى طلبك، أنا الذى حاولت أن أساعدك.

حملتُ به كثيراً، تفرستُه لأجد أننى أعرفه لكن لا أعرف أين صادفته أو قابلته، ثم قدم لي نفسه أخبرنى أنه مدين لي بدين يسعى لرده.

طلب أن يصحبنى لنتحدث خارج المستشفى، روى لي الرجل أننى منذ سنوات طويلة كانت شركاته معرضة للإفلاس وكانت هناك صفقة من شأنها أن تغير وضعه وتتنقذه، بدأت أتذكر أنه وقتها جاء يطلب منى مساعدته، تركت له الصفقة، بل وساعدته آنذاك بمبلغ كبير لم أستعجله في رده، كانت الصفقة سبباً في اغضاب هشام حيث فضلت بها الرجل لانقاذه وتحسين وضعه.

أخبرنى الرجل أن هشام ظل يلاحقه ويسعى لايذائه، أحرق بضاعة له بالمخازن وأرسل رجاله لضربه وتهديده.

أخبرنى أنه كان يقوم في كل مرة محاولاً النهوض على قدميه لكن الغريب يا أستاذة عالية أن الرجل أخبرنى أنه كان يترقب هشام ويتتبع حياته ليتمكن من صد هجماته وابطال شره.

أخبرنى أنه تمكن من جمع ملفات تذهب به وراء الشمس، لم أعلم بما حدث مع زوجتك وأختك الا مؤخراً بعد ما تمكن من الايقاع بهما، شعرتُ يا أستاذتى بالحرج بينما استأنف الرجل حديثه.

كانت زوجتك تسعى للتعلق بقشة تهدد بها هشام وتدمره
بها انتقاماً منه، أنا الذى سقت اليها الملف والاسطوانات لأجعلها
تهده بها.

حقيقة الأمر يا أخى أننى وددت ضربيها ببعض زوجتك وهشام
فطينتهما واحدة، وددت أن تبقى أنت بعيداً.

اسمعنى يا أسعد، تمالك نفسك وسوف أنتقم لك بطريقتى،
سأقدمه بيدى لحبل المشنقة لكن إبق بعيداً.

سألته كيف سيفعل، أخبرنى أننى سأعرف حين يأتى الوقت
المناسب.

تركته وذهبت لأترقب حال نادين، كانت تفيق لتسأل عنى،
تنهار وتبكى.

جفلت عيناها بعد عقارات تم حقنها بها، هرعت للطاقم الطبى
أتحسسُ خبراً عن حالتها.

أخبرونى أنها تحسنت كثيراً، زالت مرحلة الخطر بعدما بدأ
جسمها فى التخلص من كمية المواد الشديدة السمية التى تناولتها،
ابتعدت عن باب الغرفة حرصاً منى على ألا ترانى.

عدت للمنزل، بحثت عن مسدسى ولكننى لم أجده، فتشت فى
كل مكان.

كدت أصاب بالجنون، انهزت، جثوت على الأرض، اضرب قدمي، عقلي لا يستوعب ما يحدث، تتمكني الرغبة بالانتقام، النيران تضطرم بداخلي.

قطع تلك الحالة مكاملة من هشام، تحدث ببجاجة شديدة، يخبرني أنه فعل كل ما كان يتمنى حدوثه منذ سنوات، فمئذ صغرنا وهو يراني أتعالي عليه بتفوقى وحب والدى لي، كانت كلماته تقتلني خاصة حين ذكرنى بأنه كان عليه أن ينتقم لكرامته حينما اختارتني منى بدلا عنه وذلك لأنه كما يقول كانت ترانى المتفوق الأغنى والأكثر جاذبية.

أخبرنى أنه انتقم ليس فقط لتفضيل منى لي بل أيضا لأنه تذكر ذلك اليوم الذى ضربه والده أمام الجميع بينما كان المدرسون يكرمونى.

لا أفهم ياسيدتى كيف احتفظت ذاكرته بكل تلك الأمور، كانت نظراته لي ولزوجتى وولدى غريبة لم أفهم وقتها أن سعادتى واستقرارى كانا يثيران حقه ويشعلان نيرانه.

خاصة في الوقت الذى ساد ببيته حالة من عدم الاستقرار مع زوجته انتقم أيضا في أختى لأنه كان يراها أهم شخص بحياتى، لقد هددنى الوقح بأسطوانات عليها كل صور أختى وزوجتى، وأنه مستعد لنشر كل تلك الفضائح ليفضحنى ويدمر سمعة عائلتى حتى ولو أدى

الأمر لضياح سمعته هو نفسه، هددنى أيضاً بإيصالات الأمانة، أغلق الخط ليتركنى وقد تأججت ثورتى.

ما إن أنهى حديثه حتى جاءتتى رسالة من رقم مجهول كان نصها، كل ما تريد الحصول عليه من مكتب هشام حالياً بدرج مكتبه والمكتب مفتوح.

حاولت الاتصال بالرقم ذاته، الهاتف مغلق.

لم أتردد، انطلقت الى شركته لا ألوى على شئ، لا توجد صعوبة في دخول مكتبه بالنسبة لى.

الوقت متأخر، لكن أمر طبيعى دخول الشركة فلدينا الكثير من الأعمال المشتركة.

لم أجد مساعد مكتبه، فوجئت بتواجد هشام، يجلس خلف مكتبه، أفزعه وجودى، تقدمت نحوه، تلقيت ضربة على رأسى أفقدتتى وعيى، عندما أفقت وجدتتى ملقى على الأرض والى جوارى جثة هشام مخرجاً في دمائه، بيدي المسدس، ومن حولى رجال الشرطة.

دخل أسعد في نوبة من البكاء الهستيرى، تداخلت كلماته، يصرخ، حاولت قتله ولم أفعل، هويستحق القتل.

زفرت عالية أنفاسها محاولة اخفاء عبراتها تصارع فى الانسياب على خديها.

صمتت هنيهة

استطردت قائلة:

لا تقلق سأخرجك من هنا ، فقط أريد كل الأوراق والملفات وهاتفك لأبحث في كل ما عليه.

عادت لتتذكر أمراً ثم استأنفت : أريد أيضاً بيانات واسم ذلك الرجل الذى قابلته بالمشفى ويدين لك ، ذلك الذى كان يعرف كل شيء عن هشام.

— حسناً أستاذة ، اسمه حسن داوود.

قفز الاسم الى مسامع عالية لتتسع حدقة عينها ، تفغر فاهها ، ماذا قلت ؟ حسن داوود ؟

توقفت قليلاً ثم وضعت يدها على جبينها وفركت أصابعها مستغرقة في التفكير ، تركت القسم وانصرفت.

عرفت طريقها الذى يجب أن تسلكه ، أخرجت بطاقته من حقيبتها لتطلب حسن داوود ، أدهشه طلب مقابله ، لكن وافق فوراً لم تدخر جهداً فأسرعت الخطى نحو شركته.

الشركة كبيرة ، كتب عليها شركات ومصانع المجد.

كان بانتظارها فما إن دلفت نحو الممر تستأذن موظفى الشركة حتى رحبوا بها وأدخلوها فلديهم علم وأمر من قبل حسن بإدخالها فوراً.

عندما دخلت اليه، رآها متحمسة، شرعت في الدخول الى صلب الموضوع.

— سيد حسن، ربما انتابني الفضول من قبل حول من أرسلك بالمال لي، لكن الأهم الآن هو أمر موكلى أسعد الشوبرى. فاجأه الأمر، اذن أنت محامية أسعد ؟ نعم أنا، تساعدنى أليس كذلك ؟ قد علمتُ من أسعد أن أمره يهملك.

— نعم يا ابنتى يهمنى وسوف أساعدك، ما إن بدأ حديثه حتى أخبره موظفوه بأن هناك محامى يطلب الدخول.

أخبرته أن الأستاذ حسام، شريكها في الدفاع، كانت قد اتصلت به في طريقها الي حسن، أخبرته بكل ما حدث في مقابلة أسعد استغرقت المراقبة ساعات طويلة، كانت عالية تسأل عن كل شيء، صالت وجالت بكل الأفكار، ظهر جلياً أن حسن يعلم كل شيء عن هشام، جمع ملفاً هائل يحوى جرائمه وفضائحه. ما جال بخاطرهما هو أن هشام له أعداء كثيرون، جميعهم تتوقف حياته على التخلص من ذلك الذئب.

أسماء مهمة على علاقة به، عدد من سيدات من زوجات رجال لهم ثقلهم.

مع كل اسم من تلك السيدات كانت تصعقها الدهشة، تكاد تعصف بعقلها.

كيف استطاع هذا العقرب أن يحكم شباكه حول كل تلك
الفرائس، وكيف وقعت كل تلك الضحايا من سيدات بمختلف
الأعمار والمستويات، كيف أتقن التلون وكيف استسلمت واستجابت
له فتيات سمحن له بضياح عائلتهن وحياتهن ؟
لاتشعر بالشفقة عليهن بقدر شعورها بالحنق نحوهن.
عكفت عالية على القضية، تجمع المعلومات، لا تترك اسماً إلا
وبحثت خلفه.

لا يغمض لها جفن، تقضى الليل تمكف على الملفات، لا تتركها
مريم إلا وتعد لها القهوة والطعام كما لو. كانت عالية تعد لاختبار هام.
كلما توصلت لنقطة انتفضت الى هاتفها تتصل بحسام.
ساعدتها حسن داوود بما قدمه لها من معلومات، أصبحت هناك
فكرة تلوح بعقلها وهى أن صاحب الرقم الذى أرسل رسالة الى أسعد
قبل خروجه من البيت واحد من أهم المشتبه فيهم، أضاف حسام الى
أفكارها تلك الخريطة التى أعدها لكل المعلومات عن كل شخصية
لها علاقة بهشام، كل سيدة كان على علاقة بها، تضمن البحث
أيضا في حياة زوجته.

علمت عالية أن زوجة هشام كانت في الفترة الأخيرة على علم
بأفعاله، نشبت بينهما خلافات تصاعدت حدتها، والغريب أن علاقتها
انقطعت بزوجة أسعد في الشهور الأخيرة بعدما كانت علاقتها جيدة.

هناك سر في تلك العائلة.

استخدم حسام كل وسائله للتوصل لصاحب الرسالة، هاتفه غير مسجل، يبدو أنه رقم استخدمه صاحبه مرة ثم رمى به. ذهب حسام وعالية لتفريغ الكاميرات، المفاجأة أن الكاميرات تعطلت جميعها بالشركة ومكتب هشام وبيت أسعد بنفس اليوم الذي حدثت به الجريمة.

لحسن الحظ تواجد كاميرا بجانب متجر بالقرب من فيلا أسعد دخلت عالية للمتجر تطلب الكاميرات، قامت بالبحث فيها توقفت عند لقطة أعادتها لتتفرس الرجل الذى ظهر بالكاميرا يدخل فيلا أسعد، الغريب أنه يدخل عبر الباب الخلفى. التوقيت الذى يلج به للباب هو الزمن الذى توقف بعده عمل الكاميرات وهذا معناه أنه هو من قام بتعطيل الكاميرا. عندما ربطا المعلومات وصلا أيضا الى أن الزمن الذى فقد فيه أسعد مسدسه هو نفس التوقيت.

لجأ حسام وعالية الى حسن، عرضا عليه الفيديو. ما إن رأى حسن صورة الرجل حتى انتفض في هلع. أنا أشك بتوفيق، والأن تأكدت شكوكى. تبادلنا عالية نظرة الفضول مع حسام.

لم يتركهما حسن كثيرا في تلك الحيرة، انطلق يروى فضولهما، توفيق هو مساعد هشام بالشركة ومدير أعماله وكاتم سره، هو

نفس الرجل الذى شهد ضد أسعد وادعى أنه دخل عليه فوجده يشهر
المسدس بوجه هشام وأن توفيق اضطر لضرب أسعد ليعطل حركته
إلا أن الرصاصة كانت قد انطلقت من مسدس أسعد.
نتيجة بحثى جئكم بأخبار عظيمة.

توفيق في الفترة الأخيرة لم يكن اليد اليمنى لهشام فقط ولكن
رجل الأعمال المهم وصاحب النفوذ والسلطة حاتم الطماوى استطاع ان
يشترى ولاء توفيق، ستجدان اسطوانات وملفات لزوجة حاتم مع هشام
منذ شهر تقريباً وصل لحاتم خبر علاقة زوجته بهشام، فقام
بتهديد هشام وملاحقته، أحرق البضاعة بمخازنه واستغل نفوذه
ليكبد هشام خسائر فادحة بعشرات الملايين.

حصلتُ من مصادرى وعيوني في بيت حاتم وشركاته على
مكالمات بين حاتم وتوفيق تظهر اتفاقات بينهما، لكن الحديث ليس
واضحاً عن أي شيء يتفقان.

كان لا بد من مراقبة توفيق، الا أن المراقبة أظهرت معها علاقته
بزوجة هشام، يعطيها أوراقاً، تعطيه اموالاً.

بدى واضحاً أن سونيا زوجة هشام لها يد في قتله.
سيطر عليهم القلق بشأن كيف يجبرون سونيا على اعطائهم
معلومات، أمسكت عالية برأسها، كادت تنفجر، لم تنم ساعات
متواصلة منذ أيام.

توقفت لحظة، اتسعت حدقة عينها وكأنها تقول وجدتها.
تعلمان أنى مسألة عن كل الشؤن القانونية بشركة نور،
وبالتبعية فأنا على علم بكل علاقات الشركة وكل الشركاء
سونيا لها أسهم بالشركات، قام هشام بكتابة نصف ثروته لها
بيعاً وشراءً، هناك ملفات تثبت نصيبها من ثروة هائلة لمجموعة من
الصفقات.

وعلمت لتوى بحدوث خلاف بشأن وثيقة تأمين خاصة بها وأيضاً
تهديدها لهشام لاجباره على التنازل عن إحدى الشركات له وإلا سوف
تفضحه بالإسطوانات والصور

استطرد حسام ضاحكاً: واضح جداً أن الملفات والاسطوانات لم
تعد سراً أصبحت في يد كل مواطن.

بادرته عالية: إذن اترك لي أمر تهديد سونيا لاجبارها على
مساعدتنا فلدى كارت جديد للتهديد.

للتو انطلقت عالية الى بيت سونيا، عندما قابلتها. لم ترحب بها
سونيا، سخرت من محاولة عالية معرفة معلومات فما كان من عالية
الا أن جلست قبالتها وضعت ساقاً على الأخرى ثم تحدثت بهدوء شديد
وابتسامة ساخرة وهى تومئ إليها باستهزاء تزم شفقتها: يبدو سيدتى
أننى سأضطر لتذكيرك ببعض المعلومات، منها مثلاً، صمتت هنيهة
ثم استطردت، أنا مترددة من أين سأبدأ.

دعيني أبدأ بشهادة الطب من لندن، ثم ضحكت وهى تخرج أوراقاً من حقيبتها، دعيني أخبر المجتمع الراقى بطبقاته المخملية أن الدكتور سونيا عبد الهادى ليست دكتورة بالمرّة وهذه ردود الجامعة التى تدعى أنت أنك تخرجت منها.

ورقتى الثانية يا دكتورة، الصفقات التى دخلت بها وأردت اقتحام عالم التجارة هاهى الآن ستذروها الرياح عندما أخبر الجميع بأن هشام لم يوقع عليها وأطعن بالتوقيع. آه نسيت أن أخبرك بشيئ آخر.

تذكرين حادثة قتل السجين عباس أبو شوشة ذلك الرجل الذى تم الزج به للسجن بدلاً منك منذ سنوات عندما صدمت شاباً وأخته في الطريق أثناء قيادتك بسرعة جنونية، تذكرين؟ أم أذكرك؟ يومها قدمتم مالا للرجل ليعترف على نفسه أنه هو من كان يقود السيارة، خرجت أنت من القضية آنذاك.

أتعلمين يا دكتورة؟ عندما فتشت في تاريخك وماضيك أدركت أن الحياة ممتلئة بأفاعى يجب التخلص منهم، وللعلم أنا لن أتركك بجرائمك السابقة ولكن فقط أعمد الى تأجيلها لأتناول واحدة بواحدة، ثم محادثاتك مع توفيق الذى كان عينك على هشام، واتفاقت مع عادل بسيونى ذلك الذى أراد التخلص من هشام لأن كل منهما احتال على الآخر فأخبرته أنت أنك ستتخلصين منه بطريقة ولكنك

تريدىن المكافأة بأن يقدم لك عادل معرض سيارات كامل، عموماً
لدى تسجيلاً بهذا الاتفاق، وعادل نفسه لم ينكر، بل لدى دليلى على
ذلك بشهادة واعتراف شريك لكم اضطر للقفز من السفينة قبل أن
تفرق به فباعكم جميعاً.

صرخت سونيا مقاطعة لعالية.

— لا لا لست أنا من قتله أقسم لك، من فعلها هو توفيق ولست أنا
من سلطه ليفعلها.

سأقدم لك كل المعلومات حوله وسأحدث

توفيق منذ فترة يعمل لصالح حاتم وعادل بسيونى، استطاعا
شراءه بالمال.

منذ شهور جاعنى توفيق بأخبار هشام، زاد غيظى وغضبى عليه،
صرت أكره هشام اكثر من ذى قبل.
علمت أيضاً بعلاقته بمنى ونادين.

كان عادل وحاتم ضمن أولئك الذين اعتدى هشام على عرض
نسائهم، تورطت زوجاتهم في تلك المصيبة.
كرسا كل جهدهما للقضاء عليه.

لم يفصحا لي عن نيتهما بقتله ولكن أخبرانى أنهما سيعيدانه
فقيراً بيداً من الصفر، سيحولون كل ثروته لحسابى وأنهما سيسلطون
عليه بلطجية لضربه لتأديبه.

فكرت في أنه سيتم ضرب عصفورين بحجر واحد.

أستعيد كرامتى التى أهدرها هشام وأنتقم منه و أحصل على كل الثروة التى يتغير معها مسار حياتى.

لم يكن بالحسبان قتله ، أقسم لم يكن بنيتى قتله. عندما قتلوه ظننت أن أسعد قتله انتقاما ، شككت بتوفيق والرجال الذين عمل لحسابهم لكن أبعدت كل الشكوك عن رأسى ، أبعدتها حتى أبرر لنفسى الاستمتاع بالثروة.

كان توفيق بالشركة ذلك اليوم ، طلب من هشام الحضور للمكتب ، كان وقتا متأخرا ولم يكن هشام معتاداً على الذهاب بذلك الوقت لذلك المقر تحديداً.

أخبرنى توفيق أن رجال حاتم وعادل سيؤدبان هشام وأنه سيتم إجباره على التنازل عن كل الممتلكات لي. لم أعلم شيئاً بعدها فقط ربطنى بتوفيق أنه يجمع لي كل المستندات والصفقات لأدير الأمر.

فى الساعات القليلة التالية

.....

أحكمت عالية الخطة للإيقاع بتوفيق. أرسلت رجالاً لتوفيق يخبره أن حاتم يطلب منه ألا يتصل به حالياً وأن يبتعد عن الوسط كله فالشبهات تحوم حوله ، أخبره أن عادل بسيونى اعترف عليه واتهمه بقتل هشام.

لتوه ذهب توفيق للقاء عادل، تشاجر معه، علا صوته وهو يقول
أتبيعننى يا عادل بك ؟ أنا لدى كل التسجيلات التى اتفقت معى فيها
على التخلص من هشام.

لست أنا الذى يتم بيعه بهذه الطريقة، أنسيت أننى لما قتلته كان
بتخطيطك ؟ استدعائى لأسعد وجره للمكتب وضربه على رأسه
بتخطيطك، أما فكرة ان أضع المسدس بيد أسعد فهي فكرة
شريكك حاتم، أنا فقط للتنفيذ يا عادل بك.

أريد حقى وسأبتعد فوراً.

كانت عالية قد اتفقت مع الشرطة والمباحث 'مراقبة توفيق
بالتسجيل الصوتى، اعترافه الكامل.

اندفعت رجال الشرطة تحيط ببيت عادل وحجرة مكتبه ووضعت
القيود بيديه وبيد توفيق.

تجمعت خيوط القضية لتضع عدداً من الأسماء داخل السجن،
ترافعت عالية لتخرج أسعد من محبسه.

صوتها يدوى بالمحكمة، تتجه إليها العيون ترنو في إعجاب
ودهشة، تلك المحامية التى صار حرياً بها أن يتصدر اسمها ساحات
القضاء وعناوين الصحف وحديث الناس.

في آخر لقاء لعالية بحسن كانت قد همت للخروج من مكتبه
بعدما أنهيا تداولهما بشأن القضية، عندما دلفت الى الباب، تراجعت

للخلف قليلا تبتسم ابتسامة هادئة تسأل حسن، أما زلت تصر على
اخفاء هوية صاحب المال الذى أودعك اياه لأجلى ؟
أجابها بابتسامة مأكرة من خلف نظارته، وأما ما زلت ترفضين
المال ؟

أجابته بإيماءة رفض وهزة رأس قوية وحيته منصرفة

* * *

قلبي معك

.....

في ذلك المساء كان الظلام قد خيم على قصر ضياء، البرودة
شديدة في تلك الليلة، أقعدت هند في غرفتها، جلست واجمة، لا تدرك
نوع تلك البرودة التي سرت في أوصالها، قلبها يدق دقات غير معتادة، ربما
خوفها من مجهول لا تعلمه، شعورها بوحدة وغربة يزيد في كل لحظة.
كثرت النقاشات التي تدور بينها وبين وليد الذي أصبح معترضاً
على كثير من تصرفاتها، دائماً يعترض على تبريرها لكل خطأ
ولكل جريمة، تقدم رشوة لتخليص عمل ما، تتفق على خصم لتزج به
في السجن للتخلص منه.

حاولت دائماً اخفاء أعمالها عنه لكن في بعض الأحيان كان يعلم
لطالما أخبرها أنه يود لو عاشت فقيرة بالحلال ويتمنى أن تترك كل
تلك الأعمال التي تفقدها نفسها.

صار الطمع يزداد والنهم للثروة، ربما يزعجها ذلك التهديد الذى جاءها بالأمس عندما حدث خلاف بينها وبين بيير ديمو ذلك المستثمر الفرنسى، أعمالها معه كثيرة، تنوعت بتجارة أسلحة وغسيل أموال، أعمال كثيرة مشبوهة وصفقات غير نظيفة.

عندما طالبت بزيادة العمولة هدها، بيير ليس كل الكيان الاستثمارى ولكنه صورة وواجهة لؤلئك المستثمرين الذين يتجرون بكل شيء، يستغلون طمع وجشع أمثال هند.

جمعه بوليد أكثر من لقاء، لم يحدث أي ارتياح له من قبل ولید حتى أن ولید رفض عرض بيير، كان عرضاً مغرياً، يدفع بيير مبلغاً ضخماً، يشارك ولید بمستشفى للقلب لتصبح أكبر مستشفى بالشرق الأوسط.

توسطت هند كثيراً لاتمام الشراكة، غير أنه رفض بشدة اضطربت العلاقة بين هند ووليد، تتجنب هي أن تلتقيه أو تقابله، صار يؤلمها هذا الخصام فهند التى لا يزعجها أي علاقة بإنسان يؤلمها أن يخاصمها ولید، وهل هناك في حياتها نقطة ضعف إلا ولید ؟ جثت هند على فراشها، لم تصمد أمام رغبته بالبكاء تستسلم لها، لم تحاول مقاومة البكاء هذه المرة.

علا نشيجها حتى صارت الخادما تسمعنها لكن لا تجرؤ أي منهن على الدخول عليها، فجأة انقطع الصوت.

كان الموعد الذى تدخل عليها خادمتها بالعصير و حبة دواء الضغط ، طرقت الخادمة الباب فلم يأت من الداخل صوت هند .
الأمر لا يمر على وليد هيناً فتعلقه بهند كبير ، يعترض على كثير من تصرفاتها ولكن لا يملك مقاطعتها ، يحبها أكثر من كل البشر فى الكون ، لطالما بثته كل حنان الأم والأب . عاشت له كل الأهل ، لم تبخل عليه يوماً بمال أو حب أو رعاية ، نسى الى جوارها أنه بلا عائلة معه ترى لهند وجهاً آخر ، ترى ملاكاً خيراً يشع حباً ، هى نفسها لا تعرف سر ذلك التحول الذى يطرأ عليها عندما تكون مع وليد لطالما سعى وليد لتغيير ما يسوءه منها .
لم يدخر جهداً لجعلها انसानه سوية .

* * *

عندما استيأست الخادمة من أن تسمح هند لها بالدخول ، دخلت عليها ، صدرت من الخادمة صرخة مدوية بالقصر تجمع على إثرها كل أهل القصر ، توجهوا الى هند التى كانت ملقاة على الأرض ، تفحصوا أنفاسها التى تكاد لاتذكر ، لونها يضرب الى زرقة تشى بأن القلب معتل .

هرع اليها ضياء ، اختلجت نبضات قلبه ، يتفرسها فى حالة من التوتر ، عندما قرروا استدعاء طبيب كان الاتفاق على استدعاء وليد

تحديداً فهو الأكثر دراية وعلماً بحالتها، رغم كراهية ضياء لوليد
الا أنه لا يملك أن يذكر بالشاب عيباً واحداً يراه، كلما فرغ الى
نفسه وفكر بوليد تمنى لو كان له ولد مثله.

ما إن علم وليد بحالة هند حتى ترك كل مايشغله ليكون أمامها
يفحصها.

منذ سنوات وهى تعاني ارتفاعاً فى الضغط وعدم انتظام بضربات
القلب، كان الأمر تحت السيطرة.

أمسك بمعصمها يتفحصه ويتفحص وريداً بـرقبتها، أجرى لها
اسعافات سريعة لينعش عضلة القلب، يضغط بكفيه ضغوطات
محسوبة على قفصها الصدرى، كان قد أعطاها حقنة بالوريد،
الجميع حولها يترقبون، لم تتأخر السيارة المجهزة لنقلها لمستشفى وليد
كل من يسأله عن حالة هند كان يتلقى الإجابة من وليد بأنها فى
وضع حرج وستتحسن.

لم يفارقها سواء وهى بالسيارة وحتى عندما أدخلها الطاقم
المتخصص الى غرفة العناية المركزة، ظل الى جوارها يمسك
معصمها، عيناه لا تتفك تفارق أجهزة قياس النبض وكهرباء القلب.
يتابع المؤشرات، أمر بان يخرج الجميع، معه فقط طبيب زميله هو
صديقه دكتور مصطفى موضع ثقته فى المستشفى، وواحداً من أمهر
زملائه، تقف الى جوارهما لتساعدهما ممرضة.

أخبره مصطفى أنه يتابع هند منذ شهور، حالتها كانت غير مستقرة، استحلفته أن لا يخبرَ وليد، أخبره مصطفى أنه حذر هند مراراً من التوتر وارتفاع الضغط، كما أنه أخبرها بضرورة الجراحة بأسرع وقت.

ذكرها بأن تلك الجراحة لن يتمكن من إجرائها الا دكتور وليد، كانت كل الأدوية والعقاقير التى أعطاهها إياها تعتبر بمثابة تثبيت للوضع الراهن حتى لا يسوء.

استشاط وليد غضباً يوبخ زميله:

كيف لاتخبرنى ؟ أنت تعلم خطورة الوضع وضرورة اجراء الجراحة وتستجيب لها ولا تخبرنى.

رغم الحالة التى وصل إليها وليد الا أن مصطفى استطاع تقبل وتفهم الحزن والغضب الذى أصاب وليد.

ربت على كتفه ثم أشار اليه بالجلوس يذكره بأنه فى أكثر من مرة حاول تنبيهه الى أن أمه هند حالتها غير مطمئنة.

بادر مصطفى قائلاً: لطالما أخبرتك يا وليد أن السيدة تعاني مشكلة صحية وعليك أن تتبّه لها وأن لا تتساق لخلافات بينكما.

رمقه وليد بنظرة ذاب فيها المزيج بين اللوم والعتاب والندم، زفر أنفاساً عميقة، طلب من مصطفى ومن الممرضة أن يتركاه معها وحده.

اتخذ كرسياً الى جوار سريرها، يتفرسها، يدقق النظر فى عينيها اللتين جفلتا، يديها اللتين ازدحمت شرابينهما بأنايب وأسلاك، تلك اليدين اللتين طالما قدمتا له مالم تفعله كل أيدى البشر، شرد ملياً فى السنوات التى جعلت له هند من حنوها ورعايتها صبياً مثالياً فى دراسته، خلقه، علمه.

كانت توليه اهتماماً لم تقدمه لأحد غيره.

كانت على استعداد لترك ضياء وقصره وثروته لأجل ولید.

لم يشعر بيئته فقد كانت تغدق عليه بكل ألوان الحب. يشعر باللوم لنفسه، لايزال يعاتب نفسه قائلاً : كان على أن أفصل بين احساسى بأخطائها وإحساسى بأنها أمى، كثيرون وُلدوا لأباء غير أسوياء فلم ينف ذلك واجبهم نحو هؤلاء الآباء ببرهم.

تذكر تلك الليلة، حينما دخل البيت متأخراً كانت تعلم أنه لن يأتى بالليل بل سيأتى بالصباح، انتظرت بهجرتها،

جهز لها مفاجأة، أتى يحمل صنوفاً من الحلوى والفطائر التى تحبها وبجيبه علبة قطيفة لخاتم أعجبه، أراد أن يقدم لها هدية محفلاً بأول جراحة كبيرة يجريها ويتحصل منها على مبلغ كبير تسلل فى هدوء كى يحكم المفاجأة، كان الضوء خافتاً، هى لم تتوقع مجيئه الآن، صوتها كان مضطرباً.

كانت أمام اللاب توب، من الواضح أنه اجتماع عبر انت،
مجموعة من الرجال تظهر أصواتهم وصورهم عبر شاشة اللاب توب
سار خلف فضوله أو ربما قلقه عليها، تسلل خلف الباب، لم يكن
مقفلًا بالكامل، كان ظهرها للباب.

استرق السمع، تبين بعض الجمل والعبارات.
اجاباتها عليهم فيها حدة، وضيق.

بدت متوترة، سمعها وليد تقول: أعلم أنني استفدت كثيرا من
ورائكم ومن استثماراتي معك لكن الآن أنا أريد الانسحاب، الوضع
صار أكبر من مجرد تجارة وغسيل للأموال، لقد صرت شريككم
فى تجارات غير مشروعة.

عمليات قذرة، أنا انحدرت معكم لطريق أريد الخلاص منه.
كان الرد يأتيها من كل الأشخاص عبر انت بأنه لايمكنها
التراجع، هددوها.

لا يستطيع وليد التمييز بقوة عبارات التهديد.
تراجع للخلف، صدمته قد شلت أوصاله، أصبح لايفهم ما يحدث،
هند لم تكن يوماً تفصح له عن أعمالها وتجارته.
كان يزعه قديماً علاقتها بضياء وبأسرة فريد، أزعه انشغالها
بالثروة على حساب القيم.

أزعجه موقفها الذى علمه من مريم وأما حينما اقترب من عمر ومريم وسيف.

أدرك أنها خططت ونفذت جرائم بحق عالية وأسرتها ، علم أن هند هى من أرسلت لقتل عالية وأنها اختطفت ولدها وقتلته.

كانت تلك الجرائم ما جعلته يتخذ موقفا ضدها ، لكنه قاوم كل تلك المشاعر وعاد يصالحها ، لعلها تتغير وتتوب عن حياتها وذنوبها السابقة.

صراع ظل يمزقه بين حبه لها واحتقاره لأفعالها ، لعله كان يشعر أنها نقطة ضعفه بحياته.

تذكر كيف بدأت الأمور تتكشف له حينما استغل صديقه إبراهيم حيث طلب منه أن يستغل حسه الاستخباراتى ليأتيه بكامل سجل عن كل أعمالها وتحركاتها ، راح إبراهيم يستخدم صديقا يعرفه بمكتب هند وفتاة أغدق عليها بالمال ليأتيها بكل التفاصيل المطلوبة والمعلومات التى تكشف له ما يريد.

ابتأس حينما أتاه بأخبار تؤكد أنها تبرم اتفاقات وتعقد مشاركات بأعمال مشبوهة.

كان الشاب مترددا وهو يخبر وليد بما تفعله هند الا أنه اضطر لمصارحة وليد حينما جعله يقسم على اخباره بالحقيقة.

الشبكة الدولية التى تعمل لصالحها جعلتها مشاركة بجرائم كثيرة، كان الوضع أكبر من استيعابه.

راح وليد يضرب رأسه وجبينه بكفيه يلوم نفسه، كان يجب أن يكون لى موقف أكثر صرامة، كان بإمكانى أن أستغل حبها لى وأهددها بأنى سأرحل، لكن لا يجب أن أتركها وحدها.

مالذى فعلته أنا حيال كل ما قدمته لى ؟ استمتعت بحياة هادئة مترفة ولم أسأل عن مصدر المال، لم أقدم شيئاً للسيدة التى ربتنى قطع شروده اضطراب بأصوات أجهزة وشاشات متصلة بجسدها. انتبه للتغيرات الطارئة، استدعى التمريض يطلب منهم أن يناولوه بعض العقاقير، ضبط مؤشرات الأجهزة، تفحص جهاز التنفس زاد من قوة جهاز الكارديو المتصل بالقلب ليسدد إليها ضربات كهربية تنعش القلب.

تساقطت عباراته ازاء حالتها، تملكه الرعب والهلع، يصرخ فى المحيطين ويشعر وكأنه قد نسى الطب، هو الآن ليس أمام حالة مرضية فقط من الحالات التى إعتاد عليها، هو الآن ينعش قلب أمه. الجميع أمام غرفة العناية المركزة يترقب، كلهم عينه على الباب، يتلقف الكلمات والأخبار من كل طبيب أو ممرضة تخرج أو تدخل.

كان الى جوار عائلة ضياء لبنى وسيف.
لم تدخر لبنى جهداً فى محاولة اخراج وليد من حالته فى الفترة
الماضية.

لا تكف عن السؤال عنه وعن أخباره، لم تتمكن من لفت
انتباهه اليها بينما سيف لم يترك صديقه وليد، كان قد تحدث اليه
كثيرا واستطاع أن يفهم كثيرا من معاناته.
لكنه لم يعرف عن هند كل شئ.

أدرك من حديث مريم وأمها أن هند هى المجرمة التى دمرت
حياتهم، أخبر سيف أخته لبنى كثيرا من كل تلك المعلومات التى
كانت تعرفها من مريم ومن حكايات عالية، الا أن كل ما عرفته لم
ينجح فى إخراج وليد من قلبها.

كان والداها قد استشعرا بأن هناك مشاعر حب من ابنتهما تنمو
صوب ذلك الطبيب الشاب.

كلما دار نقاش بين أبيها وأمها كان يغلب الخوف على الحوار
فهما أمام شاب أتى من أم ليست سوية.

حاولت أمها أن تنبهها لأن وليد لا يصلح لها فأمه سيدة مشتبّه فى
أعمالها وتجارّتها، تبادرها لبنى باعتراض على ذلك الرأى وعباراتها
التي تفضح مشاعرها، يا أمى مالنا وتاريخ أمه وتجارّتها ؟ وليد طبيب
مهذب خلوق، ليس له شأن بكل تلك الأعمال.

كانت لبنى تفهم مثل ما يفهمه كثير من المحيطين بأن وليد ابن هند من زوجها قبل ضيائه، ذلك بأن هند قد أشاعت ذلك حفاظاً على شعور وليد وحتى لا يعيره أحد بحياة أمه وأبيه غير المعلوم.

لم يكن وليد يتحدث الى أحد بشأن ذلك التاريخ، لا يجد فى نفسه الجرأة بأن يخبر المجتمع بحقيقة والديه اللذين لا يعرفهما هو نفسه.

لم تدرك لبنى أن وليد قد تعلق قلبه بصديقتها مريم كما تعلق بها أيضاً أخوها سيف.

كل ماتفهمه لبنى أن سيف ومريم قد توطدت علاقتهما، كما توطدت علاقتهما جميعاً بعمر الذى لم يبرح مفارقاً بيت مريم. منذ أيام احتفلوا جميعاً فى بيت عالية بالقضية التى ربحتها كان من بين الحضور وليد وعمر وسيف ولبنى.

فى الوقت الذى تعلق فى أنظار وليد بمريم ترقبها فى كل تحركاتها كانت لبنى تترقب وليد.

استغل سيف الفرصة ليسحب عالية جانباً والى جوارها حسام الذى اعتبر نفسه خال مريم أو عمها، فاتح عالية فى أنه يريد الارتباط بمريم. صارحته عالية بأن الأمر يسعدها وأنها قد وجدت فى ابنتها قبولاً وترحيباً وأنه يتوجب عليهم الانتظار حتى تنتهى دراسة هذا العام ليتم الأمر رسمياً بحسب الأصول وبحضور أهله ووالدها.

هرعت لبنى لتخبر صاحبها مريم تبشرها بما تم فتجد لبنى فى
وجه مريم بشراً وسعادة بما تسمعه.

كان بالباب ينتظر الدخول ضيف أتى بباقات الورد.
التفتت عالية إليه مرحبة به ، تقدمه للجميع.

المهندس أسعد الشوبرى

انه أسعد ، ونال نصيباً من اسمه عندما حكم له بالبراءة ليعود الى
حياته ، بصحبته طفله وعلى استحياء أتت أخته نادين.

كانت خلفه تطأطئ رأسها بالأرض ، ثم تقدمت نحو عالية
تشكرها ، انحنت على يديها تقبلها ، سحبت عالية يدها مسرعة
والدهشة تكبلها.

موقف نادين قد فاجأ عالية الا أنها اخبرتها بأنها ممتنة لصنيعها
مع أخيها فهي من أنقذته وأنقذت كل الأسرة.

هنأتها عالية على سلامتها ، ثم انزوت بها الى جانب من المكان ،
تهمس لها :

— واللّه يا ابنتى نحن سعداء بنجاتك وشفائك ولكن اسمعى ،
لا شئ فى الكون يستحق أن ننهى حياتنا بسببه ، نقبل على الله بذنب
الانتحار.

طأطأت نادين رأسها تبدو موافقتها على حديث عالية وهى
تجيبها.

— أعلم يا سيدتى، أعلم ولكن لحظات الضعف، وأعلم كم تسببت لأهلى فى معاناة لتصرفات لم أكن أعد لها حساباً.

— اذهبى حبيبتى مع مريم ابنتى وصديقتها اعتبريهم أهلك وأخواتك.

— توجهت نادين الى حيث تقف مريم ولبنى وحيث كان الجمع قد بدأ يزداد بقدم ضحى وأسرتها وصديقات عالية من الدار.

— الجميع يأتى مهتئاً فى كل مناسبة سعيدة ويأتى مواسياً فى كل حزن.

توجهت عالية الى حيث يقف أسعد مع طفله، ربنا يسعدك مع أختك وابنك لتعيشوا حياتكم من جديد.

استطرد أسعد، أتعلمين يا سيدتى، فى أمر نادين وجدت الكثير من أخطائى، أنا انشغلت عنها فى الفترة التى كانت قد خرجت من صدمة خطبتها وكانت فى أشد الاحتياج لى، لم يكن لها صديقات، كنت أنا عالمها، سمحت للوعد هشام أن يدخل حياتنا ووثقت به، جعلته جزءاً من أسرتى.

سألته فى حذر بعدما ألح دافع الفضول على رأسها : ماذا عن زوجتك ؟

زفر أنفاسه المحمومة ليحيبها، طلقها، كنت قد قررت أن لا ترى ابنها مدى الحياة.

لا يكفينى ولا يشفى غليلى فضيحتها.
لقد ذبحتنى، دمرت بيتنا، يكفى أننى لم أقتلها، لن تفلح كل
محاولات الناس بجعلى أسمح لها أن ترى ابنها.
استشاط غضباً وعلا صوته مردداً: لن تراه مادمت أنا حيا، يجب
أن تنسى بأن لها ابنا.
تركته عالية وهى تتمتم فى صوت هادئ، عسى أن تجعل لك
الأيام شفاء لجرحك.
أقبل عمر على سيف يخبره بأنه يشعر أن عالية مرحبة جدا بأمر
الخطبة.
من خلفه وجد عمر أن لبنى قد أقبلت تخبره بأنها للحظات قد
تصورت أن عمر يحب مريم ويود الارتباط بها.
ابتسم عمر وهو يوجه إليها حديثاً شعر أنه يخاطب به نفسه
- أتعلمين يا لبنى، لقد انتابنى نحو مريم عديد من المشاعر،
بسببها تغيرت حياتى وتبدل طريقى وبسببها أصبح لى عائلة، أعنى
كبرت عائلتى فأما دوما تشعرنى بأننى ابن لها، لقد وجدت فى عالية
شعورا يسيطر عليها بأننى مكان ابنها الذى مات صغيراً.
الا أن مشاعرى نحو مريم كانت تكبر وتزدهر لكن على نحو
يجعلنى أراها أختاً لى، خاصة أننى وللوهلة الأولى أدركت مشاعرها
نحو أخيك سيف.

ابتسمت لبنى ثم انصرفت الى الطعام وعيناها تترقب وليد.
منذ ذلك اليوم ولبنى تحاول تفقد وليد الذى بدى منزعجاً ، لم
تكن تدرك مايقلقه.

* * *

عندما خرج وليد من غرفة العناية المركزة كان الجميع بانتظاره،
يرتسم البشر على شفثيه ، طمنأهم أن حالتها مستقرة.
أمسك ضياء بيديه ، يناديه لأول مرة يا بنى أخبار أمك هند ،
أيمكن أن تطمئننى عليها ؟ علامات الخوف والقلق على وجه ضياء
لا يستطيع اخفاءها.
كان الأمر مفاجئاً ومذهلاً.
وجد نفسه أمام مشاعر لا يفهمها ولا يجد لها مبرراً .

* * *

ربما هذا ماتفعله بنا سنوات العشرة ، ربما كان هناك مشاعر
كان يود لو عاشها معها ، أ يكون المال والثراء وحساباتنا المفلوطة هى
من تسبب فى حرماننا من أروع أحاسيس ومشاعر يمكن أن يوهبها
الإنسان ؟

* * *

مضت الأيام بعد خروج هند من المشفى ، حاول وليد الا يتحدث
اليها فى أى أمر يزعجها ، صار يعدها للجراحة.

نالت فى هذه الأيام رعاية من ضياء لم تحظ بها من قبل، تبتسم
وهى تخبره بأنها تراه إنساناً جديداً.

بينها وبين نفسها تشعر بأنها تود لو مسحت سجل حياتها الماضى
تود أن تولد من جديد.

خلال الفترة نفسها أخذ وليد يعد لجعلها تنهى كل أعمالها مع
الشبكة المجرمة.

قام بترتيب الأمر مع صديقه إبراهيم.

بالفعل تمكن من الإتصال ببعض من الرجال الذين يمثلون
الكيان الدولى بشبكته، اتصل بواحد من رجالهم.

فاجأهم أنه يعرف عن جرائمهم.

أنهى حديثه معه قائلاً :

أمرى لن يكون لها صلة بكم مجدداً.

أنا مستعد لتكبد كل الخسائر، حسناً سأرسل لكم كل المبالغ
والثروات التى تم ايداعها بحسابها.

جاءه الرد من الرجل

— تعلم أننى مندوب السيد بيير ديمو، أخبرتك أنك لن تقابله
مطلقاً، يمكننى أيضاً أن أخبرك بأن الحساب ليس مალأً فقط، من
يدخل فى لعبتنا ويعرف أسرارنا لا يمكنه الخروج سالماً.

أدرك وليد جدية التهديد، لكن لم يعرف مدام.

كان رجال هند قد أخبروها بما حدث وبتهديد الشبكة لوليد
استدعته تتوسل اليه ألا يضع نفسه فى طريقهم
قالت : يابنى هم شبكة خطيرة لا يمكنك التصدى لشرها.
قاطعها قائلاً : وعدتني يا أمى أن تنهى علاقتك بهم.
- نعم وعدتك لكن لا أود أن تضع نفسك أمام العاصفة.
- لا تهتمى يا أمى فقط اهتمى بصحتك.
كان وقت التجهيز للجراحة، ووليد يلقي صديقه إبراهيم، يجلس
معه لفترات طويلة، كل منهما يروى للثانى عن همه.
استشعر وليد أن صديقه يكن مشاعرا نحو نادين أخت أسعد،
الأمر محير الم تجد يا أخى غير تلك الفتاة ؟
- أعلم يا أخى تحفظك نحوها، وهى فعلا كانت مذنبة، لكنها
تغيرت، صارت انسانية مختلفة، عادت نادين التى عرفها أهلها.
لقد كنت أعرفها منذ سنوات، كنت متعلقاً بها، لم أجرؤ على
مصارحتها بمشاعرى فأنا بن البواب مهما نجحت فأنا لا أرقى
لمستواها.
خُطبت للشاب الذى كان مناسباً لأسرتها، علمت بأنها تحبه،
كان غنياً ومن عائلة، انقطعت أخبارها، ظننتها تزوجته حتى رأيته
فى يوم حفل الأستاذة عالية.
كانت مكسورة، مجروحة.

أتعلم ؟ أنا حاولت أن أتقرب اليها حالياً لكنها رفضت بشدة ،
ترفض حتى أن يتقدم أى شخص لخطبتها .
ألمتى كثيراً حين قالت لى : لا يجب ان أكمل حياتى والى جوارى
أى شخص فأنا لا يجب أن يبتلى بى أحد .
قالت أنت تستحق فتاة نظيفة وسمعتها جيدة ، لا تستحق ركام
إنسان .

انها ترى نفسها ركام إنسان .
فى أثناء حديثهما طرق الباب سيف يستأذن للدخول ، حياهما
بحرارة .
حاول الاطمئنان على هند .

لمح وليد بعينى صديقه سعادة وبريقاً لم يلمحه من قبل .
كان سيف متأهباً اذا سألّه أحد عن سر فرحته ليحبب على الفور
فما إن سألّه وليد عن سر البريق الذى يشع من عينيه ، حتى شرع
سيف فى الحديث ، يخبره أن حلمه بالارتباط بالإنسانة التى يحبها قد
صار وشيكاً .

مريم ستصبح عروسى قريباً ، سننتظر فقط حتى تنهى الامتحانات .
نزلت كلمت مريم على مسامع وليد ، كالنار تحرقه ، تصب لهاً
فى أوصاله ، امتقع لونه ، تغير وجهه وهو يسأل ، مريم ؟ تعنى مريم
ضياء ؟

نعم يا أخى هى. كان سيف يجيبه بحماس غريب.
حاول وليد اخفاء مشاعره، تصنع ابتسامة على شفثيه، أسعدنى
هذا الخبر جدا، لا تدرى سعادتى يا أخى.

ظل وليد يحاول ألا تظهر عليه مشاعره ولا تغلبه العبرات، حتى
بعد انصراف سيف، صمت لفترة ليقطع الصمت صوت صاحبه يقول،
أما انا فأخبرتكَ عنى مشاعرى نحو نادين، و أما سيف فسينفخ الله
فى صورته ويخطب مريم، فماذا عنك يا صديقى ؟

انتبه وليد لسؤاله ليجيب بسؤال آخر :

— ماذا عنى ؟

— نعم، ألا تعرف يا أخى أنى أفهم جيد تلك المشاعر التى تكنها
نحو تلك الفتاة ؟

أى فتاة تعنى، بدى وليد مندهشا، هو فعلا لا يفهم مايقصده
صديقه.

فعاد يسأله ألا تعرف أننى أفهم مشاعر لبنى نحوك ؟ لا يخفى ذلك
على فطن ذكى مثلى، الفتاة تحبك أيها الساذج.

حاول وليد اغلاق الحوار ليخبر صديقه أن عليه الذهاب لتجهيز
أمه للجراحة.....

نيران باردة

.....

كلما دخل وليد على هند رأى فى وجهها ملامح مختلفة، يحدث نفسه أىكون ما أراه فى ذلك السرير جسدا أنهكه المرض ؟ أم أنه ذلك الموت البارد يأتى متوشحاً سيف الوهن يسلب العافية ليسرق معه الأرواح ؟ ماذلك الخوف من الفقد الذى أعانيه ؟ أكلما أحببت أحداً ضاع منى ؟ لا أستطيع أن أسامح نفسى وأجد لها المغفرة فيما قصرت فيه نحوك، كنتُ أنايا آخذ منك ولم أعطك شيئاً، لم أكن ابناً باراً كانت هند فى فراشها، أمامها فرصة من الوقت تجعلها تسترجع ماضيها، ترى أمامها تاريخها كتلك اللحظات التى يرى فيها المستقبل على الموت أعماله يجدها حاضرة أمامها، تلمح بعينى وليداً حديثاً مكتوماً، تفهمه ولكن لا تجد رداً، تحدثه عيناها قائلة، أتلوم نفسك يا ولدى ؟ أنت من جعلنى أعيش الحياة بل كنت أروع مافيها، لاتلم نفسك يا بنى فأنا كنت أمضى نحو حياتى التى لاترضاها، كنت أسرع الخطى نحو طريقى البائس.

لم يكن بوسعك ولا بوسع أى إنسان أن يمنعنى عن تدمير حياة الناس.

ألا ليت العمر يعود فأستغفر. ألا ليت الحياة تبدأ من جديد فأسلك طريقاً آخر.

صرت كمن يلوح لقطار مضى، فاته القطار ولم يلحقه.
لقد كنت أنت الانسان الذى يجعلنى أفخر به، أعطيتنى ما عجز
كل البشر عنه.
نادته، وليد:

عندما أجابها طلبت منه أن يذهب الى عالية يطلب منها السماح
فلعلها لاتخرج من الجراحة.
- أخبرها يابنى أنها جراحة خطيرة.

استبشر وجهه بطلبها ولم يدخر جهدا لإرضائها وتلبية طلبها
انطلق لمكتب عالية، ما إن دخل عليها حتى جلس الى جوارها،
تغلبه العبرات، تستشعر فى صوته المألم لم تفهمه الا بعد أن شرع فى
الحديث:

- يا سيدتى جئتُ أطلب المغفرة لأمى المريضة، المقبلة على جراحة
خطيرة.

حالتها ليست جيدة، تطلب السماح.
زردت ريقها، تستجمع مايمكن أن تجيبه به، اجهشت ببكاء
خرجت معه الكلمات مبعثرة.

هند يابنى، هند لم يؤذنى مخلوق مثل ما آذنتى به، قتلت فلذة
كبدى، دمرت شبابى وعمرى، عشت هاربة، عشت وابنتى فى بؤس
أيمكنها أن تعيد ابنى الذى اختطفته وقتلته ؟ سلها.

سلها إن كانت تقدر على أن تعيد لى حياتى وشبابى وراحة البال
أخبرها عن تلك الليلة التى هربتُ فيها فى ليلة موحلة، أرى ولدى
يختطف وينقطع صوته، ينتحب ولم يرحم أحد ضعفى وضعفه، يصرخ
أحدهم وهو يتعبنى قائلاً: هاقد مات الصغير، بقى البنت وأمها.
لك أن تتخيل مدى الوجد والمعاناة، أخبرنى يابنى أيمكن أن تغفر؟
صمت وهو يطأطئ رأسه للأرض، تحير فى الجواب.
تركها ولم ينبس ببنت شفة.

فى طريقه لمشفاه ظل يفكر ملياً، لو لم يكن سيف قد أحب
مريم وتقدم لخطبتها لم أكن بإمكانى أنا أيضاً أن أتزوجها، كان
من المستحيل أن توافق على أو ترضى بى.

هى وأمها يريانى ابن القاتلة

حتى و لو لم أكن ابنها فعلاً فأنا أحمل الذنب والعار.
يبدو أننى قد كتب علي أن أحمل العار الذى ليس لى يد به.

* * *

فى الصباح الذى تم الاعداد فيه للجراحة، لم يكن وليد قد نام
للحظة واحدة، هند بدورها لم يغمض لها جفن هى الأخرى، طلبت من
وليد أن يغفر لها كل ماكان، سألته أترانى يا بنى سيففر الله لى ؟
لقد أرتكبتُ كثيراً من الذنوب والمعاصى، تحملتُ أوزارا صارت
اليوم تكبلنى، آه يا بنى من تلك الدنيا، أراها ضئيلة، تسحق دون أن

تجبر، آه لو عاد الزمن بى، لاخترت أن أكتفى بأن أكون أماً لك،
أعيش معك أتعب وأكد لأريبك، أخطط لزواجك ولأكون جدة
لأولادك، كان سيكفينى القليل، كنت سأترك الأموال التى غللتى
بقيود، حفرت جروحها العميقة فى قلبى.

عندما أدخلوا هند لتجهيزها لغرفة العمليات، كان خلالها الأطباء
بالخارج يطلبون من وليد ألايدخل للعمليات، أخبروه أنهم سيقومون بها
نيابة عنه. بالمستشفى جراح قلب ألمانى خبير يمكنه أن ينوب عنه فى
اجرائها.

رفض وليد بشدة، أخبرهم أن أحداً سواه لن يقوم بالعملية.
أنهكها البكاء وعلا نشيجها فأشفق عليها وليد، ربت على
رأسها وقبل جبينها، يقبلها وهو يتمتم، أنت أُمى، ربيتى واعتيت بى،
قدمت لى كل ما جعلنى أقف على قدمى، ستعيشين إن شاء الله،
سترين أحفادك، ستغيرين ما تريدين تغييره.
سالت عبراته على وجنتيها تفرقها.

ثم استفاق على طاقم التمريض ينبهونه لانتظار فريق الجراحة
والتخدير، طمأنها قبل الدخول.

ساعات مرت بغرفة العمليات، قلبه وجل، يتمالك أعصابه، أهم
حالة فى حياته، والجراحة من نوع نادر.
الجميع ينتظر.

هاهى هند التى عاشت جبارة ظالمة، لا يقوى أحد على كسرهما، يكسرها مرض، ترقد بين يدى الله فى انتظار رحمته، دار حديث يشبه ذلك بين المنتظرين خارج الغرفة، ليس بالضرورة أن تكون قد نطقت به ألسنتهم ولكن قلوبهم وعقولهم تتحدث به وبصراحة.

* * *

الدنيا دوارة

.....

على ضوء مصباح قوى وأمام مكتبها المكس بملفات القضايا جلست عالية تحتسى قهوة فنجانا تلو الآخر، عندما دخل عليها حسام يراجع معها ملفا لقضية جديدة.

سألها عن تلك القضايا التى كانت تشغلها بالأسبوع المنصرم، فقد أخبرته مريم أنها تعكف على قضية هامة تأخذ الحيز الأعظم من تفكيرها.

تركت عالية الملف الذى كانت تمسكه جانباً، ارتسمت على وجهها ابتسامة وهى تجيب حسام.

لن تصدق كيف أن الدنيا تدور عجالاتها بصورة عجيبة، منذ أيام أتى للمكتب رجل وزوجته، كانت المرأة تبكى والرجل منهار، أدركت أنهما جاءا فى قضية هامة.

عندما شرع الرجل فى عرض القصة أدركت أن المتهم هو ابنهما ،
شاب يعمل محاسباً بشركة استثمارية كبيرة ، اتهم الشاب باختلاس
مبلغ ضخّم من حسابات الشركة.

كانت أمه منهرة فلم تتمكن من الحديث ثم بعد أن فرغ زوجها
من عرض القصة بدأت تحكى لى وهى تبكى عن ابنها الخلق ، ذلك
الشاب المهذب الأمين ، سألتها عن طبيعة عمله وهل له أعداء أو
منافسون وهل هناك من يشاركه العمل إذ ربما كان هناك من ورطه
أو سحب مبالغ بتوقيع ابنها وغير ذلك من الإجراءات والمسائل.
وعن ما إذا كان المبلغ المفقود قد سرق من الخزينة أم من حسابات
بنكية أو خلاف ذلك.

بدأت تحكى أن ابنها قد أصبح له مكانة بالشركة وصار هناك
من يحقدون عليه ويبيتون النية لتدميره بعد أن صار الذراع الأيمن
لصاحب الشركة وأن أحدهم استطاع التلاعب بالحسابات لتوريط
ابنها فى الأمر.

أخذت أتجاذب معهما أطراف الحديث حتى وضعت يدي على نقاط
أستطيع منها كشف اللغز واخراج الشاب من التهمة وقد أدركت أنه
يتوجب على تتبع خصومه ومراقبتهم وكذلك تتبع الحسابات البنكية
وأوقات سحب الأموال من الخزينة وتتبع أرقام العملات وشهادة من
ساعدونى فى توجيه التهمة للمجرم الحقيقى.

لم يسغرق الأمر طويلاً لأن هناك من سهل العملية إذ كان هناك موظف أعرفه شهد على الجانى الحقيقى وذلك بعدما مرض ابنه واعتبرها رسالة من الله ليرفض المال الحرام.

كل ذلك يا حسام أمر عادى فكم من القضايا ترافعتُ فيها مثل ذلك وأكثر ولكن المدهش فى الأمر، هو أننى عندما جلست للرجل وزوجته تسلل الى شعور بأنتى أعرفهما، حتى أننى انتظرت لأتمكن من اختبار ذاكرتى لأتذكر من هما وأين قابلتهما ومتى، فلم أفلح ثم بادرت بالسؤال فى منتصف الحوار سألتهما ألم نتقابل من قبل ؟

صمتت المرأة هنيهة لتخبرنى أنها تشعر أننا تقابلنا من قبل، وجدت الرجل ينظر الى اللوحة التى عليها اسمى كاملاً على المكتب ثم حول نظره الى مقطباً جبينه وقد اتسعت حدقتا عينيه ليتساءل، عالية سالم؟

عالية؟

بادلته زوجته بالسؤال ثم وجدته يخبرنى باسمه كاملاً واسم زوجته شاهيناز.

تذكرت لحظتها.

أتذكر البيت الذى كنت أخدم فيه وأنا صبية صغيرة ؟ كانت السيدة جبارة عنيفة ظالمة، يوم أن اتهمتنى بالسرقه وأنت من خلصنى من التهمة.

تذكر ؟ كانت المرة الأولى التى ألقاك فيها.
أترى كم هى صغيرة الدنيا ؟ تدور لتسقى الظالم بنفس الكأس
التي سقى بها غيره.
تمتم حسام ، سبحان الله.

ابتسمت عالية مستأنفة : بكت المرأة وأظهرت الخجل وجدثها
تنظر للأرض باكية ، ظلت تردد أرأيت يا أستاذة كيف انتقم الله لك؟
جثت على يدى تقبلها وترجو منى الغفران وترجونى ألا أترك ابنها
يضيع مستقبله.

طمأننتها بأننى لن أتخلى عنه و عكفت على القضية حتى أتيت
ببراءة الشاب وأودعت المجرم الحقيقى بالسجن.

غير حسام وجهة الحديث ليسألها ، أعلم أن هند تجرى اليوم
جراحة خطيرة، وددت لو علمت شعورك أتمنين لها الشفاء، أم شعور
شماته ؟ أو شعور أن حقك قد عاد ممن ظلمك ؟

تنهدت عالية تنهيدة عميقة، صمتت وهى تجفل عينيها، وضعت
كفيها على وجهها تمسحه بهما ثم شرعت تجيبه:

أتصدقنى لو قلت لك لا أعرف، حقا أنا لا أفهم كنهه مشاعرى،
وددت لو أدرك حقيقة ما أشعر به، أسبر غور مافى نفسى، أصعب
المشاعر التى نعيشها هو أن نقاوم احساس الرغبة بالانتقام وأن نجاهد
الشماته.

أن تشعر بالظلم شعور مؤلم وقاس وصعب ولكن الأصعب منه هو
أن تغفو عن الظالم.
لا أفهم نفسى ولا أعرف كيف أصف ما أشعر به.
غريب أمر النفس البشرية، نحملها بين جوانحنا ولا نفهمها.

* * *

رحلة الشوق

.....

فى بيت عم عبد الظاهر زاد الهرج والمرج بعد أن اكتظ بالمهتئين
على سلامة الوصول من الأراض المقدسة.
الرجل العجوز وزوجته يجلسان وسط الصالة، البيت القديم ذاته
لم يتغير الا قليل.
ماتغير فيه بعض الأجهزة الكهربائية التى أتت بها عالية منذ فتح
الله عليها ببعض المال.
تلفاز جديد وثلاجة وموقد.
حجرة جلوس جديدة ودهانات البيت والحمام الذى غيرته.
فى موسم التقديم للحج قدمت عالية لعم عبد الحفيظ وزوجته،
فاجأتها بأنها قد تم قبولهما، أخذت جوازى سفرهما وأنهت
الاجراءات.

ظلت تنتظر أن يرزقها الله بالمال لتسدى لهما هذا الجزاء أمام ما قدماه لها.

منذ سنوات وهى لا تنسى السؤال عنهما وزيارتهم.
حتى أن مريم طوال السنوات تشعر أن الرجل جدّها والمرأة جدتها
وسط المهنيين كانت الحاجة أميمة وسيدات الدار.
أما عالية ومريم وضى فقد تفرغن للطهى واعداد الطعام وتجهيز
البيت.

كم من العبرات سكبها عم عبد الظاهر والسيدة تحية،
كلاهما لا يصدق النعمة العظيمة التى من الله بها عليهما.
طال الحديث عن الأرض المقدسة، حديث عطر عن الكعبة
وشعورهما حين رآياها، تلك العبرات التى سكبت عند الحجر
الأسود، يصفان الصلاة عند المقام والدعاء عند الملتزم والوقوف عند
حجر اسماعيل ولحظة الوصول للمدينة والصلاة بالمسجد النبوى
تروى الست تحية عن ذلك الإحساس الذى تملكها وهى بالروضة
النبوية.

كيف تجمد الكلام وسالت العبرات، كيف خشع القلب وكأن
الروح تصعد الى حيث تطوف الملائكة، يقطع عبد الظاهر حديثها
بيكائه وهو يروى ما كان منهما فى عرفات يذكرها بتلك الساعات
التي كان فيها بعرفة يدعو فيشعر أن الملائكة بجواره، ثم اللحظات
التي كان فيها بمنى والمزدلفة.

يعقب على حديثه بقوله والله إن هناك فى تلك البقعة تنسى كل
شيئ، تنسى الألم، الروح تسمو والنفس تصفو.
وماء زمزم عندما ترتوى منه هناك تشعر وكأن شيئاً يسرى
بأوصالك ليس كأي شراب.
تزفر تحية نفساً عميقاً، آه لو ربى رزقنا بحجة ثانية ونكون
صحبة.

الجميع ينصت لحديثهما والشوق يحده لتلك الزيارة والرحلة.
لم تنس تحية أحداً من الدعاء، فالجميع قد جهز قائمة الأمنيات
والدعوات.
رحلة الشوق التى ترتوى بها القلوب وتغسل بها الهموم ياليت الجميع
ينالها.

* * *

فى الأيام التى تلت خروج هند من الجراحة، عكف وليد على
خدمتها وراحتها، يؤجل كثيراً من مواعيد مستشفاه ليكون الى
جوارها.

تعددت زيارات سيف ولبنى ووالديهما، كثرت المرات التى جاؤوهم
فيها بالهدايا والورود، فجميعهم يجلب وليد ويحمل له محبة ومكانة
كبيرة فى نفوسهم.

دارت حوارات كثيرة كان وليد خلالها يرى فى لبنى شخصية
لم يكن يعرفها من قبل، ليست مجرد الفتاة المترفة ابنة طبيبين

شهيرين فقط، بل حياة انسانة محبة للفقراء، فحياتها ويومها جزء كبير منه لرعاية أيتام بالملاجئ، كانت أمها دوما تطلب منها الإكتفاء بدفع مال لتلك الدور ولكن لبنى دائما تصر على الذهاب لخدمة الأطفال والمكوث معهم.

وجدها فتاة قارئة تعكف على قراءة كتب، وجد دون قصد منه أو منها أنهما يتشاركان حول تلك الموضوعات.

لمح بها جمالاً غير ذلك الجمال الحسى الذى يبدو بالوجه ولكنه ذلك الذى تراه بالروح عندما تتعرف على شخص وترى داخله. كانت تسبقه الى القسم الخيرى بالمستشفى مع حالات تعرفها وتتوسط لها، تعكف على حاجاتهم.

دون شعور منه وجد نفسه يتتبع الأوقات التى ستأتى فيها لحالات المستشفى والأوقات التى ستذهب فيها لشراء الكتب.

خدمته المصادفات حينما تجده فى نفس المطعم وهى مع أخيها أو مع مريم، دون اعداد مسبق.

أدهشته خفة ظلها، فهى الى جديتها والتزامها ذات دعابة ومزحة غير مفتعلة ولا مقصودة.

دون إرادة منه صار يفكر بها، تذكر حين أخبره ابراهيم بأن الفتاة تحبه، كذب الكلام ثم ابتسم بينه وبين نفسه وهو يتمنى أن يكون صحيحاً.

لعله صحيح.

فاجأته هند وهى تطلب أن تتحدث اليه ، أخبرته أنها تود الحديث
عن مستقبله ، تتمنى أن تطمئن عليه وعلى أحواله ، تردد كلمات الأم
المصرية المعهودة.

يا بنى أود الإطمئنان عليك فى حياتى.

أحمل أولادك على يدى ، أحتضنهم.

يقابل وليد حديثها بالابتسامة ويقبل يدها وهى تدعو له ، صدرت
منها جملة تلقيها على مسامعه.

عروسك التى أتمناها لبنى ، تلك الفتاة العذبة.

قابل جملتها بابتسامة عذبة قائلاً أن شاء الله يا أمى ربنا يقدم
الخير.

أقبل وليد على عمله فى هذه الأيام بشغف ، يتتبع اللحظات التى
قد تجمعها بلبنى ، استسلم لذلك الشعور الذى أدهشه لا يعرف كنهه ،
ذلك الذى يعتريه عندما يسمع صوتها أو يذكر اسمها.

تلك السعادة التى تختلج فى صدره حين تجمعها بها مصادفة

يجد نفسه يبحث عن كل الحجج ليراه.

يروى لإبراهيم ما يعتريه من مشاعر لا يفهمها.

يجيبه إبراهيم ، ألا تعرف أيها الساذج أنك محب للفتاة ؟ نعم أنت
ساذج ولسوف أطلق عليك اللقب.

توكل على الله وبادر بخطبتها قبل أن يأتى غيرك ويخطبها.
آه بالمناسبة، قريباً ستسمع منى خبراً جيداً فقد فاتحت أسعد
بشأن خطبتي لنادين، هى على وشك القبول.
أشعر أن الخير كله على الأبواب

* * *

اعتراف اجبارى

.....

فى الجامعة
كان آخر يوم بالامتحانات.
خرج عمر مع أصدقائه، يستعدون للاحتفال بانتهاء العام.
كانت مريم مع لبنى، يعدان للعودة للبيت.
التفتت مريم لهرج وضجيج يأتى من بعيد، انه نفس المكان الذى
تركا به عمر.
سيارة اسعاف مقبلة نحوه.
هرعت مريم للمكان.
وجدت أصدقاءه ملتفين حوله، سألت.
أجابوها بأنه صرخ من ألم شديد وخر مغشياً عليه.
منذ فترة يشكو بعض الآلام كان ينتظر انتهاء الامتحانات.

فى إحدى الامتحانات صرخ من الألم، يضع يده على جنبه، رفض زيارة الطبيب متعللاً بأن بعض الألم ربما أصاب جهازه الهضمى بسبب الطعام الذى يأكله خارج المنزل.

حملته السيارة للمستشفى، أصدقاؤه قد أبلغوا نور. تبعته مريم للمستشفى ومعها لبنى وسيف، هرعت وجدوا نور تلحق بالنقال الذى يحمله للغرفة.

تبكى، قلبها ينخلع، لا تملك أعصابها. تلاحق الأطباء بالسؤال عن عمر، وعن حالته. عالية أيضا ما إن علمت بالأمر حتى تركت كل ما يشغلها وهرعت للمستشفى.

يدخل من غرفة للغرفة محمولا على الترولى، الفحوصات والأشعة والتحاليل لاحصر لها.

كلما ترنو الى أى من الأطباء المتابعين للحالة تجد الجدية فى وجهه.

يشير منظرهم الى أن الأمر جلل. تتلفت نور يمينا ويسارا تلقف الخبر من كل طبيب. مايقوله الأطباء، إطمئنى إن شاء الله خير. عندما أقبل وليد عليهم دلف لغرفة الطبيب الذى يفحص عمر دار حديث بينهما.

انطلق يتابع معهم الأشعة والتحاليل.
طلب نقله لمستشفى الدكتور يوسف فهناك عدد كبير من
الأساتذة المتخصصين بجراحة الكبد.
طلب استدعاء بعضا من الأسماء الكبيرة لفحص عمر.
كلما أتى طبيب ليدخل الى الغرفة، تشعر نور بخطورة الأمر
لا أحد يعطى اجابة شافية.
تم نقله للمستشفى الأكبر ليكون تحت رعاية نخبة من كبار
الجراحين.
لم يدخر وليد جهداً فى متابعة الحالة مع زملائه.
استدعى الجراح المختص نور الى مكتبه، تردد قبل أن يصارحها
بالأمر، تجلس الى جوار وليد قبالة الجراح.
- الأمر معقد ياسيدتى، دكتور وليد متابع للحالة معنا أولاً بأول
الحقيقة أن الوضع حرج جدا.
حالة الكبد سيئة جدا.
تتلقف نور كلمات الجراح وهى تنقل نظرها الى وليد تغرورق
عينها بالعبرات، تومئ بوجهها تستفهم، لعل وليد يطمئنها بإجابة
مخالفة.
التفت إليها فى وجل وليد يخبرها بأن عمر يعانى وربما أدى لفشل
بوظائف الكبد.

بعد الاستئصال صار لا بد من زراعة عاجلة لفص بالكبد.
لم تملك نور نفسها.
اجهشت ببكاء عميق.
انحنى نحو الجراح تستغيثه وترجوه.
- أرجوك افعل أى شئ ، انقذه ، لنزرع الكبد ، لتكلف
الجراحة كل ما أملك.
أجابها الجراح بأن الأمر ليس بتلك السهولة فنزرع الكبد يحتاج
توافقا فى الأنسجة بعد العثور على متبرع.
سألته : تعنى أنه يجب العثور على متبرع ويجب أن يتم الفحص
للتأكد من توافق الأنسجة ؟ أليس صحيحا ؟
اذن فلتفحصنى أنا أول ماتفحص ، ولنعلن من اليوم بل من هذه
اللحظة عن متبرع ، أعطى المتبرع نصف ثروتى ، لا لا بل كلها إن أراد.
لنعلن.
تعالى نحيبها ونشيحها وهى تردد كلماتها ليأخذ كل ما أملك
وليشفى عمر.
أمرت موظفيها بالاعلان فى كل مكان عن متبرع.
لم يتركوا مكانا أو مشفى حتى أعلنوا فيه.
صدرت نتائج التحاليل.
انتظرت من الطبيب أن يبشرها الا إنه أخبرها بعدم وجود توافق
كان ضياء يقف طوال الوقت بالمشفى الى جانب الغرفة.

طلب أن يجرى له فحص للتبرع الا أن الجراح أخبره انه حتى لو
حدث توافق فلن يتم التبرع لأن حالة ضياء الصحية لا تسمح بذلك
تقدم العدد الكبير من الناس للتبرع، المبلغ مغرى.
فى كل مرة تضع نور يدها على قلبها تترقب النتائج، تحدى بكل
من يدلف إلى قسم التحاليل أو يخرج تتمم بالدعاء أن تتوافق الأنسجة
لكن دون جدوى.
لا أحد تتوافق أنسجته.
فجأة التفتت نور الى الحجرة المجاورة ليخرج منها نتيجة فحص
متوافق فى الأنسجة، التفتت وراءها لتجد الفتاة التى تتلقف نتيجة
الفحص، إنها مريم.
الأنسجة متوافقة.
وجدتها تتحدث الى الجراح تخبره أنها مستعدة للجراحة.
رنت نور اليها لتجدها تبكى وهى تشرح للجراح:
أنا ابنة خاله وكنت متأكدة أن أنسجتى ستتوافق.
نهضت نور تسرع الخطى نحوها تقبلها.
تبكى وهى تعانقها.
لا أعرف يابنتى ما أقوله.
اتجه اليها ضياء، وهو يمسك بها لا يابنتى لا لن تتبرعى.
صحيح أنا أحب عمر لكن أنت ابنتى.

– يا أبى عمر فى حالة حرجة ولم يتوافق اى من الأنسجة معه، هل أتركه يموت ؟

– لا يا ابنتى قلت لا ، سأقد جائزة أكبر ولنبحث عن متبرع آخر. توسلت اليه نور تقبل يده أرجوك يا أخى دعها تعطيه فص الكبد ، لن يضرها.

لا يا نور لطالما سمعت عن حالات مات فيها المتبرع ومريم ابنتى ابنتى اتفهمين ؟

طار الخبر الى عالية ، فقد كانت تهاتف مريم فوجدت هاتفها مغلق ، ثم طلبت لبنى التى أخبرتها بما حدث. انطلقت عالية الى المستشفى ، تصرخ فى مريم. أمسكت بذراعها.

– لا يا مريم لن تتبرعى ولن يكون ذلك ولو أصررت على ذلك فانس أنى أمك. – يا أمى كيف ذلك ؟ الا تحبين عمر ؟ الم تقولى أنك ترين فيه ولدك ؟

– بلى يا ابنتى ولكنى فقدت ابنى من قبل لا أود أن أفقدك توسلت نور الى عالية ولكن عالية مصرة على رفضها ، لم يرحزحها توسل نور ومريم عن موقفها. سحبت مريم من ذراعها تستغيث بالجميع أن يساعدها فى جعل مريم تغير موقفها.

أغمى على عالية وارتفع ضغطها.
التهى الأطباء فى إفاقتها.
بكت مريم لما وصلت اليه حالة عالية.
انتفضت عالية من سريرها لتحكم امساك مريم.
صرخت بوجهها : أقسم يا مريم لو استدعى الامر حبسك لفعلت
فى تلك الأثناء خرج الطبيب من غرفة عمر يخبرهم أن الأمر صار
أكثر حرجا وخطورة ويجب الإسراع بزراعة فص الكبد.
لم تتنازل عالية عن موقفها رغم خوفها على عمر وبكائها.
مادت الارض بنور وشعرت أن حلقها يجف ، الدنيا تدور بها.
ابنى يموت.
كان ذلك هو ماترده.
ثم فى لحظة كانت فيها نور أقرب للإغماء ، انقضى ابنى يا عالية.
انقضى ابنك.
انقضى ابنك أنت يا عالية.
التفتت لضياء تشد معصمه ، هو ابنك يا ضياء.
نعم ابنك يا عالية انت وضياء.
سأخبركم بما حدث ، لن أخفى السر.
انهالت عليها عالية تدفعها وتجذب ملابسها.
— ماذا قلت ؟ ابن من ؟ ابنى انا ؟ كيف ؟

راحت عالية تحديق بنور، تفتالها بنظراتها، يتحرق قلبها وهى ترنو
إلى شفيتها مترقبة ما يخرج منهما، قلبها يخفق بشدة، ترتعد
فرائصها.

رنت إليها نور وانكسار صوتها واختناقه بالعبرات جعلها تتلعثم
وهى تقص حكايتها.
راحت تحكى وصوتها يتهدج، والجميع ينصت وقد لجمتهم
الدهشة.

— بعد أن توفى زوجى بالحادث الذى دبره أخى ضياء وأبى.
كان طارق فى لحظات احتضاره يخبرنى أن من دبر الحادث هو
أخى وأبى.

كانت دماؤه تغرقنى، فقدت جنينى وفقدت الرحم إذ أسفر
الحادث عن استئصال الرحم بعد تمزقه.
أدركت أننى لن أنجب أبدا.

مكثت فى الصدمة لفترة، والجميع يظن أننى مت فى الحادث
لم يجدوا جثتى فقال البعض أن السيارة سقطت من ارتفاع ربما
يكون قد رمى بجثتى بعيدا

عندما أفقت كان كل همى الانتقام، زوجى المقتول وجنينى
المفقود الذى لن أعوضه ماحييت، نعم كان كل همى الانتقام من
ضياء.

أعلم أن زوجته عالية حامل.
كنت على علم بما تدبره هند للتخلص من طفله ومن زوجته
أرسلت جواسيسى ومن ساعدونى.
حتى ذلك الرجل والعصابة التى استأجرتها هند لقتل عالية
وطفليها.
اشتريتهم بمالى.
طلبت منهم تغيير الخطة، اخافة عالية وأخذ طفليها والإتيان بهما
الى
كان همى أن أخذ طفلى ضياء لأحرمه منهما كما حرمنى من
كل شئى.
لم يستطع رجالى الاتيان إلا بالولد فقط.
طلبت منهم أن يخبروا هند بأن الطفل قد مات، وأنهم أنهوا حياة
عالية وأسرتها.
صدقت هند وأرسلت فى ملاحقة عالية فقد شكت أنها لازالت
حية.
كانت عالية قد هربت بطفلتها، وأنا بدلاً من الحصول على
الطفلين أتانى الرجل بالولد فقط.
أقبلت عليه أحمله لأضعه بملجأ أو أرميه لمن يأخذه ويحرم والديه
منه.

ما إن دنوت منه وحملته و نظرت إليه حتى ألقى الله محبته فى

قلبى

احتضنته، تحسستُ جلده الناعم، تشممت رائحة الجنة فيه، رنى
إلى بنظرة ذبت بعدها وانصهرتُ.

ابتسم لى وكأنه يحدثنى بما يحرك قلبى نحوه دون ارادة منى.

مكثت ليلة أنظر اليه، أبكى وتبلل دموعى وجهه البريئ.

لم أتصور يوماً أننى سأحب الطفل.

لم أتحمل فراقه.

قررت تربيته، كتبت به باسمى واسم طارق.

كان محمود يعرف السر وقد ساعدنى بالبداية انتقاماً لأخيه ثم

هددنى بعد ذلك.

أعطيته ما يطلب من الثروة لكى لا يفضح أمرى.

عندما عدت بعمر كنت ألمح بعينه حبه لضياء كما لو كان يعلم

بالأمر،

وجدت ضياء يباده الحب ويتعلق به.

زاد شعورى بالنصر فى أننى استطعت حرمان ضياء من ولده

عندما ظهرت مريم وعالية شعرت أن أمرى سيفتضح.

حاولت ابعاده عنهم ولكن لم أقدر، فقد صنع القدر بترتيبه

وتدبيره ما لم أكن أدبر.

منذ سنوات طويلة كنت أرسل من يأتيني بخبر عن عالية، شعرت بالذنب نحوها لكن لم أملك اعطاءها ابني، اعنى ابنها. أرسلت اليها بمبلغ كبير لتعويضها مع رجل مخلص أعرفه، حسن داوود.

لكنها رفضته وردت حسن بالمال. وكان رجل أعمال يساعدني فى كثير من الصفقات دون علم بقصتي، طلبتُ منه أن يعتبر المال ودیة لعالية وابنتها وينمیه لهما. وقد فعل. ليعود بعد سنوات ليخبرنى أن المال صار ثروة وأن عالية رفضت الثروة مجدداً.

فرغت نور من حديثها وهى ترتجف. علا صراخ عالية وهى تضرب نور على وجهها، تدفعها، ثم تعود لتخبط الجدار بيديها. ويحى ويحى، إنه ولدى، كنت أشعر والله كنت أشعر أن شيئاً ما يربطنى به.

مسحت نور وجهها وهى تقول معك حق يا عالية فى كل ماتفعلين بى، يمكنك اجراء تحليل دى ان ايه لكشف البنوة. جثت عالية على الأرض تبكى، والى جوارها مريم، التى ظلت تردد كلمات، أمى انه اخى، أخى لم يميت، عاد لى أخى يا أمى، توأمى،

تهرول بين جدران الممر، تدنو من سيف ولبنى، توأمى يا سيف
أرأيت يالبنى ؟ عندما أنقذنى كان أخ ينقذ توأمه.

اجهش ضياء بالبكاء.

كان المشهد مؤلماً ومدهشاً.

تجمد ضياء فى مكانه، عيناه تدوران، يزيغ بصره، يفغرفاه وهو
يحدق بنور وعالية.

توقفت مريم عن بكائها وحديثها وانطلقت نحو غرفة الطبيب
الجراح.

عندما رأتها عالية تهرع إلى الغرفة أدركت أن مريم ستتنقذ أباها
الجميع أمام غرفة الجراحة، الكل يدعو ويتضرع الى الله
ساعات تتوقف فيها الأنفاس.
الجميع تعلقت عيناه بالغرفة.

عالية تنفطر حبات قلبها فهاهما بالداخل ابنها وابنتها.
ربما يمن عليها الله ويعيش كلاهما وربما تفقد أحدهما.
أتراها لوفقدت واحداً فمن ستفقده ومن يعيش.
لأول مرة يشعر ضياء بأنه أب للثنتين.

تملكته مشاعر حسرة وألم وترقب وخوف وتضرع ورهبة.
ألم وأمل

سيف بالخارج.

لم يخف البكاء، استسلم لذلك الشعور، ولم يخف قلقه وخوفه
الانسانة التي أحبها بين الحياة والموت، لم يملك منعها من انقاذ
أخيها الذي وجدته بعد غياب.

كانت نور تتضرع، صوتها خرج من أعماق قلبها.
يا رب، يا إلهي، أنا مذنب وأنت تعلم، ذنبي عظيم، ولكن يا رب
لا تعاقبني بعمر يارب.
ليس لأجلي ولكن لأجل المسكينة التي سرقت منها أحلامها
وابنها.

يارب أعده الى يارب،
رده الى سالما والى أمه، يارب سلم أخته لايمسها سوء.
لقد كنت أراه وديعة فرعيته، أرسلت لأمه مالا ليصير وديعة وهي
رفضتها
أنا أفعى رقطاء ولكنه وديعتك يارب، هو بريئ لا ذنب له فى
جرائمي.

كان الخوف يملك الجميع.
عندما فتح باب الغرفة ليخرج منها الجراح، ارتسمت على وجهه
ابتسامة يبشرهم بأن الجراحة تعتبر نجحت ولكن لن يتم الحكم
نهائيا بنجاحها الا بعد أيام لمتابعة مريم وعمر.
فى ساعة من بعد إجراء الجراحة، فوجئ الجميع بعمر يطلب أن
يحضر لديه نور وعالية ومريم وضياء.

انطلقت عالية الى سريرته قبله ، تشمله كله بالريت والتقبيل ،
ينخلع قلبها عليه.

مريم بسرير الى جواره لم تفق بعد.
فى تلك اللحظة اندفعت نور نحوه تتشمم أنفاسه ، ثم عادت
للخلف ، أدركت للحظة أنها ليست أمه ، قفزت إلى عقلها الحقيقة
التي حاولت اخفاءها ، تردد بعقلها صوت يذكرها.
لست أمه ، أنت مختطفته.

بدت عليها علامات الحرج والخوف.
يرنو عمر بناظريه صوب أمه عالية ومريم ، ثم ناداها : أمى
لم تتمالك دموعها.
لاتدرى ماتقول له ، تلعثت فى الكلام ، ثم وجدته ينحنى صوبها
يقبل يدها ورأسها.

عاد يكررها أمى.
صدرت منه لضياء نظرات عتاب ، يهمس : هل أقول أبى ؟ تمنيت
طوال العمر أن أنطق بها.

كنت أرى صور أبى طارق الذى لم أراه.
رسمت له الصور فى خيالى.
عرفتك على أنك خالى.
عندما عادت إليك مريم تمنيت أن يعود لى أبى.

كنت أشفق على مريم وأما وأرى أنك جنيت عليهما.
الآن لا أعرف مشاعري، لكن أعرف فقط أن أبى حى وموجود
الى جوارى وأختى وأمى.
لست عاتباً عليك فلا أملك عتاباً، فأنا شخص وهبت له الحياة
بعد موت.
التفت بعيداً فلمح نور، تقف مستندة برأسها للجدار، ترنو إليه
بعينين تستعطفانه.
التفتت فوجدت عيناه قد تعلقت بها، التقت عيناه بعينيها تتمنى لو
ناداها بأمى كما كان يفعل.
الأيام التى مضت بعد الجراحة واعتبرها الأطباء فترة خطيرة فى
حياة مريم وأخيها، لم تدخر عالية جهداً فى رعاية ابنها وابنتها
لم تغادر نور المستشفى، على الرغم من أنها لم تكن تلتقى بعمر
ولم تتحدث إليه.
تراقبه عن بعد.
تتسلل إلى حيث يقف وحيث يكون، تسترق السمع خلف جدران
غرفته لعلها تسمع صوته، تختلس نظرة إليه، تقف بأقصى ركن من
المستشفى.
ارتعدت أوصالها فى أوقات تترقب فيها أن تطمئن عليه وأن يخبرها
الجراح أنه أصبح معافى ليعود لممارسة حياته وكذلك أخته مريم
صرح الأطباء أنهما قد تخطيا مرحلة الخطر.

فقط يحتاجان لمتابعة طبية والتزام ببعض النقاط والاحتياطات.
لاحقت نور عمر وهو يقف مع أمه.
الفرصة سانحة لعالية لتصطحب ابنها لبيتها ، تتعم بشعور الأمومة
الذى حُرمتها نحو عمر.
مكث عمر ببيتها ولأول مرة أسرة من أم وأولادها.
يأتى ضياء فى كل يوم ليجلس الى عمر ومريم.
استيأس ضياء من أن تعود إليه عالية.
كان يكفيه أن تصفح عنه ويصفح عنه ابنه وابنته.
تستيقظ عالية من الصباح الباكر مع الفجر، تصلى وتدعو ربها
لابنيها ، ثم تعد إفطارا ، تصنع كل صنوف الحلوى والمخبوزات وتعد
لهما كل ما يشتهيانه.
تركت قلبها العنان ليحلق ببحر الأمومة ، ينهل من نبع قد عانت
الحرمان فيه بسنوات، ترنو إليهما وكأن القلب قد قدر له أن يعيش
سنوات يغاث فيها من بعد سنواته العجاف.
سعى سيف وأهله لإتمام الخطبة رسمياً ،
لتدخل الفرحة بيت عالية بعد طول غياب.
يخبرهم عمر بسعادته بدور أخو العروس.
تجمع بيوم خطبة مريم كل الأهل والأصدقاء من كل مكان ،
تجمعت أنظارهم ترتقب عروس البيت ، ثوبها الوردى الهادئ ، ونسيجه

الموشى برقة وبراعة صنع، ترفل فى وشاح مطرز بلون الفضة وكأنها حورية هوت من الجنة.

كل أصدقاء عالية أتوا يهنئون يكتفونها، يتذكرون الطفلة التى حملتها أيديهم وترت بينهم.

من بين الحضور غاب عمر قليلا ليعود ومعه نور، التقت نظراتها بعالية دون حديث باللسان وكأن عالية تخبرها أنها ربما يشفع لها عندها أنها ربت عمر واعتت به كأحسن ماتفعل الأم وربما بسببها امتنع المجرمون عن قتله.
ربما نغفو، ربما.

كان وليد قد فاتح والد لبنى برغبته فى خطبتها.

أجابه : وهل لى أن أرفض ؟ لكم تمنيتك عريسا لابنتى.

مضت الأيام ووليد تأتية تهديدات من رجال بيير.

يدرك أن الشبكة قد أعدت للانتقام، رغم أن هند أعطتهم كل الأموال التى وصلت اليها منهم بالبنوك، ورغم محاولاتها لانهاء علاقتها بهم.

فى ظهيرة يوم استغرق وليد فيه بالعمل بالمستشفى.

كانت لبنى بمكتب أبيها ومعه أمها.

أعدوا لاصطحاب وليد فى زيارة لبیت مريم، فمنذ خطبتها على سيف وهم يعتبرون وليد جزء من عائلة عالية، انتظروا وليد حتى يفرغ من عمله.

أنهى الجراحة التى خرج منها منهكاً ليرتدى ملابسه، يرحب
ببنى بمكتب أبيها.

لحظات وكان الجميع ينتظرونه ليخرجوا معاً لبيت عالية،
اصطحبوا بعضهم لردهة المستشفى، إلا أن شيئاً قد حدث فى ثوان
قليلة.

لقد تجمدت أجسادهم وتسمرت تطلع إلى جدران المستشفى،
فوجئوا بإعلان يملأ كل شبر فى المستشفى، وشاشة عرض.
صور بكل مكان.

الشاب المحترم الطبيب الذى أمامكم وليد، للأسف لقيط لأب لا
يعرفه، الشاب لا أب له، وهو نتيجة علاقة غير مشروعة
كانت التسجيلات تدوى بالمكان وشاشة عرض.
تجمد الجميع.

انعقدت الألسنة، خفقت القلوب، جميعهم جف حلقه وهم يحدقون
بوليد كما فعل ذلك أيضاً كل موظفى المستشفى.

انسحبت أم لبنى، بعد أن رمت بنظرة قاتلة لوليد تومئ بها إليه،
نظرة وإيماءة جمعت بها كل مصطلحات الاهانة دون أن تتفوه جذبت
اليها ابنتها وزوجها.

جثى وليد بمكانه، قدماه لاتقويان على حمله،
حاول أن يشرح لكن لم يعرف مايقول.

استسلم أيام طويلة للحزن يعتصره كانت هند تعلم أن أعداءها كثيرون لكن لم تتصور أن يدمروا ابنها.

كيف لمخلوق أن يؤذى هذا الملاك، كسروا قلبه دون رحمة بكت لبنى لوالديها، ماذنبه ؟ أتأخذونه بذنب لايد له فيه ؟ لم يؤذ أحداً، كانت أمها لاتملك الا قولها ياابنتى انه بن حرام. يا أمى ماذنبه ؟ وليد طيب عظيم وشاب رائع، تتوجه لأبيها لعله يقلع عن رأيه أو يعدل عنه.

دون جدوى دون طائل، لاصدى لمحاولاتها. تدخل أخوها، حاول اقناع والديه لكن لا حياة لمن تنادى.

* * *

كان الوقت مبكراً من صباح اليوم حين أتى ضياء مصطحباً هند يهرعان إلى بيت دكتور يوسف رمضان، ولجا الباب مسرعين يستد كل منهما على الآخر، فاجأ يوسف وزوجته بحضورهما دون موعد مسبق، أصرأ أن يتحدثا اليهما، دعاهما يوسف للدخول، ما إن جلسا حتى شرع ضياء فى فتح الحديث: يا دكتور أنت تعلم بطبيعة وليد، لو لم تكن تعرف بحقيقته لكنتم اعتبرتموه الشاب الأمثل للزواج من لبنى، شاب لايشبه غيره من الشباب، عالم فذ فى مجاله، خلقه يتحاكى عنه الجميع.

لو رفضتموه أتنصرون أن تجد لابنتك مثله، أقسم لك يا دكتور أننى كنتُ من أوائل من ظلم ذلك الشاب حتى أجبرنى على حبه واحترامه، أقسم لك لقد تمنيت أن يكون وليد ابناً لى. كانت لبنى لأيام ممتدة قد امتنعت عن الطعام ودخلت فى حالة من الاكتئاب،

حاول أخوها أن يخرجها منها، إلا أن صحتها ساءت، تجاوزت أيام عديدة لا يدخل فمها إلا ماء يجبرها سيف على شربه. فى اليوم الذى استلم فيه يوسف بنفسه شهادة شكر لوليد من جامعة بألمانيا وخطاباً يطلبون منه العمل معهم باعتباره برفيسور وأنه قد تم تدريس تقنية من جراحات القلب باسمه لدى جامعاتهم تبادل الرجل النظرت مع زوجته، فى حين، دخل سيف على أبيه يعاتبه،

— أهذا الذى ترفض زواجه من ابنتك ؟

شاب يعرف الجميع قيمته وعلمه وخلقه، نعاقبه لذنوب لا يد له فيه، عموماً لبنى أختى صارت صحتها كما ترون ولا أرى إلا أنكما قد جنيتما عليها.

تلتها أيام يعيد فيه يوسف حساباته، يمران على حجرة لبنى، يذبهما حالها، يتألمان لما وصلت إليه، صارت شبحاً من جلد كسى العظم.

لا تتفوه بكلمة مع أحد ، تسيل عبراتها دون توقف.
تعرضت لأزمة شديدة على إثر امتناعها عن الطعام.

* * *

بعد انقاذ لبنى من الموت قرر يوسف وآمال أن يتخذا موقفاً لادخال
السعادة على لبنى
ذهب يوسف بنفسه الى وليد يخبره أنه يشرفه أن يكون زوجا
لابنته وأنه فى إنتظار تشريفه لهم بالبيت مع أمه هند

* * *

فى بيت لبنى الأفراح تضاعفت فقد تقدم وليد رسميا للخطبة
اصطحبته هند ، هى تعلم جيداً نظرة المجتمع لها ولكنها تحاول
أن تعيش حياة جديدة.
تملكت وليد دهشة تسيطر عليه لما طُرق الباب فوجد أن الضيف
هو ضياء.
تعجب من مجيئه ، رجل قد اعتلت صحته ، يجلس الى أقرب
كرسى للباب.
سأله ضياء أيدهشك قدومى اليك ؟ يابنى أنا وهند ونور ارتكبنا
آثاما ، لو لم يسامحنا الله ويغفرها لنا لهلكننا.
نحن بين يدي رحمة.

لأنملك استرجاع الماضى.
لوثنتا آثامه ، لم نعد أنقياء.
ليتنا بقينا هناك ، عند براءة الطفولة ، ليتنا لم نقترف ظلماً
وعدواناً.

يابنى لو غفرت لهند فاغفر لى.
وددت أن أقوم بدور الأب معك ، وددت أن أكون أباك كما
لو كنت أخا لمريم وعمر اللذين رزقتُ بهما بعد غياب.
أعلم أن مطلبى صعب ولكن لا أدرى لماذا شعرتُ بحاجتى تلك
أقبل وليد نحو ضياء يصفحه.
- سامحنى لم أصفحك عند قدومك ، أنت لم تؤذنى ، ولا
أتذكر أنك أسأت لى.

بل سمحت لأمى هند أن ترعانى وتعيش قسطاً من حياتها معى
من تسببت فى إيذائه كانت عالية وأبناءها.
حتى أن أمى هند تسببت فى إيذائهم.
بل كانت المرتكب الأكبر للجرائم.
ستأتى معى ، فلا يعقل أن تكون أمى معى وليس الى جوارها أبى.
كان الاضطراب باديا على هند طوال الطريق ، استقبلت مكاملة ،
أدرك وليد من رد فعلها أنها تلقت تهديدا من الشبكة الإجرامية.
سألها عن سبب ما اعترأها ، حاولت اخفاء الأمر حتى لاتتغص عليه
يومه.

مرت الخطبة كأجمل مايكون، العروس قد ارتدت ثوبا ذهبيا
ألوانه ناعمة، تعكس رققتها وجمال وجهها وروعة قلبها.
قدم وليد هديته، علت الزغاريد، وقفت عالية تهنى.
والى جوار العروس مريم أختها وصديقتها وعروس أخيها.
انقضى الحفل على أجمل مايكون، عاد وليد مع أمه هند وضياء
لبيت هند.

فقد أصرت أن يتناول عشاء معهم.
توقفت عجلات السيارة أمام قصر ضياء.
انتبهوا لسيارة تلاحقهم، عندما توقفت عجلات السيارة لينزل منها
ضياء وهند، انتبه وليد للسيارة خلفه فنزل، كانت الرصاصات قد
اندفعت تلاحقهم.

قبلها بدقائق كان وليد قد انتبه للتهديدات على هاتف هند فأبلغ
الشرطة فى ساعتها، منذ أيام قد أخبرهم بكل القصة.
وصلت سيارات الشرطة، فهرب المجرمون ولاحتقتهم وأمسك بهم
رجال الشرطة، لكن الرصاصات التى انطلقت قبل قدومهم كانت
قد أصابت هند.

كلها اصابات مميتة، استقرت بقلبها.
اندفع نحوها وليد يحملها، ينادىها:
أمى لن تتركينى، ألم تعدينى أن تحملى أبنائى ؟

سالت دماؤها على ذراعيه وفى حضنه، تهدج صوتها وهى تمد
يدها تتلمس وجنته تقول: وليد ابنى حبيبى، هل سيفغر الله لى ؟
ليته يغفر.

لقد كنتَ وديعةً عندى من أمك فاعتيت بها، أفعى تصون وديعة
أترأه هذا العمل يغفر لى ذنبى ؟
فاضت روحها بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة، ارتمى ضياء عليها
ينتحب.

عندما اجتمع الجميع للصلاة على هند وقفت عالية والى جانبها
مريم وعمر، أقبلت نحو جسد هند المسجى فى كفنه، انتحبت،
سالت عبراتها سخية، انزوت لركن بعيد تجثو على ركبتها، تتمتم
بكلمات رددتها، قالت: سامحتك ياهند، غفرت لك وغفرت لنور، لا
أعرف كيف غفرتُ وكيف عفوتُ لكن هذا ماحدث، لا أفهم
كيف تبدل حال قلبى ولكننى غفرت.

يا إلهى، لا ندرك كنهة الحياة ولا نفهما إلا ونحن على اعتبارها
مودعين.

نسبر غورها فقط ونحن مفارقين وقد عشنا أعمارنا لا نفهمها ولا
نفهم أنفسنا.

ليتك تغفر يا الله وليت الجراح تتدمل.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
5	مقدمة
6	احداث الرواية
348	نهاية الاحداث